رندا قسيس

سراديب الآلهة

مدونة ابو عبدو

اي كتب - لندن

الناشر الإلكتروني العربي الأول للكتب

2012

سراديب الآلهة

رندا قسيس

يسلط كتاب "سراديب الآلهة" الضوء على مرحلة ما قبل حقبة الروحانيات والتي صاغ بها الإنسان الأول الركائز الأولى للأخلاق, حيث أبحر مع وعيه الأخلاقي في خضم معطياته النفسية التي جعلته ينصب في أعماق نفسه قاضيا يستمد قوته من ذاته الداخلية, قبل أن يعود ليهرب هذه الذات من قضبان النفس الداخلية إلى الأفق الخارجي فيما بعد.

نشأ الوعي الأخلاقي من رغبات نفسية فردية, كان قد تم جمعها وغربلتها لتشكل سلوكيات أخلاقية تصب في مصلحة الوعاء الجماعي. حيث تغيرت هيكلة هذه السلوكيات, عبر العصور والأزمنة, تحت مؤثرات عدة, بما فيها عامل المناخ, لتتحول إلى ركائز أخلاقية للشعوب, وإلى ممرات مختلفة لتطور الثقافات

المقدمه

الضياع والفضيحة في غرفة خزف
علي الصراف

الجنس هو الأصل؛ هو الطبيعة الأولى للحياة. أما الأخلاقيات التي حاولت تنظيمه، فليست سوى فروع أضاعت الطريق الى إقامة علاقة قويمة مع الوجود.

هذا هو كل ما حاولت رندا قسيس أن تبرهن عليه.

لقد أضعنا الطريق. ولكن ليس لمرة واحدة فقط، بل مرتين. الأولى، عندما أخرجنا الجنس من طبيعته لنمارسه كنوع من قيود وضوابط وحدود. والثانية عندما حوّلناه من فوضى غرائز الى نظام اخلاقي صارم.

في الضياع الأول، لم يعد الجنس جنسا، لا بالمعنى الإنساني ولا بالمعنى الطبيعي.

فالممارسة الغريزية صارت عملا آليا من جهة، ومحملا، من جهة أخرى، بالكثير من الافتراضات والأوهام والمخاوف والأساطير.

أما في الضياع الثاني، فقد تم تتويجه بالأديان التي حاولت أن تضفي على تلك الأساطير طابعا مقدسا.

هذا التصعيد الذي صار إلهيا، الى أبعد الحدود، لم يُفقد الجنس معناه ووظيفته فحسب، ولكنه أخرج الأخلاقيات عن إطارها الذي كان يمكنه أن يُعنى بالرقي الاجتماعي والإنساني.

لا شك أن نوعا من التنظيم كان ضروريا للحفاظ على آلية ما لاستمرار النوع، وللمحافظة على الاستقرار الاجتماعي نفسه. إلا أن انفلات ذلك التنظيم ليصبح جزءا من مقدس أسطوري، جعل من الجنس أداة للتشويه والدمار الذاتي أكثر منه لحفظ النوع.

وما من أحد في ثقافتنا العربية، تمكن من أن ينبش جذور الحقيقة في العلاقة بين الأصل والفروع مثلما فعلت قسيس.

وكما لو انها اغلقت على نفسها الباب في غرفة خزف، فقد حطمت رندا كل الأيقونات والمزهريات والأصص الثقافية التي تحيط بعلاقة الإنسان بطبيعته. وقطعة قطعة، كشفت عن الجهل والمخاوف التي احاطت بفكرتنا عن الجنس، وعن السبب الذي جعل "المقدس" ضروريا لتنظيمه.

ولن تجتاز عتبة الخاتمة، في هذا الكتاب، حتى لتدرك أن هذا العمل يفتح الأبواب لثورة اجتماعية تنقلب على الجنس، ليس بأقل من انقلابها على المقدس نفسه.

لم تفتقر رندا الى الجرأة في القول. ليس معروفا عنها ذلك أصلا. ولكن، مثلما جاز لها أن تسخر من كل أولئك الذين يكتفون بالعنوان ليحكموا على المضمون، فإنها، في هذا الكتاب، كشفت عن الفضيحة في ثقافتهم. وقدمتها لهم على طبقٍ من معنى أكثر نقاء من الذهب.

لقد تركت العلوم والمعارف تتكلم، على طول الوقت. وقلّبت من صفحات الخبرات الإنسانية الكثير. ومثل سائق ماهر في طريق وعرة، قادت قسيس قارئها الى شاطئ أمان مختلف، هو شاطئ الإدراك بما يدرك!
وهذا خير ما يمكن لمثقف أن يفعل.
لقد أضاءت قسيس منطقة مظلمة في ثقافتنا، مستخدمة الكواشف الضوئية نفسها التي أنارت الطريق للآخرين.
وبالمعنى الاجتماعي للكلمة، فان عملا كهذا، سيقدم نفسه ليس كبحث في الفكر والعلوم، وانما كركيزة من ركائز الثورة ضد الجهل والتخلف والظلم.
لقد أرادت قسيس أن تتفحص معالم وتضاريس أخلاقياتنا وطبيعتها الدينية، ولكنها انتهت الى ما يمكن أن نعتبره مشروعا للتحرر، لم تتمكن أحزاب بكاملها أن تخوض فيه.
ولئن عرفت الثقافة العربية مشاريع فكر تحرري يبدأ من الدعوة الى المساواة بين الرجل والمرأة، فسطّرت أعمالا خالدة لمفكرين وثوريين كبار، مثل الطاهر الحداد وقاسم أمين وسلامة موسى، وتاليا نوال السعداوي، إلا أن رندا قسيس تقطع الخطوات الأخيرة التي لم يكن في حسبان مشاريع التحرر السابقة أن تقطعها.
بل إنها تقطع عليها، هي نفسها، الطريق. وذلك بوصفها مشاريع تحرر، أولا لم تؤد الغرض منها، وثانيا، ظلت قاصرة عن ملاحقة ما تراكم من معارف في مجال العلوم الانسانية.
لقد حاول أولئك الثوريون أن يكسروا أيقونة التمييز، وأن يطيحوا ببعض مظاهر الظلم الذي لحق بالمرأة (بوصفها موضوعا اجتماعيا يستحق العطف عليه).
لقد ذهبت قسيس الى أبعد من ذلك بكثير. إذ كسرت أيقونة الأخلاقيات الدينية نفسها، وكشفت عن فضيحتها، كعلاقة جهل وخوف وتشويه.
ولكن قسيس لم تتوقف عند هذا الحد أيضا.
أولا، لا توجد إمرأة في هذا الكتاب. وبالتالي لا يوجد "موضوع اجتماعي" يستحق العطف عليه. ولكن يوجد جنس. وهذا موضوع إنساني، "فوق اجتماعي" بكثير. إنه موضوع تم تركه للعلوم والمعارف الحديثة، وليس للبيانات أو للدعوات ذات الطابع النبيل.
ثانيا، إنها تقترح مشروع تحرر مختلف، لا يطالب بالمساواة! بل يسخر، ضمنا، من المطالبة بما تجاوزته البشرية منذ زمن بعيد. ولكنه يطالب بإلقاء نظرة انثروبولوجية ونفسية على ما نؤمن به أو ما نفكر فيه.
"ما بعد الأنثوية" العربية قد لا تبدأ إلا من هنا. إلا أن هذا المشروع ليس إطارا نظريا للسير في هذا الاتجاه. إنه عمل لكشف الجذر الأسطوري لأخلاقيات مزيفة، تم رفعها الى مصاف المقدس لكي لا تُمس.
لقد وضعت رندا قسيس يدها على المحرم، وكشفت عن وجه طوطمه.
إنه بذلك، كتاب كفر، من الطراز الأول. وكاتبته تستحق الرجم. ولكنها لا تخشاه.
ليس في هذه الدنيا معرفة تستحق أن يخافها المرء. كما أنه ليس فيها ما يبرر التلحف بأساطير لتجعلنا نستقيم مع أخلاقيات ثبت أنها أخلاقيات تعسف واستبداد وظلم.

لقد آن الأوان لتحطيم ما تبقى من خزف في هذه الغرفة.

مدخل

راودتني أسئلة كثيرة حفزتني لتدوين بعض النظريات والمحاولات الجادة التي قام بها كثير من علماء الأنتربولوجيا والآثار والنفس للبحث عن تاريخ الإنسان المختبئ في أجواف الكلمات والمخطوطات والآثار المتبقية، وذلك في إطار مشروع حول "الدين والثقافة والجنس"، أتمنى أن أجعل من هذا المؤلف جزأه الأول.

في هذا الكتاب، سأسلّط الضوء على مرحلة ما قبل حقبة الروحانيات والتي صاغ بها الإنسان الأول الركائز الأولى للأخلاق، حيث أبحر مع وعيه الأخلاقي في خضم معطياته النفسية التي جعلته يُنصّب في أعماق نفسه قاضياً يستمد قوته من ذاته الداخلية، قبل أن يعود ليُهرّب هذه الذات من قضبان النفس الداخلية إلى الأفق الخارجي فيما بعد.

نشأ الوعي الأخلاقي من رغبات نفسية فردية، كان قد تم جمعها وغربلتها لتشكل سلوكيات أخلاقية تصب في مصلحة الوعاء الجماعي. حيث تغيرت هيكلة هذه السلوكيات، عبر العصور والأزمنة، تحت مؤثرات عدة، بما فيها عامل المناخ، لتتحول إلى ركائز أخلاقية للشعوب، وإلى ممرات مختلفة لتطور الثقافات.

فإذا دققنا النظر في تاريخنا البعيد المليء بالطقوس والخرافات، سوف نرى كيف أن هذه الخرافات ساهمت وإلى حد بعيد في تطور البشرية، فكانت جزءا من ذلك الانتقال التدريجي الذي عرفته الإنسانية. حيث أدت تلك الخرافات والطقوس، ليس في القليل من الأحيان، إلى تقديم ضحايا بشرية، إلا أنها كانت مقدمة لتأسيس مناهج وصيغ جديدة بين الأفراد والعشيرة تمهيداً لترسيخ شكل النظام الهرمي للمجتمع.

ساهمت هذه الخرافات في تطور مفاهيم المجتمع وكوّنت أسس النظام الاجتماعي القائم على أعمدة عدة، منها: السلطة - الملكية الخاصة - الزواج واحترام الحياة البشرية(*1).

وبما أننا نتكلم عن الأسس والأخلاقيات الأولى التي عرفتها الجماعات، فلا بد لنا من التكلم عن سكان القارات الأصلية التي عرفتها القارتان الأمريكية والأسترالية. فمن خلال هذه الجماعات التي ما زالت موجودة إلى وقتنا هذا، استطاع اختصاصيو الأنتربولوجيا تسليط الضوء على هيكلتها الاجتماعية، للغوص أكثر في منابع الأخلاق تدفقاً، واكتشاف الجذور الأصلية للأديان والآلهة التي مهدت من خلالها أرضية خصبة لظهور أخلاقياتنا الراهنة، لتتغذى من خيالاتنا الطفولية وتعشعش في عقولنا قبل أن تترعرع وتتحول إلى ثوابت تعيق حركة الدماغ والقدرة على التفكير، فنتحول بسببها إلى آلات مبرمجة. هذه الثوابت لم تفعل سوى أنها ألغت الفردية وألزمت الكتلة الجماعية بأن تستند على حقبة تاريخية معينة وعلى إطار ديني محدد سيكون هو الآمر الناهي لعقولنا وأجسادنا.

وعلى الرغم من أن الطريق الذي شقته العلوم والمعارف الحديثة واضح إلى حد معقول، إلا أن مُتداوَلنا المعرفي ما يزال يواجه ضبابية في إيجاد التفاسير التي تشرح التطور التاريخي للفكر البشري، حتى ترانا نلجأ إلى تفاسير بسيطة لا تروي ظمأ إنسان يحاول ترتيب تاريخ الفكر والعقائد بطريقة موضوعية.

إذ إن أصحاب التوجهات الفكرية والعقائدية الكبرى يصبغون رؤيتهم لهذا التاريخ بنفس لون الخلفية التي قدموا منها. فالدينيون، مثلاً، يستمدون قناعاتهم وأخلاقياتهم ومفاهيمهم من أساطير قديمة تراكمت على مر العصور لتشكل بنيتهم الداخلية للإدراك.

استمدت تلك الأساطير قوتها الطاغية من واقع تم تضخيمه عبر جموح الإنسان الأول للسفر في الخيال فمهدت لانتقاله من عالم الخرافة إلى عالم الروحانيات.

إلا أننا اليوم استطعنا أن نحقق تقدماً ما بفضل ذاك الكم من الدراسات والأبحاث التي ساعدت في تفكيك أسرار التاريخ العقائدي. ويعود ذلك إلى فضل العلوم الحديثة التي ساهمت في سبر أغوار الاعتقادات الأولى التي ابتدأها الإنسان بسطوع شمس وعيه. فالعلم هو ذاك المراقب للظواهر الذي يقوم بجمعها وإعادة ترتيبها من خلال فكر مجرد من العواطف والميولات والقناعات الذاتية والجماعية كي يصل إلى نتائج أقرب ما يمكن إلى الواقع.

مما لا شك فيه أن من أصعب الأشياء على الإنسان أن يغيّر من معتقداته التي بنى عليها تاريخاً كاملاً وحياة برمتها. ويعود ذلك لرفض انصياع تركيبته النفسية لمتطلبات التأقلم مع المعطيات الخارجية الجديدة، مما يؤدي إلى نشوء ضغط بين تلك النفسية وبين الركائز المسجلة في داخله. وعادة ما يقود هذا الضغطُ الإنسانَ إلى التشبث بأوهام لا تلبث أن تُدخله في دائرة ضيقة ينتج عنها انكماش فردي ومن ثم جماعي، يدفع بالإنسان وبمجتمعه إلى العيش في قوقعة عزلة مدمرة.

إن التشبث بالقديم لا يعود إلى عجز العلم عن اعطائنا الأجوبة، بل يعود إلى الخوف من الشعور بالخطأ. فإذا امتلكنا الشجاعة الكاملة للنظر إلى الماضي البعيد وتفكيك محتوياته، عندها نستطيع اقتحام فضاءات واسعة من المعرفة ليتملكنا الشعور بالفخر. فعندما تبدأ أصابعنا بلمس ذاك الوهج الكاشف لأعماق البشرية الغائصة في كينونتها الطبيعية، سوف نتعلم أن الخطأ جزء لا يتجزأ من الصواب، بل هو الطريق المؤدي إلى فتح محاور متعددة للمعرفة نفسها، وعندئذ سوف نقتنع بأن العلم هو الوحيد القادر على ارتداء ثوب جديد يستطيع تغييره دائماً، لأن نظرياته قائمة على التجارب الدؤوبة. ولسوف نستطيع أيضا القفز عالياً للحصول على أجوبة أرهقنا البحث عنها لزمن طويل.

هذه الأجوبة التي طالما بحثنا عنها في محيطنا الخارجي ومن ثم في مخيلتنا وأعماق نفوسنا، هي ذاتها المعرفة المتراكمة عبر الأجيال التي علمتنا ألا نخاف من الهدم بهدف بناء معرفةٍ تروي ذلك الظمأ المتعطش من أجل اكتفاء الرغبات الدفينة الباحثة عن أبديةٍ ذاتية إلى اللانهاية.

لا شك أن تحلينا بمرونة التفكير يؤهلنا للإمساك بالحقائق، والسير بها على نحو متوازٍ مع خطوات العلم السريعة، لننشئ علاقة بين الأشياء والأفعال والحاجات النفسية التي تنبع عن حاجات فيزيولوجية تتفاعل فيما بينها لتمكننا من التوصل إلى إمكانية استمرار وجودنا، وبذلك يتحول ذلك الإله الثابت القابع في أنفسنا إلى إلهٍ تندمج به المعرفة مع النفس البشرية لتلتقي بعدها مع كل شيئ حي. وعندها سوف يكون بوسعنا أن نتوحد، وتتوحد معنا جميع الكائنات في وعاء واحد لنشكّل تلك القوة الطبيعية الساكنة في كل ذات. إلا أننا لا يمكننا أن نصل أو أن نلمس تلك القوة إلا بعد رفض كل الثوابت المسبقة لنصبح أجزاء من متحول.

لقد أعددت هذا الكتاب، ليس من أجل نفي أو إثبات ديانات أو أخلاقيات، وإنما من أجل أن ننظر في سراديب الذات التي جاءت منها. وهذه خطوة أولى فيما أظن أنه مشروع يستحق التوغل فيه بهدف التحرر من جميع القيود التي تكبل فكر الإنسان من أجل ولادة جديدة للفرد في هذه المجتمعات.

ر. ق.

---

1. جيمس جورج فريدزر: *الإنسان، الإله والأبدية، منافع غير مباشرة للخرافة والدفاع عنها*.

القسم الأول الحلقة 1 أثر مفهوم الطوطم في نشأة الأديان - الجزء الأول

تعد الخرافة الينبوع الأول للنظام الطوطمي الذي ساهم في شق الطريق للإنسان في تدجين الحيوانات ومن ثم الزراعة واللّذينِ ساهما بدورهما في عملية تطور الإنسان وانتقاله من الإنسان "الباليوثي" إلى الإنسان "النيوليثي". وهنا لا بد من الإشارة، إلى أن الإنسان "الباليوثي" في جميع مراحله كان صيّاداً وقاطفاً للفاكهة. وكما يعتقد بعض اختصاصي الآثار فإن مرحلة القطف والاستفادة من الموارد الطبيعية لعبت دوراً هاماً في تطور الإنسان تدريجياً، وفي تأسيس معتقداته البدائية التي مهدت لتكوين نظام اجتماعي ديني. فكانت من تلك المعتقدات الخرافية والمؤسِسة لنظام اجتماعي تلك التي تخص عملية الحمل عند الأنثى وعملية التكاثر عند الحيوانات والنباتات، ويعود ذلك لعدم ربط علاقة الحمل عند المرأة بالحيوانات المنوية لدى الذكر عند بعض القبائل الأسترالية، والناشئ بالطبع عن جهل الإنسان البدائي في تلك الحقبة بعلاقة الذكر في تلقيح البويضة، وظن البعض منهم آنذاك بوجود علاقة تبادلية تربط تكاثر الحيوانات والنباتات بعملية الحمل عند المرأة، لينشأ عن هذا الربط معتقدات مختلفة. فكان الاعتقاد السائد آنذاك أن لحظة حصول الحمل مترافقة مع شعور ينتاب المرأة عند إحساسها بارتعاش في الثدي، ليتوجب عليها أن تستذكر ما أكلته أو رأته أو فكرت به كنبات أو حيوان في تلك اللحظة كي يتم نسب الطفل إلى طوطم معين.

فسر جيمس فريدزر(*2) هذا الاعتقاد على أنه نتيجة جهل الإنسان الأول أسباب التناسل والإنجاب التي أدت إلى تخصيب فكرة تناسخ الحيوانات والكائنات من خلال الإنسان. فالنظرية الأولى لتفسير الطوطم استندت على مبدأ تبادل الأرواح بين الإنسان وطوطمه، ليكون الحيوان الطوطمي فرداً من أفراد العشيرة المنتمي اليها، و"المقدس" في آن واحد.

في هذا المكان المقدس يتم تحديد طوطم الطفل من دون أن يتبع طوطم الأم أو الأب، بل يُنسب إلى طوطم السلف والذي يُحدّد من خلال النبات أو الحيوان المتعلق بمكان الأم عند شعورها بأول علامات الحمل، ويعود ذلك، كما ذكر "فريدزر" بسبب جهل قبيلة "الأرونتا" لعملية التناسل المرتبطة بالعملية الجنسية.

وجد سالامون رينا (*3) أن النظام الطوطمي قام على أساسين: الأول، وهو احترام حياة الطوطم، فقتله لا يتم إلا في ظروف معينة حيث يجتمع أفراد القبيلة لأكله جماعياً مع ممارسة طقوس خاصة تليق به؛ أما الأساس الثاني، فهو قائم على تحريم العلاقات الجنسية

بين الأفراد المنتسبين إلى طوطم واحد وهذا ما يلقب بالنظام الـ"ايكزوغامي" الذي ينظم العلاقات الجنسية داخل القبيلة الواحدة، كما اعتقد رينا أيضاً أن التحريم الذي أصاب هذين الأساسين ناتج عن مشاعر الاحترام تجاه حياة أفراد العشيرة الواحدة وامتزاجها بشعور الاشمئزاز من رؤية الدم المراق. فالطوطم هو أحد أفراد العشيرة المتميز والممتلك لقدرة غامضة (*4) . لهذا تم التعارف على أن الطوطمية والنظام الايكزوغامي هما نظامان نابعان من مبدأ واحد يخصان فترة زمنية معينة ونتجا عن عملية تطور لهيكلة الجماعة.

اعتبر معظم الأنثروبولوجيين الطوطم نظاماً عشائرياً أو قبلياً قائماً على مجموعة من التابوهات التي تتلخص في عبادة معينة من قبل جماعة ما لحيوان في معظم الأحيان، أو نبات في حالات نادرة، كما يمكن للطوطم أن يتجلى بعبادة مادة غير حية في حالات استثنائية. فما يميز الطوطم عن الصنم هي تلك العلاقه غير المحددة وغير المرتبطة بغرض واحد، بل مرتبطة بمجموعة من المواد من خلال مفهوم واسع. هذه العبادات التي مارسها الإنسان لصالح حيوان أو نبات ما، ولدت من الحقبات البدائية في مرحلة الصيد للجماعات، إلا أنها استمرت مع تطور المجتمعات لتأخذ أشكالاً متطورة عديدة. فنجد، على سبيل المثال، أن التابو رافق النظام الطوطمي وتطور معه حسب تطور النظام الاجتماعي ليصبح جزءاً منه، لهذا نجد تغيرات في مفهوم التابو عبر العصور.

مر النظام الطوطمي بمراحل متعددة، ففي مرحلته البدائية اعتمد على اعتبار الأم الرابطَ الموحِّد ما بين أصل الطوطم المتجسد بمنشأ الحمل والطوطم الوراثي عند حصول لحظة الإحساس بالحمل المترافق بارتعاش الثدي. من هنا تشكل الطوطم الفردي الناشئ من فكرة تبادل الأرواح بين الإنسان وطوطمه. هذه النظرية القديمة، من وجهة نظر جيمس فريدزر، تلاحمت وامتزجت مع المفهوم الوراثي الأبوي الجديد لتعطي مفهوماً جديداً للطوطم.
ميز فريدزر الطوطم إلى ثلاثة أنواع:

1 ـ طوطم العشيرة (*5) الذي ينتقل من جيل لآخر،
2ـ الطوطم المتعلق بالنوع الجنسي، أي المنقسم إلى طوطم للإناث وآخر للذكور.
3ـ الطوطم الفردي والخاص بالفرد الواحد والمتوارث عبره.

بينما قسم ايميل دوركهيم الطوطم إلى نوعين: الطوطم العشائري والطوطم الفردي، ليؤكد لنا على العلاقة المترابطة بين هذين الطوطمين والمشتقين من بعضهما البعض. لينقد دوركهيم ما قدمه جيمس فريدزر وفرضيته المبنية على أسبقية الطوطم الفردي على الطوطم الجماعي أو العشائري. فقد بنى دوركهيم شكوكه لهذه الفرضية باعتبار أن الطوطم الجماعي لا يمكنه أن يكون حالة فردية معممة على الجماعة كما ادعى فريدزر. ليعتبر أن الطقوس الطوطمية عبارة عن طقوس وقوى دينية، وهي بدورها نتاج جمعي يرتكز في أسسه على

القاعدة الأخلاقية المتكونة من أفكار ومشاعر جمعية والتي من خلالها تستطيع إيقاظ المشهد الجماعي عند الأفراد. ليس هذا فحسب، بل وجد دوركهيم أن الطوطم الجماعي في حالة تراجعية كلما ازدادت الجماعات تطوراً، فعلى سبيل المثال، وجد أن القبائل الأسترالية التابعة لنظام الطوطم الجماعي أكثر تخلفاً من قبائل أمريكا الشمالية المنظمة على أساس الطوطم الفردي. لهذا رجح دوركهيم انشقاق الطوطم الفردي عن الطوطم الجماعي، فهو الحالة الاجتماعية والأخلاقية الأكثر تقدماً.

قبل الاسترسال في حجج دوركهيم الرافضة للتعريف المحدود للطوطم الفردي عند فريدزر، أود أن أتوقف قليلاً لتعريف معنى الأديان عند البعض..

2- أسس جيمس فريدزر فرضياته بناءً على دراسات "سبينسر وجيلين" التي أعطت تفسيراً لمنشأ فكرة النظام الطوطمي، فعند قبائل "ارونتا" الاسترالية التي كانت الأقدم والأكثر بدائية المعروفة لدى الأنتربولوجيين في ذلك الوقت. وجد "فريدزر" أن مفهوم الطوطم لدى أفراد هذه القبيلة مرتبط بمكان محدد لديها يسكنها أرواح أسلاف القبيلة، ففي هذا المكان المقدس تُمارس الطقوس وتحتفظ بالـ"شورينجا" التي تحتوي في معظم الأحيان عند قبائل الـ"ارونتا" و"لوريتجا"... على بعض الخشب أو الأحجار الممتلكة من فرد معين أو من جماعة لتمنح صفة القدسية عليها. ولا بد من الذكر انه تمت إضافة بعض الطقوس عليها عند بعض القبائل، كغناء الأناشيد والاحتفالات... علماً أن الـ"شورينجا" في علم النفس التحليلي لها دلالة رمزية فهي ترمز إلى العضوالذكري كما ذكرها الأنتربولوجي ومحلل النفس جيزا روهيم. وبعيداً عن رمزية "الشورينجا" نجدها تعبر في طقوسها عن ارتباط الماضي بالحاضر والمستقبل، كما أن ممارسة طقوس "الشورينجا" تهدف إلى اقامة علاقة ملموسة ومحسوسة بين الحاضر والماضي وأهمية استمراره في الحاضر.

3- رينا سالامون، كتاب طقوس وأساطير وأديان؛ فصل الطوطمية والايكزوغامي صفحة 77-81.

4- القوى الغامضة تم تعريفها على أنها المانا التي تعد المكون الرئيسي لهذه القوى التي يمكن لحاملها لعب دور أساسي ضمن جماعته، لهذا تم وصفها من قبل القبائل البدائية على أنها امتداد ظل لحياة سابقة وأن الأموات أو الآلهة هم ينابيع المانا، أي بمعنى آخر نستطيع القول إن المانا وما تحتوي من قوى تستمد طاقتها من الأعداد اللامتنهاية للموتى.

5- في اللغة الانكليزية أو الفرنسية تستخدم كلمة "clan" والتي يمكننا ترجمتها بجماعة أو زمرة أو عشيرة.

القسم الأول الحلقة 2 أثر مفهوم الطوطم في نشأة الأديان - الجزء الثاني

قبل الاسترسال في حجج دوركهيم الرافضة للتعريف المحدود للطوطم الفردي عند فريدزر، أود أن أتوقف قليلاً لتعريف معنى الأديان عند البعض، لنجد أن الفيلسوف الالماني فريديريك دانييل ارنست شلايرماخر قام بتعريف الدين على أنه "ناتج عن المشاعر المرتكزة على مشاعر الميول الاتكالية للأفراد". بينما أعطى الأثنوغرافي ادوارد تايلور تعريفاً آخر أكثر تبسيطاً للدين على أنه "الإيمان بالروحانيات" معتمداً على كلمة "مينيما" كتعريف للدين. أما بالنسبة إلى عالم الآثار والاختصاصي في تاريخ الديانات سالامون رينا، فقد وجد أن كلمة دين خالية من أية فكرة مطلقة، فهي عبارة عن عوائق تهدف إلى الحد من الإرادة الفردية. فإذا تمعنّا في نواة الفكر الديني من خلال إلقاء الضوء على عدة ديانات، نجد أشكالا شتى من القوانين التي تقف حاجزا ورادعا للنشاط الفكري والنفسي (الفردي) للإنسان. من هذا المفهوم استطاع سالامون أن يعرّف الدين على أنه "مجموعة من الوساوس المعيقة لحركة قدراتنا"(* 6).

نرى أن هذا التعريف الأخير قام بإلغاء الإضافات الروحانية للدين، ليقوم بتجريدها من قدسية نوعية، فيعيدها بذلك إلى مشرحة التفكيك لفهم العوامل التي ساهمت برحيلها من المنبع الإنساني إلى فضاء سماوي.

كما نجد أن هذا التعريف يدفعنا إلى اعتبار النظام الطوطمي نظاماً دينياً حسب تعريف دوركهيم له. وخصوصا عند تجزئتنا للمركب الديني الأساسي المكون من مجموعة أخلاقية - اجتماعية هدفها التحكم بالأفراد والشروع في تنظيمهم من خلال هيكلة جماعية مرتبطة بعاملي الوعي والمعرفة المتغيرتين حسب الزمان والمكان. وعلى هذا الأساس، يمكننا تعريف الأخلاق على أنها: البناء الأول للأديان القائم على إلزامات معينة تمارس على أفراد الجماعة الواحدة للحد من امكانياتهم وقدراتهم الجسدية والنفسية والخيالية والتي تدفع الأفراد إلى التقيد بها وتطبيقها تحت هاجس القلق أو الشعور بالذنب.

هذا الضغط الشديد يدفع الفرد لتبني سلوكيات مفروضة عليه من قبل جماعته تحت شعارات أو أيديولوجيات دينية ... الخ تتناسب مع نسبة تطور وعيه.

بعد الإطلاع على الدراسات والأبحاث التي أجريت على القبائل الاسترالية وغيرها من

قبل الأنتربولوجيين، نجدهم يقرون بوجود معتقدات مختلفة في عدد كبير من المجتمعات القديمة.

فالنظام الطوطمي كغيره من الأديان المحتوية على أسس تنظيمية للأفراد المنتميين لها والتي تعكس لنا، في ذات الوقت نظرة عامة الى الحياة، لإيجاد التفاسير المتنوعة لكل ما يحيط بنا مستفيدة من قدرة الأفراد المتميزين لدى جماعاتهم.

لقد حاول الإنسان البدائي جمع كل ما تحويه الطبيعة من مادة حية أو غير حية واستخدامها كعناصر متنوعة مكوناً بذلك نظامه الطوطمي.

أما بالنسبة لهيكلة هذا النظام، فنجد أن كل قبيلة وما تحويه من عشائر تقسم على شكل وحدات، كما تتألف كل وحدة من عشيرتين أو أكثر (* 7)، فيتم منح كل منها بعض العناصر الحية أو غير الحية من خلال تقسيم ما تحويه الطبيعة من عناصر بين العشائر.

يقوم هذا المفهوم على أساس تكتل المادة الحية وغير الحية الموجودة في الطبيعة التي تُكوّن النظام الطوطمي، فيصبح أحد هذه المكونات الطبيعية رمزا للعشيرة. كما أن اختيار أحد هذه المكونات تبقى في حدود التقسيم الطبيعي الممنوح لكل وحدة.

بعد الاطلاع على عملية التقسيم، يمكننا فهم منابع هذه الظاهرة والتي تصب في مبدأ الضمان والحماية للإنسان. فمفهوم الطوطم آتٍ من فكرة التوحّد ما بين الفرد أو الجماعة مع طوطمه والتي تعبّر، بشكل آخر، وخصوصاً بعد إلقاء الضوء على الممارسات المتبعة من قبل الأفراد عند إحساسهم بالخطر، عن محاولات عدة للإنسان البدائي تهدف لنقل روحه إلى أية مادة حية أو غير حية في حال شعوره بخطر ما على حياته. حيث اعتقد الإنسان الطوطمي آنذاك بقدرته على فصل الجسد عن الروح بشكل مؤقت ووضع الروح في مكان أو غرض آمن عند وجود خطر واقعي أو خيالي.

اعتبر بعض الأنتربولوجيين أن الطوطم الفردي جاء وليد معتقد متحول عن فكرة "قدرة انتقال روح الإنسان لطوطمه" والآتي من منبع الخوف والقلق من الخطر ورغبة الإنسان بإيجاد أسلوب حماية ما خشية على حياته. من هنا جاء ارتباط الإنسان بكل ما يحيط به للاعتقاد بمبدأ انتشار القوى الطبيعية الجامعة للإنسان والحيوان والنبات والصخر ... الخ، وقدرة هذه القوى على عدوى من يلامسها. فمما لا شك فيه أن بحث الإنسان البدائي عن وسيلة لحمايته في حال تعرضه لخطر ما، أدت إلى إيجاد وسائل مختلقة من خياله جعلته يعتقد بقدرته على نقل روحه من جسده ووضعه في كائن حي أو في جسد آخر كالحيوان

مثلاً، ليقوم باستعادة روحه عند زوال الخطر من خلال طقوس تتم طبعا على أيدي سحرة متمرسين.

نستنتج من كل هذه المعطيات الموجودة لدينا وجود علاقة حيوية بين الفرد وطوطمه إن كان حيواناً أو نباتاً و في حالات استثنائية يمكن للطوطم أن يكون جمادا. هذه العلاقة ربطت الإنسان الطوطمي بالمكان، كما قامت بعملية جمع وربط بين الكائنات الحية بمختلف أنواعها والمكان الموجودة به.

توصل دوركهيم إلى أنه لا يمكننا تحديد الطوطم الفردي بالبساطة التي حددها فريدزر، فهو (أي الطوطم الفردي) قبل كل شيئ، وسيلة لمنح السحرة والصيادين والمحاربين قدرات خارقة تتجاوز قدرات أفراد الجماعة الواحدة.

ولدى البحث عن منبع فكرة التضامن بين الإنسان والحيوان أو النبات أو أي غرض معني (حيث يستطيع الفرد نقل روحه اليها بشكل مؤقت) نجد أن هذه العلاقة برزت كنتيجة إلزامية نشأت عن ممارسة طقوس معينة ونتيجة الإيمان عند بعض القبائل بمبدأ العدوى الذي تكلم عنه فريدزر كمبدأ من مبادئ السحر.

لم يكن فريدزر الوحيد الذي تكلم عن هذا المبدأ، بل نجد أن بعض الأنتربولوجيين مالوا إلى تبني هذا المبدأ. ففي دراسة مطولة ل ايرنست كراولي حيث وضح لنا الأفكار البدائية وتأثيرها على نظام الزواج عند القبائل البدائية، ليعتبر، هو أيضا، أن مبدأ العدوى كان عبارة عن ناتج لتفسير خاطئ لبعض الظواهر المتماثلة والمترافقة لبعضها والتي تتمثل بالتابو.

لا شك أن هناك بعض الأنتربولوجيين الذي فضلوا استخدام مصطلح السحر بدلاً من مصطلح الدين عند وضع فرضياتهم عن الطوطم والتابو ...، ويعود ذلك إلى التفسير الشخصي لمعاني المصطلحات نفسها والناشئ عن إدراك مختلف لأي منهم. لهذا نجد البعض مثل الفريد ويليام هاويت أو جيمس فريزر، قاما باستخدام مفردات كالسحر أو القوى السحرية عند طرحهما لهذا النظام. بينما مال معظم الأثنوغرافيين إلى استخدام تعبير أو مصطلح آخر كالميزات الدينية. إلا أن هذه المفردات لا تختلف كثيرا في مضمونها عن مصطلح القدرات السحرية، فجميعها تستمد منابعها من فكرة واحدة.

اعتبر الكثير من الأثنوغرافيين، بمن فيهم دوركهيم، أن النظام الطوطمي هو شكل من أشكال الدين. فرأى دوركهيم أن مبدأ العدوى الموجود في السحر كان العامل الأساسي في

فصل المقدس عن المدنس. لينتج عن هذا الفصل المبادئ الدينية التي بدورها تعود أسسها الأولى إلى العمليات العقلية وعملية الإدراك لدى الإنسان. نلاحظ أن شرح دوركهيم للنظام الطوطمي قام على أساس عناصر النظام الطوطمي وما يحويه من عبادات متمثلة بمجموعة من عناصر مادية ملموسة كالحيوان والإنسان والنبات والصخور وجميع الأشياء التي تمثلها، والتي أتت من معتقد مؤسس على وجود طاقة منتشرة في كل هذه الكائنات المختلفة التي تخيلها إنسان هذه القبائل على أنها وقود غير مادي منتشر في المكان كالقوى الطبيعية مثلا. هذه القوى المتنوعة يمكنها أن تسبب مرضا أو وفاة عند دخولها في جسد غير مهيأ أو مجهز لها، لهذا نجد أن مفهوم التابو أو الممنوع قسم نفسه إلى طاقة إيجابية وسلبية ليلعبا دورا حيويا وإيجابيا في الطبيعة نفسها. فبواسطة هاتين الطاقتين تكتمل الحياة وتستمر.

منح الإنسان مفهوم التابو وما يحتويه من مضمون صيغةً أخلاقية. فلم تكن تلك الصيغة فقط عبارة عن قوى يخشاها الإنسان البدائي فحسب، بل رافقها شعور بالاحترام لها من قبله، فقد عثر من خلالها على وقود الحياة، فكانت لاعباً لدور مهم وفعال في عملية التكاثر لجميع الأنواع، ومن دونها لما وجدت الحياة.

هكذا نظر الإنسان البدائي للقوى والظواهر الطبيعية التي تحيط به، فالنظام الطوطمي وبكل ما يحتويه من عناصر ومفاهيم، يعد نظاماً تُقتاد به العشيرة أخلاقياً حيث تستطيع مواجهة كل ما هو خارج عنها وعن نطاقها بكل اعتداد وثقة... يتبع

6- سالامون رينا من كتاب "التاريخ العام للأديان"

7- استخدمت كلمة وحدة كترجمة لكلمة

phratria/phrater

والتي تعني الإخاء وهو مطلح انتربولوجي يستخدم لتقسيم مجموعات تتضمن عشيرتين أو أكثر لتوحدهما تحت جناح واحد مع احتفاظ كل عشيرة من هذه الوحدة بخصائصها المميزة.

القسم الأول الحلقة 3 أثر مفهوم الطوطم في نشأة الأديان - الجزء الثالث

وهنا نعود لحاجة الإنسان إلى مبدأ الإيمان مهما اختلفت توجهاته ومعتقداته. فالإيمان لا يقتصر على غيبيات أو روحانيات، إذ إنه بالإمكان أن يختبئ تحت شعائر دينية أو طقوس أو إله معين، أو أن يكون أحياناً عبارة عن قوة داخلية متجسدة لإرادة ذاتية يعتقد بها الإنسان، ليستمد منها طاقة تمنحه الإصرار والعزيمة. فمبدأ الإيمان مهما اختلفت أشكاله يقوم على ترسيخ مبدأ الثقة لدى الإنسان، والتي بدورها تمده حماساً وقوة للاستمرار والسعي نحو النجاح النسبي والمختلف بمعناه حسب الإدراك المتفاوت للإنسان.

مما لا شك فيه أن الإنسان البدائي استطاع أن يصل إلى هذه المفاهيم بشكلٍ لاواع وغير واضح المعالم. لأن الملاحظات والمشاهدات والتجارب تترسخ أولاً في عقولنا بشكل غير واع. فمنها تنشأ العادات والسلوكيات التي يطلق عليها علم النفس بالسلوكيات والعادات الكامنة، ليمارسها الأفراد بشكل ضمني، و تكون بذلك نتاج لاواعي صادر عن الوعاء الثقافي المختلف لكل جماعة. فإذا نظرنا إلى الأفعال الصادرة من قبل الأفراد نلاحظ أنه يتم تحديدها من خلال الأفكار والمشاعر والرغبات البعيدة عن الوعي والمرتبطة بالوعاء الثقافي للجماعة، والناشئ عنها عمليات عقلية يمكنها أن تتسم بالصراع بين بعضها البعض، لتقود إلى تسوية أو اتفاق بين الدوافع المتنافسة.

فما يميز بين اللاوعي والوعي هو ذاك الإدراك والتحليل الذي يربط بين جميع التمثيلات العقلية الموجودة في الذاكرة الطويلة ليقوم الفرد بفهمها بشكل واع وربطها مع بعضها البعض. من هنا يتم ربط سلوكيات وعادات بحوادث ومشاهدات أثرت في الإنسان وتم اختزانها في ذاكرته. أي بعبارة مبسطة، نستطيع القول: إن الوعي هو إمكانية ربط الماضي بالحاضر بشكل تحليلي، فهو نفسه الذي يجعلنا أكثر فهماً أو إدراكاً لجمل وعبارات وأمثال اختبأت خلفها تجارب فردية. لهذا نستطيع القول: إن الوعي هو من يقودنا إلى الإحساس والشعور بتلك التجارب المصاغة على شكل كلمات.

من هنا، نعود مرة أخرى إلى الطوطم الفردي والجماعي، ونبقى مع دوركهيم الذي استطاع أن يحدد الفوارق فيما بينهما، فاعتبر أن الطوطم الجماعي يشبه إلى حد كبير بما نسميه حالياً، "قيد نفوس الطفل" حيث يتم توارثه من الأهل عند ولادته. أما الطوطم الفردي فاعتبره حالة انتقالية تغييرية لا تكتمل إلا بعد كمٍ لا بأس به من ممارسات لطقوس معينة أثناء حياة الفرد حيث لا يمكنها الاكتمال (أي الحالة الانتقالية) إلا تحت إشراف ساحر معين أو شخصيات لها قدرات خاصة، والتي تساعد في إنهاء حالة التحول والتغيير عند الفرد.

نجد أن بعض القبائل الطوطمية التي تتبع نظام الطوطم الفردي تمنع أفرادها حديثي التعلم أو ذوي الخبرات الدينية الضئيلة في تحديد طوطمها قبل أن يعلن ساحر القبيلة عن موافقته والسماح لهؤلاء الأفراد في عملية الاختيار.

هنا سأتوقف قليلاً للتذكير ببعض التشابه بين هذه القبائل وبين بعض الطوائف الدينية المشرقية حيث ينتسب الفرد إلى طائفته نظرياً عند ولادته، بينما يمنع من معرفة أسرار وطقوس طائفته في حال عدم تلقيه دروساً من رجال دين طائفته، كما يستوجب عليه ممارسة طقوس معينة أثناء تلقيه التعاليم التي يشرف عليها رجل الدين. أي أن الدين لا يكتمل إلا بممارسة فعلية لتعاليمه، وهذا أيضاً ما نراه عند معظم الأديان المرتكزة على طقوس شتى من عبادات وممارسات عدة لشعائرها. إذ لا يكتمل دين الفرد إلا بعد إتمام واجباته تجاهها بشكل كامل، مما يؤثر على مفهوم ثقافة الجماعة ويصبح الدين المؤشر الأول للنضوج العقلي للإنسان حيث تقوم الجماعة بتهميش الأفراد ذوي الخبرات الدينية المنعدمة أو الضئيلة، فلا يتم استحقاق الفرد لحقوقه إلا في حال رضوخه لتعاليم الجماعة إن كانت دينية أو سحرية. وبمعنى آخر، نجد أن هدف الدين أو أي نظام آخر هو بالأساس هدف اجتماعي يتمثل بإخضاع الفرد لقوانين الجماعة وتأطيره داخل كيونة واحدة غير متغيرة.

ولدى العودة إلى القبائل الطوطمية وكيفية توزيع الأنواع الحية عليها، نجد أن كل عشيرة لها أحقية بتملك عدد معين ومحدد من الأنواع الحية والتي لا يمكن لعشيرة أخرى أن تختارها من خلال وفرة لقائمة معينة تحتوي على كائنات حية تسمح لكل عشيرة باقتنائها، فلا يسمح لأي عشيرة أن تتجاوز هذه القائمة.

لقد أوضحت لنا الدراسات الأنتربولوجية وجود علاقة ما تربط الطوطم الفردي بالفرد، لتأخذ هذه العلاقة تارة سمة الوضوح، وتارة أخرى سمة الغموض، لهذا نراها مرتدية، في بعض الأحيان الأخرى، ثوب الضبابية لتكون مبطنة المعاني والملامح.

ولكن ما هي نوعية العلاقة بين أفراد عشائر القبيلة الواحدة الخاضعة لنظام الطوطم الفردي والتي أطلق عليها تسمية "وحدة" من قبل الأنتربولوجيين؟ وماذا قالت التفاسير التي حاولت فهم هذه العلاقة الموحدة لأفراد العشيرة الواحدة بعد كمية من ملاحظات قامت على دراسات أنتربولوجية عديدة؟

لقد وجدت هذه الأبحاث تشابهاً كبيراً بين المشاعر الجامعة والرابطة لأفراد العشيرة الواحدة وبين مشاعر القربى والانتماء لذوي أفراد العائلة الواحدة، لتكون مسألة الانتماء لأفراد العشيرة الواحدة مبنية على أساس الانتماء لجميع الطواطم الفردية للعشيرة الواحدة، من هنا جاءت كلمة وحدة، وهذا ما لقبه دوركهيم بالطوطم الفرعي.

يميل معظم الأنتربولوجيين إلى اعتبار النظام الطوطمي نظاماً عالمياً، إذ إنه لم يكن حكراً فقط على سكان البلدان الأصلية في أمريكا أو استراليا... بل امتد إلى بقاع الأرض المستوطنة من قبل مجموعات بشرية. فقد لاحظوا أن ركيزة الطوطم الأساسية تقوم على وجود عقد أو عهد غير واضح التعريف ذي طبيعة عقائدية بين جماعة ما وبين بعض الحيوانات المنتمية

لهذه الجماعة. إذ لاحظ رينا سالامون أن النظام الطوطمي وجد في مرحلة الإنسان البدائي السابق للإنسان الراعي للحيوانات. واعتماداً على البحوث التي تناولت هذا النظام، استطاع الأنتربولوجيون لمس آثاره عند الكثير من الحضارات؛ الإغريقية، المصرية، السورية...الخ. فإذا ألقينا نظرة على النظام الطوطمي نجده يرتكز على تحريم حيوان القبيلة وجعله تابو لا يمكن ذبحه إلا في يوم جماعي في السنة حيث تقام له مراسم خاصة مصحوبة بالبكاء والنحيب.

---

(9)-كما شرحت سابقا كلمة وحدة والاتية من كلمة phratry*

(10)-الحديث عن سوريا واشعوب السورية ليس له علاقة بالجغرافية السياسية الراهنة، فهي ليست بكلمة مستحدثة، بينما ورد ذكرها في عديد من الدراسات الانتربولوجية، فلها مدلول حضاري واسع لهذا نراها معتمدة عند جميع المؤرخين والانتربولوجيين.*

(11)-في القسم الثالث، الفصل الأول المعنون بالقوانين والأعراف الأولى، نجد شرحا يتناول أسباب هذه المراسيم من خلال تقديم وجهات نظر لبعض اختصاصي النفس.*

القسم الأول الحلقة 4 الحيوان الطوطم بين القداسة والنجاسة - الجزء الأول

قبل الحديث عن الحيوان الطوطمي وعلاقته بالقداسة والدناسة، ربما كان علينا تحديد منبع هذين المصطلحين، وإيجاد العلاقة الفاصلة بينهما، والتي نعتقد أنها جاءت من فكرة وجود القوى غير الملموسة التي لم يستطع الإنسان البدائي إدراكها، وذلك قبل أن تتمثل له بثنائية الاتجاه، من حيث التأثير السلبي والإيجابي، المتعارضين في آن واحد مع بعضهما.

لقد أتت هذه القوى كمحصلة لأجوبة جاء تفسيرها بمحض المصادفة لترافق الأحداث مع بعض النتائج المكررة، لتأخذ مع مرور الزمن صفة القداسة، وذلك من أجل تمييزها عن الحياة اليومية للإنسان. فإذا تمعنّا في العبادات والأديان اللاحقة نراها لا تخلو من ثنائية العقاب والمكافأة.

لا شك أن الذاكرة لعبت دوراً هاماً في تخزين هذه النتائج مع التصنيف الذي رافقها والذي تم توريثه إلى الأجيال القادمة عن طريق كلمات وعبارات مستخدمة في كل لغة، وهذا ما يلقب بالموروث الثقافي والذي يتم ترسيخه من خلال الذاكرة الجمعية.

هنا لا بد لي من أن أتطرق إلى الذاكرة من خلال لمحة سريعة عنها، فهي تتميز بذاك القوام لكل الخصائص المختلفة للمجتمعات والأفراد. فعلى الصعيد الفردي تساعد الذاكرة في تعريف وتحديد الفرد من خلال ربط الحوادث والوقائع المختزنة في الدماغ لتسهيل المقارنة بينها وبين الحاضر، كما علينا ألا ننسى أن التفاصيل الموجودة في الذاكرة بكل أنواعها، يمكنها أن تتغير عند إصابة إحساس "الأنا" بالاتهام، لتضيف على تمثيلاتها العقلية المختزنة بعض التفاصيل التي لم تحصل للخروج من ورطتها.

ربما يخيل لبعض القراء أن "الأنا" هي "أنا" فردي، ولهذا، عليّ التنويه بوجود "أنا" جماعي مهمته الجمع بين كل أفراد الجماعة تحت غطاء ثقافة ما، كما أن هناك نوعاً آخراً للأنا وهو"الأنا" الديني الذي يشكل نواة لجميع المتدينين ذوي الانتماء الديني الواحد، حيث يختار هذا "الأنا" الديني رمزاً معيناً يستطيع من خلاله توحيد الأفراد ليحييوا من خلاله ولأجله (وهذا ينطبق على جميع المعتقدات والأديان التي تختار رمزاً أو بطلاً أو رسولاً ما)، ولا بد من الإشارة إلى أن الحيوان الطوطمي أو طوطم العشيرة هو ذاك الرمز الذي يوحّد جميع العناصر الطبيعية بما فيها الإنسان، ليتم إلصاق الأنا الفردية بذلك الرمز من خلال مشاعر موحدة استطاع الدين انتاجها. هذا التوحد ينتج عنه أحياناً شعور بالفردية والتميّز عند الفرد نفسه من خلال المميزات والمكافآت. وبالطبع نستطيع القول إن هذا الشيء ينطبق أيضاً على أي فكر أحادي ثابت غير قابل في قواعده للتغيير، فنجد أن الأيديولوجيات التي تقوم على إلغاء الآخر المختلف عنها ينطبق عليها ما ذكرته من تمحور لـ"الأنا" النواة.

قبل الكلام عن المقدس والمدنس، أود أن ألفت الانتباه إلى العناصر المختلفة التي تجمع الأفراد في عشيرة أو قبيلة أو أية جماعة كانت، فهي التي توحدهم تحت ثقافة معينة شاملة تجمع أطيافها، لامتلاكها مكونات عقلية أو بتعبير آخر "الكون العقلي" والتي تشمل مبادئ ورموزاً ومصالح مشتركة كي تستطيع توحيد الأفراد التابعين لمجتمع ما، لتخلق لديهم شعوراً بالترابط والتواصل فيما بينهم.

ويعتبر هذا "الكون العقلي" أو المكونات العقلية الجماعية مجموعة من صور وأفكار وكلمات متداولة بشكل عفوي ويومي، أي أن جميع الصور العقلية المسجلة في ذاكرتنا الجماعية الطويلة والتي نبدأ بتخزينها منذ ولادتنا عن طريق التلقين الخارجي، لا نستطيع التحكم بالعناصر المختزنة ولا بتوقيت ظهورها.

بالطبع لا يعني كلامي أبداً اننا أمام حالة استعصاء وعجز كاملين أمام جميع الصور التي نتبناها من الخارج، لأن حفظ المعلومة في الذاكرة الطويلة واستحضارها فيما بعد يتطلب موافقة ضمنية على المحتوى العام لها، إذ يمكننا استحضار الكثير من التمثيلات العقلية المختزنة وطرحها من جديد بشكل واع كي يتم قبولها أو رفضها مجدداً. وهذا لا يتم إلا من خلال توافر قوانين خارجية يتحلى بها المجتمع تتيح للفرد المساحة الذاتية الحرة.

أحببت أن أعطي فكرة مبسطة لآلية التفكير كي يستطيع القارئ أن يقارن ويستنتج من خلال نفسه ويربط بين النظام الطوطمي والأديان الأخرى...

القسم الأول الحلقة 5 الحيوان الطوطم بين القداسة والنجاسة - الجزء الثاني

سأتطرق الآن إلى المقدس والمدنس(*12)، فكما ذكرت، يتحلى المقدس بطقوس سلبية وإيجابية ليقوم بفصل السلبي عن الإيجابي، وتحديد السلبي على شكل ممنوعات التي هي بالأصل تابوهات، إلا أن ما يميز الممنوع عن التابو، أن الأخير يقوم بعقوبة من يلمسه أو من لا يطيع التوجيهات بشكل آلي من دون أي تدخل بشري، بينما نجد أن الإنسان قد أضاف في فترات لاحقة عقاباً بشرياً لأي عصيان للممنوعات المحددة من قبل أديان عدة. وبما أن المقدس يتمتع بطاقة سلبية وإيجابية مؤثرة على الإنسان، فقد تم لصق مشاعر الاحترام له كي يتم عزله على حدة، ولترجمة هذه المشاعر يضطر الإنسان إلى تمثيلها في وعيه لتكون هذه المشاعر مشحونة بكمية من الطاقة العقلية بشكل عال، مما يؤدي إلى رفض و رمي (بشكل جزئي أو كامل) أي تمثيل آخر يعارضها. هذه العلاقة المتضادة، ما بين المقدس وبما يحمله من طقوس واحتفالات وتحريمات وعملية تطهير من الأثم... وبين المدنس وما تمثله هذه الكلمة في الأصل عن ممارسة الحياة بيومياتها الروتينية، شكلت نمطين مختلفين للحياة متباعدين عن بعضهما حيث يصعب على الإنسان الجمع بين هذين النمطين بآن واحد، ليتبنى الإنسان حالتين من الوعي، كل منها تختلف عن الأخرى وتتجه نحو القطب المعاكس(*13). مما يوضح لنا سبب نفور الإنسان عند ممارسته لطقوسه الدينية أو أي تمثيل عقلي لا يصب في خانة معتقداته. من هنا جاء فصل المقدس عن الأيام الأخرى العادية والتي لقبت بالمدنس، لينشأ عن هذه العملية مبدأ الممنوعات والمحرمات.

عودة إلى قدسية الحيوان الطوطمي، وبعد مراجعة ويليام روبيتسون سميث وسالامون رينا عن تاريخ قدسية الحيوانات عند شعوب عدة كالأغريق والرومان والسوريين والمصريين... نجد، على سبيل المثال، أن الخنزير البري كان يعتبر حيواناً مقدساً في سوريا، فكما نعلم من خلال علم التحليل النفسي أن المشاعر المرتبطة بتقديس حيوان معين يتم استبدالها شيئاً فشيئاً بمشاعر مضادة مع استمرارية معتقد تحريمها في ذات الوقت، لأن مشاعر الكراهية والقرف تأتي أحياناً كضرورة حاسمة لإلغاء المشاعر الأولى. من هنا نستطيع استيعاب منشأ تحريم أكل الخنزير عند اليهود والمسلمين والذي تعود جذوره إلى الشعوب الأولى في هذه المنطقة.

نستطيع لمس آثار النظام الطوطمي في منطقة نشوء الديانات الابراهيمية، إلا أن هذا النظام تطور بشكل منسجم مع المراحل المتطورة للإنسان، فالنظام الطوطمي الأول الذي رافق مرحلة الإنسان الصياد كان مختلفاً عن النظام الطوطمي الذي رافق مرحلة الإنسان

الراعي والإنسان الزراعي، لهذا نجد آثار الرواسب الطوطمية في المعتقدات الروحية التي أتت كنتيجة متطورة لها.

بعد البحث والتدقيق في البحوث الأنتربولوجية والأسطورية، نستطيع أن نكتشف الجذور الأصلية للأديان التي سبقت منشأ الآلهة والتي تغذت من خيالاتنا، فكانت مهداً لظهور الأديان الروحانية. فنجد مثلاً أن عملية تجسيد الإله بفرد ما لتقديمه قرباناً للسماء في بعض الحضارات من أجل إعادة عملية البعث والإحياء من جديد قادمة من تقديس القبيلة لحيوان والتضحية به (في حقبة متقدمة، حسب رينا سالامون). وكما نعلم أن عملية القتل الجماعي للحيوان الطوطمي في ذلك العهد، لم يكن انعكاساً لعملية تقديم القربان للآلهة حيث أن الآلهة لم تكن قد وجدت بعد، فمفهوم القربان للآلهة تطور تدريجياً مع انتقال الإنسان من المرحلة الوحشية إلى مرحلة رعي الحيوانات حيث بدأت تفقد الحيوانات شيئاً فشيئاً قدسيتها، لا بل أكثر من ذلك بدأ شعور القرف يتنامى عند الإنسان تجاه بعض الحيوانات.

لعبت الطبيعة والحيوانات دوراً هاماً في تطور المفاهيم عند الجماعات، فقد ربط الإنسان البدائي نفسه بالطبيعة، وذلك ليس لإرادة واعية على أنه جزء من النظام الطبيعي، أو إحساسٌ بكل كائن حي، بل جاء من عوامل نفسية اختلطت بها التفاسير والتي امتزجت بمشاعر العجز عن التحكم بكل ما هو خارج. فلدى قراءتنا لبعض كتب التاريخ، نجد وبسهولة استخدام شعوب العالم بعد مرحلة "الإنسان الزراعي" لحيوانات تقوم بتبشيرها بخطر ما أو باستكشاف بعض الينابيع الطبيعية، وربما، تعود أحد أسبابه إلى ملاحظة الإنسان حدة القدرات الحسية عند الحيوانات. فمثلاً، كتب المؤرخ التاريخي الروماني تاسيت عن تقديس اليهود الأوائل للحمار بعد كشف قطيع من الحمير الوحشي لـ"موسى" ينبوع المياه بعد أن استفحل به وبجماعته العطش، فكما فسر تاسيت سبب تقديم اليهود الثور ضحية قربانية، لرغبتهم الشديدة بالانتقام من المصريين الذين كانوا يقدسون الثور تحت اسم "أبيس".

هذه العادات استطاعت أن تتحول فيما بعد إلى معتقدات روحية وإلى مبدأ العقاب والثواب الإلهي لتتخللها طقوس دينية لم تخل من رواسبها الطوطمية الأولى.

وبما أننا نتحدث عن الطوطم وأثره في نشأة الأديان والآلهة، فلا بد لي أن أتطرق إلى التابو المقترن بهذا النظام، لنطلع قليلاً على مصدره وتطوره التدريجي الذي ساهم في تنظيم الزواج.

**12-يرافق كلمة "مدنس" وكما يتداولها الأفراد في اللغة العربية شعور بالاشمئزاز والقرف، فيقال: دنس المحرمات ومعناه انه تم توسيخ وتلطيخ بكل ماهو مكروه. بينما نجد ان جذور هذه الكلمة استخدمت فقط للتعبير عما هو غير مقدس، فلم يرافقها شعور القرف. وذلك لأن المقدس يحدد من خلال الأمكنة والأيام المكرسة له لعبادات*

واحتفالات... فلا يمكن للمقدس أن يكون مستمرا طيلة الأيام. من هنا جاءت كلمة مدنس وهي profane والتي تتميز عن الأيام المقدسة، فهي اليوميات العادية للأفراد الخالية من ممارسة الطقوس والاحتفالات الدينية، كما أن الغرض المقدس وهو الغرض التابو لا يمكنه أن يوجد إلا في أماكن مخصصة له.

13-ايميل دوركهيم، الأشكال البدائية للحياة الدينية-الطقوس السلبية واثرها، صفحة 459-460

القسم الأول الحلقة 6 التابو أحد المنابع الأولى للأخلاق - الجزء الأول

قبل البدء في إلقاء الضوء على علاقة التابو بملاحظة الإنسان الأول للظواهر الطبيعية، لينشأ عنها لاحقاً ارتباط التابو بعقوبات معينة، أود أن ألفت الانتباه إلى أن القوانين الجماعية كانت حصيلة مجموعة من ملاحظات ونتائج فردية والتي تعتبر بدورها، من وجهة نظر عصبية، حصيلة لصور عالقة في الذاكرة طويلة المدى والمليئة في نفس الوقت بالمشاعر والأحاسيس المرافقة لها أثناء حدوث التجربة الفردية، ليقوم بعدها الدماغ بتصنيف جميع الصور المتشابهة في الذاكرة الباطنية والترابطية والتي تعلن عن نفسها من خلال السلوكيات.

حرّم الإنسان البدائي ملامسة كل ما كان يجهله، وذلك تجنباً للمخاطر وليس إدراكاً لمفهوم أخلاقي معين. فالأخلاق حسب تعريف فيلهيلم وندت هي وليدة التابو الذي كان بدوره وليد الجهل ووليد مشاعر الخوف من الطبيعة ومن كل ما لا يستطيع الإنسان فهمه من ينبوع الغرائز الأولى. إلا أن التابو انفصل في وقت لاحق عن مصدره أو ينبوعه، ليبقى منه فقط الآثار النفسية التي تركها بشكل لاواع على الأفراد. كما رأى وندت أن المقدس أو المدنس كانا في الأصل واحداً وذلك في المرحلة الأولى لتشكل التابو، فجاء تفسيره للتابو على أنه الجامع ما بين القوة الشيطانية والقوة الحامية، فالاقتراب من التابو أو لمسه كان ممنوعاً أكان غرضاً جامداً أو غرضاً حياً، وذلك من أجل حماية الجماعة، ليصبح مع الوقت قوة مستقلة تؤثر على الأفراد وتفرض عليهم ثقافة معينة. من هنا نجد أن مشاعر الاشمئزاز والتعظيم للتابو كانت متجلية بشكل واضح عند الإنسان البدائي، لتنفصل هاتين القوتين عن بعضهما وتشكلان قوتين متعاكستين كالشر والخير.

إن استخدام كلمة "ديمون" والتي تعني "العفريت" بالعربية أو الشيطان أو الروح الشريرة كان لديها معان و خصائص مختلفة في الرموز الأسطورية للحضارة الإغريقية. فكانت هذه الكلمة مزيجاً من صفات إلهية وإنسانية معاً، فموقع أو مكان الـ"ديمون" كان محصوراً ما بين الإله والإنسان، أي أنه تمتع بصفات أكثر من إنسانية و أقل مرتبة من الإله. لذلك نجده خالياً من مفهوم الشر المطلق عند الإغريق، بل كان قوة مستقلة تضاهي قوة الإنسان.

نستطيع القول: إن مفهوم كلمة "الديمون" ومعناه في الأصل لم يكن مرادفاً لما تعنيه اليوم في ثقافاتنا. واكتسابه لقوة الشر جاء متناسباً مع المفهوم المتغير للتابو عبر الثقافات المتغيرة.

لقد قام اختصاصيو النفس بعملية تحليل للـ"ديمون"، فوجدوا أن الـ"ديمون" يعكس المشاعر الداخلية للـ "أنا" ليتم إسقاطها على العالم الخارجي فهو محاولة لفصل مشاعر الكراهية الموجودة لدى "الأنا" ولصقها بـ "أنا" آخر. كما نجد أن الـ "ديمون" عند الإنسان البدائي يرمز إلى تابو الموت، فمن هنا التصقت مشاعر الخشية لدى الإنسان من تابو الموت

بـ "الديمون" مما أدى إلى ترافق مشاعر الكراهية له، لتعكس خشية الإنسان من الموت ورعبه من فكرة الفناء. فكما نعلم أن إبعاد المشاعر المتعارضة فيما بينها إلى الخارج تؤدي إلى خفض نسبة العراك النفسي لدى الفرد مما يؤدي إلى إراحته. لهذا نستطيع أن نستنتج أن العفاريت والأرواح هي حصيلة إسقاطات لميول عاطفية ومشاعر متناحرة فيما بينها، لنجد أن نظرية خلق الأرواح آتية من منبع التحريمات الأخلاقية الأولى، أي من إرشادات التابو.

لقد ارتبط التابو ارتباطاً مباشراً بقدرة الإنسان الواعية. كما أن تطوره إلى بعض القوانين والأسس الأخلاقية نتجت عن خشية وخوف من المجهول، أي أن العامل النفسي والإدراك الواعي ساهما بتشكيلها وتطورها، وهذا يتجلى لنا بوضوح تام في معظم الأديان المرتكزة على مفهومي العقاب والثواب، واللذين كانا عنصرين جوهريين في مفهوم التابو. لقد كان الشق الإيجابي للتابو متمثلا في الشعوذة التي تقول: "افعل هذا الشيء كي تحصل على ذلك الشيء"، أما الشق السلبي في التابو فيقول: "لا تفعل هذا الشيء كي لا يصيبك ذلك البلاء". وإذا قارنا مفهوم الأديان بمفهوم التابو نستطيع أن نلمس التقارب بينهما. فالتابو بشقيه السلبي والإيجابي يهدف إلى الحصول على شيء مرغوب أو تجنب شيء ضار، أو بمعنى مستحدث ديني هو عبارة عن غاية خيرة من أجل اجتناب أخرى ضارة.

وبالعودة إلى منابع التابو الأولى، نجد أن تحريم الإنسان البدائي لما كان يجهله نجم عن رغبة في تجنب الأخطار، فلم يكن تعبيراً عن حس أخلاقي. إذ لم يأت التابو من رغبة جماعية أو فردية في تنظيم الكتلة. فقد خلا التابو في البدء من أية عقوبات تمارس على الأفراد الخارقين لتابوهات الجماعة، وذلك لأن التابو نفسه كان كفيلاً بقتل أي فرد أراد لمسه بشكل مقصود، أو عن طريق الخطأ. فالتابو لا يعني القيام بأي فعل بمقدار ما يعني الامتناع عنه. إذ كان التابو كابحاً وليس محفزاً. وهذا ما يفرق بين التابو وبين التشريعات الدينية التي نتجت فيما بعد عن تحول في التابو الناشئ عن المشاعر النفسية المصابة بالهلع ليكون جواباً عاماً لكل الإصابات الناتجة عن حوادث متكررة والآتية عن طريق المصادفات والظواهر الطبيعية. نستنتج هنا أن ربط الإنسان البدائي نفسه بالطبيعة كان ناتجاً عن عوامل عدة، ومن أبرزها العامل النفسي الممزوج بمشاعر العجز عن التحكم بالخارج...

**14- جيمس فريزر: كتاب الإنسان، الإله والأبدية صفحة 166.*

القسم الأول الحلقة 7 _ التابو أحد المنابع الأولى للأخلاق الجزء الثاني

يعبر التابو عن نفسه بشكل الممنوعات أو المحرمات، فهو كان حاضراً بشدة عند عدد واسع من الجماعات المنتشرة في أنحاء الأرض.

اعتبر سالامون رينا(*15) وبالاستناد إلى الدراسات الأنتربولوجية أن التابو كان محصوراً في معناه، فقد نتج بالأحرى، عن جهل الإنسان للدافع أو المسبب الأول المؤدي إلى الموت. بينما تمت إضافة الدوافع والأسباب الواعية إلى الممنوعات في فترات لاحقة. وهكذا، فقد نشأ التابو من جهل الإنسان البدائي لكل ما لا يستطيع فهمه أو تفسيره في الخارج، وذلك حتى أصبح الغرض نفسه تابو. فعلى سبيل المثل، إذا صعق الإنسان البدائي من قبل صاعقة، فانها تصبح تابو من دون معرفة السبب الذي أدى اليها.

لقد بدأ التابو خالياً من المبادئ الأخلاقية التي أضيفت له لاحقاً تحت اسم الممنوعات والمحرمات والتي تحث الأفراد على الالتزام بها من خلال العقاب والثواب. وهذا هو الأساس الذي نشأ منه الاختلاف بين التابو والممنوعات. فبينما كان التابو كفيلاً بعقاب من يحاول لمسه، فإن العقاب البشري أصبح ضرورياً لتقويم الأشخاص الذين يتجرأون على لمس الممنوعات أو الاقتراب من المحرمات.

لقد ترك التابو آثاراً ورواسبَ مهمة على الديانات الابراهيمية. فمثلاً نجد أن المرأة بعد الولادة، في القبائل سابقاً، حسب دوركهيم، كان يتم الحجر عليها لمدة أربعين يوماً، وذلك لعدم كسر تابو "الدم". حيث كان من المعتقد أن الدم هو روح الحياة، ويعود ذلك لترافق التابو بالنظام الطوطمي، فنجد أن حجر المرأة بعد الولادة جاء لمفهوم اقتناء دمها من الطوطم المقدس. وانطلاقاً من أن دم المرأة هو روح الحياة، فإن الإله البدائي موجود فيه. ليس من العسير ملاحظة وجه الشبه ما بين التابو القديم للدم والملخص بتابو المرأة بعد الولادة، وأثناء الحيض وبين منع المرأة من اقامة الصلاة والصوم في الديانات الابراهيمية أثناء الحيض. وعلينا التنبيه أيضاً إلى أن التابو كان متوغلاً في النظام الاجتماعي، وبناءً عليه، فإن تغير مفهوم التابو عبر العصور نتج عن تغير في بنية النظام الاجتماعي، لنجد أن التشريعات العقابية التي تقوم الجماعة بتنفيذها على الأفراد العاصين جاء من تغيير في مفاهيم عديدة عند الجماعات. فكان في فترة زمنية مرتبطاً بمشاعر الخوف من انتقال العدوى إلى الأفراد الآخرين (أي عدوى انتقال العصيان).

إذن، كان الخوف من انتقال عدوى انتهاك التابو هو المسبب الأول في تأجيج شعور الخطيئة عند الجماعة والتي نشأ عنها ضرورة التطهير لغسل الخطايا. فنجد، على سبيل المثال، اتباع طقوس معينة في قبيلة "اكيكيوس" الافريقية لشراء خطاياهم من خلال الاعتراف

لساحر القبيلة في أكثر الأحيان، ليقوم الساحر بالإعداد لطقوس معينة تبدأ بتقيؤ المخطئ لكل ما تحتويه معدته، وذلك لتخفيف شعور الخطيئة عند مرتكبيها والمتمركزة بشكل جسدي وليس بشكل ضميري، من هنا جاءت فكرة كبش الفداء عند بعض القبائل، فبدلاً من عقاب المذنب المرتكب لجريمة ما، يقام بجز عنق الحيوان الأضحية للتخلص من خطيئة الإنسان بدلاً من عقاب المذنب (جيمس فريدزر).

لقد وجدت عادة كبش الفداء في مجتمعات كثيرة التي سبقت الديانات الابراهيمية، ففي زمن "بلوتارك" وفي مدينة "كيرونيه" كان يتم جلد العضو الذكري لأحد العبيد مع الصراخ للكلمات التالية: "ارحلي عنا أيتها المجاعة، وتعالي إلينا أيتها الصحة والفيض". وبما أنني تطرقت إلى عادة الجلد والضرب، فلا بد للإشارة أيضاً إلى عادة ضرب النساء بالخيرزان والتي كانت موجودة عند بعض الكهنة الرومانيين سابقاً، حيث كانوا يهرولون بأنحاء المدينة في الخامس عشر من الشهر الثاني في كل سنة، لضرب أية امرأة عابرة يرونها، وذلك اعتقاداً منهم بزيادة خصوبتها عن طريق الضرب بالخيرزان. هذه العادة لم تكن مقتصرة على ضرب المرأة بالتحديد لزيادة الخصوبة، بل كانت بعض القبائل تضرب حيواناتها أيضاً لزيادة خصوبة القبيلة(16*).

لقد سادت هذه العادات في مرحلة الإنسان الزراعي، فالرواسب الطوطمية استطاعت أن تتحول إلى معتقدات روحية وإلى مبدأ العقاب والثواب الإلهي التي تتخللها طقوس دينية من فكرة كبش الفداء إلى إقامة الصلوات لاستجلاب المطر، لنلاحظ أن عامل المناخ قد لعب دوراً أساسياً في ترسيخ هذه المعتقدات. فالبئية التي تتوافر بها حاجات الإنسان والتي تقوم بإشباعهم تحفّز أفرادها على التفكير والاستكشاف لأمور كثيرة، فحالة إشباع حاجيات الإنسان البيولوجية محفزة لعملية التفكير والإبداع...

---

(15)-سالامون رينا: صفحة 33-35 من كتاب عبادات، أساطير وأديان.*

(16)- رينا سالامون: كتاب الطقوس والأديان والأساطير، فصل طقوس الجلد صفحة 108.*

القسم الأول الحلقة 8 _ التابو أحد المنابع الأولى للأخلاق الجزء الثالث

قبل تكملة الحديث عن تحول التابو إلى معتقدات روحية، لا بد لي من التنويه أن التابو قد اقترن بالسحر أولاً، فالسحر هو الأكثر بدائية ونشأته أقدم من نشأة الأرواح التي هيأت شكلت نواة الروحانيات. فنشأة الروحانيات أتت من ذات المنبع الأول للقوانين الأخلاقية التي خضعت بدورها للأسس الأولى للمحرمات. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن السحر والشعوذة كانا نتاجاً مباشراً تلازم مع مبدأ الروحانيات الذي مر بدوره أيضاً بمراحل متنوعة، لاسيما وأن السحر قام على مبدأ "قوة الأفكار ومقدرتها"، بينما استمدت أشكال الشعوذة الأخرى من تلك "القوة" مبرر وجودها.

لقد عرفت جميع المجتمعات أنماطاً مختلفة من التابو. فكان مرحلة ثقافية ضرورية لتحقيق تحول جديد في المفاهيم الأخلاقية. نظر سيغموند فرويد إلى التابو على أنه وليد المشاعر المتضاربة والمتصادمة فيما بينها، فهو ناتج عن معارضة ما بين الألم الواعي والاكتفاء اللاواعي، لتتم عملية الإسقاطات الداخلية على الخارج المحيط. فعملية الإسقاط، حسب التحليل النفسي، عبارة عن آلية نفسية خاصة بطرح المشاعر البغيضة إلى العالم الخارجي وفصلها عن الشخص الذي يعاني منها ليتم لصقها بشخص آخر. من هنا نلاحظ كيفية إسقاط المشاعر البغيضة اللاواعية للأفراد والصاقها بـ"الديمون" أي الشياطين والعفاريت الممثلين لتابو الموت، وبمعنى آخر، الممثلين لمشاعر الخوف من الموت عند الإنسان. لنجد أيضاً أثر مشاعر الخوف على الأخلاق، لتكون إحدى المحركات الأساسية لنشأته، ولتكون مشاعر الخوف مما نجهله عاملاً مهماً في تحويل هذه المشاعر إلى قوة مستقلة تخرج من داخل الإنسان إلى خارجه لتتحكم به وتساهم في استمرارية جهله لها، وبالتالي ساعدت في ولادة قناعات لديه لينظر إليها على أنها حقيقة مطلقة ولا مجال للتفكير بها مجدداً أو نقدها. هكذا يبقى الإنسان تائهاً عن المعرفة وخاضعاً لتضارب مشاعره الداخلية. والناشئ عن هذا التضارب هو فقدان السيطرة على الذات. من هنا نجد أن التشبث في أبدية واهية تعكس هذه المعاناة. ولأن الموت سببَ للإنسان البدائي هاجس الفناء، فخاف منه ليبدأ في رحلة عقيمة باحثاً عن روحه المفقودة، من ناحية، وعن الخلود من ناحية أخرى.

هذا البحث عما وراء الموت نجده واضحاً في أسطورة الملك "ميداس" الراكض وراء الديمون "سيلين" لمعرفة الشيء الذي يجب على الإنسان تفضيله على جميع الأشياء الموجودة واعتباره قيمة عليا، ليجيبه "سيلين" مخاطباً العرق البشري بسخرية "يا أيها العرق الفاني والتعيس، يا طفل المصادفة والألم، لماذا تجبرني على البوح عما كان من الأفضل لك جهله؟ فما ترغب بتفضيله لهو صعب المنال، فكان من الأفضل لك عدم ولادتك، وأن تمكث في

العدم. ولكن بعد كل هذا، وبما أنك وجدت في هذه الحياة، فالأفضل لك الآن أن تتمنى موتك باكراً للعودة إلى العدم".

إن تسليط الضوء على التفاعلات النفسية للبشر في جانب من التاريخ، يدفع إلى ملاحظة هامة وهي أن الإنسان قام ببناء صور شتى للعالم الخارجي على أساس تجربته الداخلية المرتكزة على عملية الإدراك الداخلية والمشاعر المختلطة فيما بينها ليكون لها أثر على المفهوم الإدراكي. فنشأة الوعي الأخلاقي ناتجة عن رفض الأفراد لبعض الرغبات الداخلية الناتجة بدورها عن رفض الجماعة لها. فالإنسان البدائي بدأ بوضع قواعده الأخلاقية تدريجياً متماشياً مع حالته النفسية. ولكنه تحول إلى "أخلاقي"، ليس لقدرته على أن يرى قيماً عليا، بل لسبب يتعلق بجهله لبعض الظواهر الطبيعية التي أججت حالة القلق والأرق لديه. فمن أجل الهروب من هذه الحالة، لجأ الإنسان البدائي لعملية اسقاط الداخل على المحيط الخارجي وتفسير الخارج حسب مشاعره الداخلية ليعطي مفهوماً "أنوياً" جماعياً للأشياء.

ارتكز السحر على المقدرة الكاملة للإنسان واستطاعته التحكم بكل ما هو خارج عنه من خلال قوة أفكاره، بينما تخلص المفهوم الروحاني من التركيز على قوة الأفكار لدى الإنسان ليحيلها إلى قدرة خارقة لا يلمسها، والتي تتجلى بالأرواح والعفاريت. ويعود ذلك الى عجز الإنسان البدائي عن الانتصار على الموت. ومن هنا تشكلت نواة الروحانية الأولى.

القسم الأول الحلقة 9 السحر ومبدأ العدوى

يعتمد السحر على مفهوم "المقدرة الكاملة للأفكار" ومبدأ التحكم في الظواهر الطبيعية. فكما قال جيمس فريدزر "أخطأ البشر عندما جعلوا النظام الطبيعي مصدراً يعكس من خلاله طريقة تفكيرهم، فأعتقدوا أنهم قادرين على التحكم بالطبيعة وبكل ما يحيط بهم كتحكمهم بأفكارهم".

هذا الطرح الذي اعتمده الإنسان كطريقة للحياة جاء نتيجة فشله في التحكم بالظواهر الطبيعية وإخفاقه في الانتصار على الموت. فالإحباطات التي عاناها مطولاً صدرت عن عجزه في التحكم بما هو خارج عنه، الأمر الذي قاده إلى خلق قوى خارقة غير ملموسة يمكنه إرضاءها من خلال طقوس وعبادات كان يقوم بها في مرحلة سابقة كمرحلة السحر. فإذا دققنا جيداً في مبدأ السحر والدين نجدهما يخضعان لأرضية مشتركة، تجمع في بعض خصائصها بين الساحر ورجل الدين، فكما كان السحر وسيطاً بين الإنسان العادي والطبيعة الخارجية. نجد أن رجل الدين قد احتل مكان الساحر ليصبح وكيلاً عند الله.

نشأت فكرة السحر من مبدأين حيث اعتبر فريدزر أن المبدأ الأول يستند إلى فكرة الشراكة، أي أن الأفكار المتشابهة والمشتركة ببعض الخصائص تستطيع اجتذابها والتأثير عليها، حيث يكون المفعول مطابقاً لفاعله أو لمسببه. وقد لقب هذا المبدأ بقانون التشابه، ليسمى السحر الناشئ عن هذا المبدأ بسحر المثلية. أما المبدأ الثاني فيتمركز على قانون مبدأ الاتصال والعدوى والذي فسر على أساس استمرارية مفعول الأشياء عند اتصالها بها واستمرارية تأثيرها، أي ما بعد توقف الاتصال. بمعنى آخر، عندما يدخل الغرض باحتكاك مع الآخر يستمر تأثيره عليه حتى ولو انقطعت عملية الاحتكاك به. لهذا يعتقد الساحر أن بإمكانه ومن خلال قدرته إنتاج أي أثر مرغوب به على أي غرض بواسطة عملية التقليد. وهكذا، ومن خلال شيء مادي، يستطيع أن يتحكم بأي فرد إن دخل هذا الشيء أو الغرض بعملية احتكاك معه (يمكن للشيء أن يكون قطعة مفصولة أو مطروحة من فضلات الفرد نفسه كالأظافر أو الشعر...الخ)*(17). ويلقب هذا السحر بالتجانسي المؤسس على شقين متمثلين بالسحر المثلي والتجاوري.

لاحظ الأنتربولوجي جيزا روهيم أن هذا النوع من السحر غير موجود عند القبائل التي كانت تعيش في وسط أستراليا، بينما نراها منتشرة عند قبائل الـ"تاروmباس" والقبائل المجاورة حيث يأخذ الساحر بعض فضلات الفرد ليحرقها في عظمة ما، أو في نبات الخيزران بهدف إصابة الفرد الضحية بمرض ما. أما قبائل الـ"واكاس" والـ"كابيس" فإنهم يجدون في الفضلات وسيلة للقضاء على الفرد المعني*(18).

أضفى روهيم تفسيراً تحليلياً لعملية استخدام فضلات الفرد الناتجة عن الخوف في استخدام هذه الفضلات المطروحة من الجسم ووضعها بين غصنين ليقوم الساحر بحرقها. جاء هذا

الاعتقاد من فكرة تمثيل الغصنين لساقي الأنثى، فالشجرة ترمز للأم عند القبائل الأسترالية، كما يرمز الغصنان إلى الساقين وما بينهما هو العضو الأنثوي.

لم تقتصر رمزية الشجرة على القبائل الأصلية الهندية أو الأسترالية، بل نرى امتداد هذا الرمز جغرافياً إلى منطقة بلاد ما بين الرافدين، لتشكل عنصراً هاماً في أساطيرها كما في أسطورة "سفر التكوين". لترمز شجرة الـ "مانجا" عند القبائل الطوطمية إلى مسكن يجمع أرواح أسلاف ذوي قدسية معينة، فتكتسب بعض الكائنات التي تلمس الشجرة أو تقترب منها ذات القدسية. فنجد على سبيل المثال إن كل طائر يحط على الشجرة يصبح مقدساً، وذلك لمشاركته بذات الخصائص التي تتمتع بها الشجرة، فيصبح الطائر بدوره تابو يُحرم على الإنسان لمسه. أما وظيفة الـ "شيرونجا" فهي تطهير الإنسان والأشياء. بينما نجد أن "الشيرونجا" في علم النفس التحليلي له بعدٌ آخر، فهو يرمز إلى القضيب الذكوري، أما ضياعه أو فقدانه (أي الشيرونجا) فله دلالة نفسية تعكس عملية الإخصاء لدى الذكور.

عودة إلى المبدأ الثاني في السحر والمبني على فكرة العدوى (حسب فريدزر)، ومقارنته مع خصائص المقدس التي تتسم بعدواها (حسب دوركهيم). نلاحظ أن هناك تطابقاً بين الفكرتين من حيث المضمون، فكلاهما يعتمدان على مبدأ الاتصال والعدوى المستمرة حتى عند انقطاع التواصل بين الأشياء أو الكائنات، لاسيما وأن الأشياء والكائنات المقدسة عبارة عن عناصر في الطبيعة تحيطها قوى طبيعية ذات طاقة عالية حيث تستطيع التأثير على كل من يلامسها، لا بل أكثر من ذلك، تتمتع هذه القوى باستمرارية التأثير على الآخر حتى في حال انقطاع الاتصال بينهما. فنلاحظ أن هذه الفكرة لعبت دوراً هاماً في تخصيب فكرة التطهير من أي شيء تم انتهاكه، فعند الرجوع إلى القاعدة البدائية لفكرة التطهير، تبين أنها ناتجة عن ضرورة ملحة لوقف التأثير السحري الممارس على الغرض. إذ يمكننا القول إن الفكرة البدائية للتطهير كانت خالية من فكرة استرضاء المقدس أو القوى الطبيعية. وبشكل آخر نستطيع أن نقول إن مبدأ الاسترضاء جاء نتيجة لفكرة الاستسلام للقوى غير الملموسة ومرافقاً لعملية تطور الفكرة الأصلية.

وحسب دوركهيم، فإن خصائص المقدس مقسمة إلى خاصيتين أساسيتين؛ أولها "السلبي" (الذي يناظر القدرة على العقاب)، وثانيها "الإيجابي" (الذي يناظر القدرة على الثواب). وهاتان الخاصيتان نجدهما في طرح فريدزر عند شرحه للسحر التجانسي الذي يعتمد هو أيضاً على شقيه الإيجابي المتمثل بالشعوذة، والسلبي المتمثل بالتابو. بينما تحفز الشعوذة على فعل شيء معين للحصول على المكافأة المبتغاة، فإن التابو كابح يمنع من فعل شيء معين لتجنب البلاء.

لا شك أن السحر والدين اشتركا ببعض المفاهيم كضرورة حتمية في فصل الأشياء غير المتجانسة عن بعضها. حتى أننا وليومنا هذا نستطيع لمس هذا المفهوم، فمثلاً، عند بعض اليهود الأرثوذكسيين، اليهود المتشددين نجد آثار هذا الموروث القديم حيث تُفصل، على سبيل المثال، المواد الغذائية عن بعضها عند غسلها أو عند تقديمها في أطباق معينة، كما يتم تخصيص الأطباق حسب تجانس المواد الغذائية فيما بينها.

مما لا شك فيه أن آثار السحر والخرافة استحوذت على بعض الممارسات اليومية، ويعود ذلك بالطبع إلى ارتداء الخرافة والسحر زياً دينياً، كما نلاحظ أن جميع الأديان قد استلهمت قوانينها وفروضها من معتقدات قديمة لاستحالة نسف كل ما تؤمن به الجماعة من قبل، فكما قال ويل ديورانت "يدعم الدين الأخلاق من خلال وسيلتين أساسيتين وهما: الأساطير والمحرمات، فالأساطير تخلق العقيدة فيما وراء الطبيعة". ولهذا لا يمكننا فصل السحر عن المعتقدات التي لحقته فيما بعد، فأي قانون أو معتقد أو فكرة جديدة، نلمس فيها شيئاً من الرواسب القديمة للشعوب.

لا تتوقف النقاط المشتركة بين السحر والدين على مبدأ فصل الأشياء غير المتجانسة فقط، بل نجد مفهوم فصل المقدس عن المدنس في الطقوس الدينية يشبه إلى حد كبير الممنوعات الموجودة في مفهوم السحر المرتبط بالتابو. فمثلاً لا يمكن لغير المطلعين على الطقوس أن يلمسوا الـ "شيرونجا" المقدس، فالتعلم والتلقين يضفي على الفرد شيئاً من القدسية، لهذا نلاحظ أن بعض القبائل الطوطمية تحذر وتعاقب أفرادها من استهلاك الممنوع، إن كان نباتاً أو حيواناً أو غرضاً غير حي، فلا يسمح باستهلاكها إلا من قبل الشيوخ الذين وصلوا إلى درجة عالية في ممارسة الطقوس وفهمها لاستهلاك هذا الممنوع. من هنا نلاحظ التشابه الكبير أو بالأصح الأرضية المشتركة بين فصل الممنوع عن الأفراد الذين يمارسون يومياتهم بشكل عادي وبين مبدأ المقدس المفصول عن المدنس. فالمدنس يعبر عن اليوميات العادية الخالية من أي طقوس أو احتفالات.

من هنا نستطيع القول إن السحر والدين جاءا من أرضية واحدة. أما بالنسبة لبعض الفوارق التي تميز بينهما، ومن أهمها مشاعر تبجيل المقدس في الأديان، الناشئ عنه شعور بالخطيئة في حال انتهاك المقدس والذي نتج عنه فيما بعد تطبيق عقاب بشري إضافة إلى العقوبة غير الملموسة والصادرة عن ذات إلهية أو عن أرواح مقدسة... على أي فرد يقوم بمخالفة القواعد الدينية. بينما يقوم السحر على أساس المنع المادي من خلال إحداث ضرر جسدي لأي فرد ينتهك الممنوع، أي أن العقاب يأتي لتكريس المنع، ولكنه لا يأتي لعدم الإطاعة، كما هو الحال في مبدأ العقاب للأديان، وذلك لأن السحر خال من فكرة الخطيئة التي نراها ركيزة أساسية للفكر الديني.

من هنا لاحظ دوركهيم أن العقوبات الجسدية أتت فيما بعد كضرورة نفسية لخشية المقدس وفرض احترامها على الأفراد، كي تزيد من عملية بناء حواجز وروادع نفسية عند الفرد بهدف إعاقته في تحطيمها ورضوخه الكامل لها، حيث نجد أن هذا المنع المرتبط بالعقاب تجلى في أشد حالاته عند تعرض الفرد لفكرة المقدسات في الأديان. أما السحر فقد خلى تماماً عن فكرة احترام الممنوع، انما نراه ناتج عن خشية من مخاطره التي يمكن أن تصيب البشر في حال لمسها أو الاقتراب منها*(19).

*17-جيمس فريدزر: كتاب الانسان والاله والأبدية، وكتاب جيزا روهيم: الروحانية والسحر والملك الالـهي.

*18-جيزا روهيم: الروحانية والسحر والملك الالـهي صفحة 21.

*19-ايميل دوركهيم: الطقوس السلبية ووظيفتها صفحة 437.

القسم الأول الحلقة 10 السحر بين الخرافة والعلم

شرحت لنا بعض الدراسات والأبحاث الأنتربولوجية المبادئ الأساسية لقواعد السحر، لكنه يتوجب علينا التساؤل عن المنابع النفسية لهذه المبادئ وينبوع فكرتها الأساسية.

دعونا نخوض قليلاً في عقل الإنسان البدائي من خلال دراسات وملاحظات أجريت على بعض قبائل الشعوب الأصلية والتي ما زالت موجودة إلى يومنا هذا. فبعد إلقاء نظرة على عقائدها المستلهمة من الأرضية النفسية والشعور الذاتي، تبين أن هناك قناعة تفيد بأن بعض الأفراد يمتلكون القدرة على التحكم بكل ما يحيطهم من خلال قوة أفكارهم التي تتيح لهم الاحتكاك مع الطبيعة بكل ما تحتويه من عناصر، وقدرتهم على السيطرة على الآخر من خلال التحكم بأفكاره والذي نسميه في يومنا هذا "القدرة على التخاطر".

لقد آمن الإنسان البدائي بمبدأ قوة الفكرة المتعلقة بكثافة شديدة والتي يمكنها التعبير عن نفسها من خلال قوة الرغبة الذاتية وتمركزها عند الإنسان.

إن هذه الأفكار نشأت لدى الإنسان البدائي من خلال الملاحظات المتكررة والتي كرست لديه هذا الاعتقاد وهذه الرؤية ليسعى جاهداً في تطبيقها.

سأتناول هذا الاعتقاد من خلال نظرة عصبية، فإذا نظرنا إلى بعض المناهج التعليمية العصبية في وقتنا الحالي والقائمة على برمجة الذات من خلال برمجة اللاوعي من أجل تحقيق نجاح أكبر للفرد، نستطيع وبالتأكيد لمس التشابه والاختلاف ما بين الفكرة الأصلية للسحر وبين المنهج الجديد لآليات برمجة الذات، لنجد أن التشابه بينهما يكمن في مضمون الفكرة الأساسية المعتمدة على قوة ورغبة الفرد في تحقيق ذاته وإعادة برمجته من خلال وضع آليات تتيح له التغيير وهذا ما يسمى بـ"تطور الذات". أما الاختلاف الجذري بينهما فإنه يكمن في اعتقاد الإنسان البدائي بقدرته على التأثير على القوى الطبيعية وتسخيرها من أجل مصلحته من خلال قوة أفكاره.

نلاحظ أن مبدأ البرمجة الذاتية وقدرة الإنسان في إحداث تغيير على الذات نابع من رغبة الفرد بإجراء بعض التعديلات على ذاته من أجل إحداث بعض التغيير على المعطيات الخارجية، فالخارج والذات مرتبطان بعملية "فعل ورد فعل"، وهما متعلقان بشكل أساسي بعملية الوعي والإدراك عند الفرد، لنلاحظ سعي الإنسان البدائي من أجل تسخير القوى الخارجية ساهم لاحقاً وبشكل خفي في تكوين البذرة الأولى للعلوم ودفعته لوضع الأسس الأولية لها. لأن رغبة الإنسان وقوة إرادته في تحقيق أفكاره جعلته أكثر إصراراً لإيجاد الحلول والوسائل من أجل تحقيق أفكاره. كما أن الإرادة عامل مهم في عملية البحث عن وسائل متعددة، فهي المحفز الأول للخيال والإبداع.

وبما أنني بصدد الكلام عن الحوافز النفسية، سأتطرق وبلمحة سريعة ومختصرة إلى التجارب الحديثة التي ساهمت في إيجاد تفاسير علمية لآلية الحوافز النفسية المبطنة وتأثيرها على السلوكيات الظاهرة.

فحسب تجربة بوورز عام 1984 والتجارب اللاحقة، كتجربة "وينبرجر وهارداوي" سنة 1990، فقد توصل الباحثون في العلم الدينامي والعلم المعرفي إلى نتائج تأثير التمثيلات تحت-الواعية المثيرة لأفكارنا ومشاعرنا، ليستنتجوا أن غالبية العمليات الإدراكية والمعرفية والعاطفية والدوافع المحركة لنا هي في الأساس لاشعورية.

أما وعينا فله قدرات محدودة ووظيفته الخاصة هي إدراكنا الذاتي للأفكار والعواطف. فهو يقوم بتسهيل عملية التأقلم من خلال إنشاء علاقة بيننا وبين المحيط، كما يقوم بعملية التحكم بالأفكار والسلوكيات. وبعد تجربة ليونيل نكاش وداهين سنة 2000، فقد استطاع هذا الباحثان أن يستنتجا أن الوعي هو الذي يحدد المصير النفسي والدماغي لعدة عمليات إدراكية لاواعية. أي قدرة تأثير الوعي على التمثيلات العقلية اللاواعية. ومن هنا نرى أن العلم الحديث أتاح للإنسان تغيير سلوكياته التي تعيق تطور شخصيته، وذلك من خلال وجود تمارين "للإيحاء الذاتي" التي تهدف إلى تغيير بعض من التصرفات وإنجاح بعض الرغبات. هذا العمل يتم من خلال إنشاء واعي لشيفرات محركة تستخدم بشكل لاواعي لوضع استراتيجيات تحكمية واعية تؤثر على بعض المعالجات اللاواعية. أما تأثير اللاوعي على الإنسان فهو يتم بآلية تصاعدية للمعلومة من اللاوعي إلى الوعي. فمثلاً في مرحلة التعلم، تتم تغيرات في المشابك العصبية لتساهم في هذه التعديلات شيفرات بنيوية لاواعية، كما تعتمد آلية التعلم أولاً على الإرادة ليتم تدوالها فيما بعد بشكل لاواعي من أجل تشكيل نشاط لاواعي غني بأفكار جديدة. ولهذا نجد أن الحلول تأتي بعد التخمر اللاواعي من خلال جمع معطيات كثيرة من قبل عدة شبكات عصبية ليقوم بتنسيقها ودراستها ومن ثم عرض عدة حلول مستقلة عن بعضها البعض في آن واحد.

اخترت وضع هذا الملخص عن أثر الوعي على التمثيلات العقلية اللاواعية وأثرها أيضاً على الوعي، للفت انتباه القارئ إلى التشابه الكبير في الفكرة الأساسية المتمركزة على قدرة وإرادة الإنسان والتي نبع منها المفهوم الأولي للسحر وقدرة الأفكار في إحداث تغيير ما.

ولكن مما لا شك فيه أن السحر اتجه بشكل رديء في تفسير قدرة الأفكار في إحداث تغيير للظواهر الطبيعية أو تكرارها من خلال التقليد أو التشبه بها. إلا أن العامل المشترك ما بين السحر والعلم هو تلك الرغبة والإرادة لدى الإنسان التي تمنحه الإصرار في فهم واكتشاف ما يحيط به بهدف إيجاد الحلول وتوفير حياة أفضل له. كما أن هناك قاسماً مشتركاً بين الفكرة الأولى للسحر والقائمة على عدم ضرورة وجود وسيط شخصي أو روحي للتأثير، وبين العلم المؤسس على نظريات يتم تأكيدها من خلال تجارب عديدة يشرف عليها عدد من الخبراء، ترى أنه لا وجود لقوى غير ملموسة متحكمة بمصائرنا ومستقبلنا.

القسم الأول الحلقة 11 السحر ودلالته النفسية

نظر علم النفس إلى الأنظمة الاجتماعية، وإلى ما تحمله من أفكار إن كانت سحرية أو ما نتج عنها لاحقاً كروحانيات، على أنها ثمار حالات نفسية فردية تم تعميمها. فالإنسان بشكل عام يصاب بالإحباط والقلق عند إحساسه بالعجز أمام الخارج المحيط الذي يفرض نفسه بقوة. فعلى الصعيد الفردي يمر الإنسان بحالات من الاستعصاء لفهم كل ما يحيط به والتي تدفعه نحو خلق صور خيالية كحالة دفاعية ضد الأرق والقلق، وهذا لا يبدأ عند عملية وعي الإنسان للخارج بشكل واضح، بل هي عملية تدريجية تنشأ من قلق عميق غير واضح مستبطن يبدأ عند لحظة الولادة.

فحسب بعض اختصاصي التحليل النفسي، نجد أن مفهوم "قلق الولادة" نابع عن لحظة انفصال الطفل عن أمه، فعلاقته تبدأ عند وجوده في رحمها لتكون لحظة الولادة بداية لمرحلة جديدة غير آمنة حيث يفقد الطفل شيئاً من الحماية الكلية التي كان يتمتع بها داخل رحم أمه، ليباشر الطفل عند لحظة الانفصال بأولى مراحل الإستقلال وهي الإستقلال الجسدي أولاً. وكما نعلم أن عملية الإستقلال تخضع أولاً لأرق وقلق نفسي كي يتم تجاوزها، فلابد أن تمر بمراحل صعود وهبوط نفسي يعاني منها الإنسان بشكل لاواع كحالة الطفل، أو نجدها تخضع لجملة من عمليات نفسية واعية يمر بها الإنسان كحالة انتقالية تدفعه للخوض في مرحلة مختلفة.

إذن، نجد أن الجماعة تستمد معاييرها الثقافية وعاداتها وحكاياتها وقصصها ومعتقداتها...الخ من القاعدة النفسية لأفرادها. لهذا نلاحظ ميل الكثير من اختصاصي علم النفس التحليلي في إرجاع هذه الصور الجماعية المنسوجة للجماعة إلى الأفراد واعتبار لحظة الولادة هي الفاصل ما بين حياة جنينية سابقة خاضعة لمحيطها الرحمي وحياة جديدة يدخل بها حديث الولادة مراحل متعددة مشحونة بحالات قلق شديدة، والذي نتج عنه هروب لواقع خيالي من أجل تخفيف حدة القلق الدفينة كي تكون مساعداً في عملية الاستمرار والاستقرار النفسي. ومن هذه العملية نسجت القصص الأسطورية التي مهدت الطريق لنشوء الأديان.

دعونا نتمعن في علاقة الأم أو الأهل مع الطفل، وما تقدمه الأم في الفترة الأولى لتلبية حاجات طفلها البيولوجية من طعام وشراب وحماية، وبين علاقة الفرد ومن ثم الجماعة مع الإله، فكما بين لنا اختصاصي الأعصاب ميكائيل بيرسينجر عملية ضرورة تعويض الأهل بالإله عند تلاشي شعور الضمان والحماية التي يشعر بها الطفل وذلك لعجزه عن تحمل مسؤوليته والدفاع عن نفسه، فيقوم بعدها باستبدال الأهل بقوة عظمى لا حدودية يمكنها أن تمنحه الضمان والراحة.

إلا أن علاقة الطفل بأهله وخاصة أمه لا يمكنها أن تمر بطريقة مستقيمة. فقد وجد اختصاصي علم النفس وطبيب الأطفال دونالد وينيكوت أن صورة الأم تأخذ طابعاً جديداً في نفوس الأطفال، فتتحول من أم رقيقة معطاءة إلى غول أو ساحرة، ويتجلى ذلك في بعض الأساطير العاكسة للمشاعر الدفينة لدى الطفل، ويعود ذلك لإحساسه بعدم قدرة الأم على تلبية كافة احتياجاته. من هنا فسر لنا اختصاصي النفس والأنتربولوجيا جيزا روهيم علاقة وجود الكثير من الأساطير المحكية من وحوش أو شياطين أنثوية آكلة للحوم البشر والتي تمارس العقاب على الذكور في حال العصيان مع علاقة الأم-الطفل.

أكد لنا روهيم وبعد فترات طويلة قضاها متنقلاً بين القبائل الأسترالية تأثير الطفولة في ابتكار الأساطير والآلهة والتي تستمد منابعها من علاقة الطفل-الأم.

وتقول اختصاصية النفس وأحد أهم أعمدة مدرسة علم النفس التحليلي للأطفال ميلاني كلاين: إن عدوانية الطفل تجاه أمه مدفوعة برغبته في اختراق جسدها لافتراس جميع أعضائها، والتي يعكسها في وقت لاحق على أبيه. ومع مقارنة هذه الرغبة النفسية مع بعض الأساطير لقبائل معينة، استطاع علم التحليل النفسي-الأنتربولوجي إيجاد علاقة بين القلق الدفين الذي يشعر به الطفل وبين قدرته الخيالية لخلق أساطير وحكايات متنوعة يهرب من خلالها الطفل لتعويض حالة القلق واستبدالها بحالة نشوة وانتصار، والذي نتج عن هذه الحالة ضرورة خلق البطل الأسطوري ومن بعده القوى الواعية ذات القدرات اللامحدودة...الخ.

أما سيجموند فرويد فقد اعتبر أن طريقة التفكير الروحانية آتية من فكرة "القوة الكلية"، ففكرة الإيمان بالأرواح والعفاريت والشياطين تشكلت تحت تأثير وقيعة الموت على الإنسان، فوجد أن المرحلة الروحانية هي انعكاس لمرحلة نرجسية.

لا شك أن الأسس التي يستند عليها السحر هي أقدم وأكثر بدائية من الروحانيات، فنجد أن السحر قد استخدم فكرة "القوة الكلية" للأفكار البشرية، بينما استغنت الروحانيات عن جزء منها لتحولها إلى أرواح وهكذا تكون قد مهدت الطريق لحلول الأديان الروحانية والآلهة.

القسم الأول الحلقة 12 _ اللاوعي منبع الأساطير والآلهة - الجزء الأول

تقاربت الأفكار والتحاليل فيما يخص الأساطير ومنابعها النفسية لدى الأثنولوجيين والأنتربولوجيين، فكما وجد الأنتربولوجي والأثنولوجي بول ايرينريتش أن الأساطير تعبر عن الظواهر النفسية الجمعية وعن نظرة وتعبير الجماعة لمفهوم العالم وعلاقة الإنسان البدائي بما يحيطه. وجد اختصاصي النفس والفيزيولوجي فيلهيلم وندت أن الأساطير تستمد وجودها من طرح المشاعر والأحاسيس والدوافع الإرادية والرغبات بكميات مكثفة على الغرض الخارجي لتمنحها حياة ووجداناً.

وبالمقابل اعتبر فرويد أن الروحانيات آتية من ذات المصدر التي أتت منه أول المحرمات والممنوعات الأخلاقية، فقد وجد أن المفهوم الأسطوري المتشعب بالأديان، ما هو إلا نتاج للأفكار والرغبات النفسية الدفينة المطروحة إلى الخارج. وعلى نفس الوتيرة قسّم كارل يونغ عملية نتاج الأفكار إلى قسمين:

1- الأفكار الموجهة والتي يعلن عنها العلم في أعلى درجاتها والمرتكزة على عملية التعاصف الفكري.

2- الأفكار غير الشفهية واللامباشرة والمتشاركة فيما بينها والتي تعلن عن نفسها من خلال الأحلام في بعض الأحيان، كما وجد يونغ أن هذين الشكلين من الأفكار يتشكل عنهما نشاطين مختلفين؛ الأول هو التأقلم مع الواقع الخارجي والعودة إلى المصالح الذاتية، لتكون الأفكار اللامباشرة هي من تحدد خصائص الثقافات البدائية. لهذا نجد أن يونغ ركز على المعنى الحي للأساطير، ليجدها عبارة عن محاولة لفهم ما يجري في لا وعي الإنسان والعاجز في ذات الوقت عن التحرر منها حيث لا يتم ذلك إلا من خلال طرح هذه الإسقاطات اللاواعية(*20).

من هنا نجد أن الخيال الإبداعي يشكل ركيزة هامة وإلهاماً لأساطير وحكايات شعبية، لتأخذ تحفيزاتها من ذكريات التجارب المتراكمة في فضاء الأحلام، فيتم طرح هذا النشاط إلى فضاء سماوي، وهكذا تتحول المشاعر والإنفعالات والرغبات التي يعيشها الإنسان في واقعه المشروط ضمن قواعد جماعية إلى أشكال وروايات وأبطال قصص وأساطير وأديان، فتهرب من واقعها الأرضي إلى سماوات تسكنها أشباح الإنسان المتقمص بآلهة تتحكم بواقع جماعي وتحرم الفرد من إشباع غرائزه ورغباته، لا بل أكثر من ذلك، تجعله يشعر بالخجل من الاعتراف بما يختلج في داخله الداكن العميق الباحث عن الاكتفاء، لنجد أن الأساطير والغيبيات ما هي إلا محاولة لتعويض حاجة نفسية لم يستطع الفرد تحقيقها على أرض واقعه.

وهكذا نستطيع فهم الأساطير على أنها تعبير عن ردود أفعال تم طرحها من قبل الإنسان على عالم سماوي أو خيالي غيبي ابتكره (الإنسان) كضرورة ملحة لتعويض ما ينقصه وما حرمته إياه الجماعة من ممارسات وتصالح مع الذات.

فإذا تساءلنا، على سبيل المثال، عن الدلالة النفسية لمفهوم "القدر"، نجده وكما فسره فرويد على أنه بديل لسلطة الوالدين المعززة بـ "الأنا الأعلى" ليكون الصوت الداخلي لصوت الأهل الناهي للفرد عن كل ما لا يتوافق مع القواعد والموانع (الأنا الأعلى) المكتسبة من الوعاء الأسروي. وهكذا يصبح الأنا الأعلى مكاناً للقيم والأحكام الأخلاقية حيث يتم تحديد الخير والشر، فيصبح الفرد رقيباً على ذاته. ولكن خوف الفرد من فقدان الحب والأمان الآتيان من الأهل، يجعله يبحث عن بديل لتعويض هذا الشعور من خلال إيجاد سلطة عليا غيبية بديلة.

سأتطرق قليلاً وبشكل مختصر عن العلاقة ما بين اكتفاء الحاجات البيولوجية الأولية كالطعام والشراب والحنان التي يوفرها الأهل للطفل وبين علاقة الفرد بالغيبيات، لتتبين لنا، وكما أوضح لنا اختصاصي الأعصاب ميكائيل برسينجر علاقة الشراكة اللغوية التي تمر بطريقة لاواعية، فنرى أن التصاق الوجبات الطعامية مع مفردات الشكر للإله أو لقوى غيبية كفيلة بمنح الفرد شعوراً نفسياً لحاجته الماسة للغيبيات. يتعلق الطفل بأمه كونها تؤمن له حاجاته الأولية كالطعام والدفء والحماية... وفي ذات الوقت ومن خلال شراكة لغوية يقوم الأهل بعملية تداخل هذه الحاجات مع مفردات شكر لكل ما هو غيبي، فيصبح الإله أو القوى الغيبية مرافقة للحاجات البيولوجية للإنسان، وبما أن شعور الضمان وحماية الأهل لأطفالهم يتلاشى عبر الزمن، وذلك لأسباب عديدة، منها:عدم استمرار الأهل في الحياة، تبدأ عملية التعويض عن فقدان الضمان في فترة الطفولة الناتجة عن عجز الطفل عن تحمل مسؤوليته وعن الدفاع عن نفسه، ليقوم بعدها باستبدال الأهل بقوة عظمى لامحدودة أو إله جبار.

سلّط علم النفس الضوء على العملية النفسية الذاتية ودوافعها لتحريض الخيال في خلق أساطير وأبطال وأديان عبرت جميعها عن الرغبات الدفينة العالقة بلا وعي الإنسان، فاعتبر جاك لاكان علاقة الإنسان مع ذاته على أنها علاقة تعذيب ذاتية نابعة عن الشعور بالذنب، والناتجة عن تخلي الإنسان لممارسة أفعاله. فالفعل، على حد تعبير جان بيير فرنان، متلازم مع الإنسان، لأن الفعل هو من يحدد علاقة صاحبه بكل ما يحيطه والمستمد من "انانكي"(*21). فبالرغم من البعد الجمعي لـ "انانكي"، إلا أنه علينا تسليط الضوء على العملية الداخلية والمعركة الذاتية بين ما يريد الفرد فعله وبين ما يُفرض عليه من فعل. فمن هذه التفاعلات النفسية المتصارعة يولد البطل الهارب من منطق القانون، ليتأرجح بين عالمين من صراع ينتهي باعتراف الإنسان باقترافه "هيبريس"(*22)، وهذا لا يتم إلا من خلال تحمله للمسؤولية أولاً وقبول العقوبة ثانياً، أي بمعنى آخر الرضوخ إلى القدر والتخلي عن مبدأ التغيير، وبعدها يتحتم على البطل الاتجاه نحو منبع العراك الداخلي الذاتي...

*20-عند الكلام عن موضوع الإسقاطات الى الخارج عن طريق الأساطير والتي تشكل الينبوع الأول للأديان، علينا أن نسلط الضوء على هذه الرغبات الدفينة العاكسة لغرائز جنسية قمعت من قبل الجماعة (وهذا ما سأتطرق اليه في القسم الثاني، لتسليط الضوء على فرضيات ودراسات قامت بتحليل هذه الرغبات التي تحولت الى محرك رئيسي لعملية خلق الأساطير)

*21-انانكي: كلمة اغريقية تعبر عن تجسيد القدر والحتمية، فهي السلطة العليا والتي تمثل في الدلالة النفسية لدى فرويد بالأنا الأعلى.

*22-هيبرس وهو مفهوم أخلاقي اغريقي مستوحى من المشاعر القوية المنفعلة والخطأ الأساسي للحضارة والتي تعادل مفهوم الخطيئة في الدين المسيحي، وبمعنى آخر الجريمة الأولى. كما نجد عقاب عدة شخصيات من بينها "تانتال" و"مينوس" و"اتري"...الخ من قبل الآلهة لاقترافهم "هيبرس" أي الخطيئة في الميثولوجيا الاغريقية.

القسم الأول الحلقة 13 _ اللاوعي منبع الأساطير والآلهة - الجزء الثاني

لا بد هنا من الإشارة إلى أن معنى القدر عند القدامى يعبر عن مجموعة من مشاعر وأحاسيس ومفاهيم وتقسيمات اجتماعية متضادة، فهو السعادة والتعاسة، والثراء وعدمه، كما هو الحياة والموت والعلاقة ما بين الإنسان وآلهته أو القوى الطبيعية. أما "هيبريس" أي الخطيئة فتعبر عن الذنب المقترف من قبل الفرد عند رفضه المكانة المعطاة له حسب التجزئة القدرية للبشر وتجاوزه الحدود الممنوحة له.

فهل "هيبريس" أو الخطيئة تعني بشكل آخر التمرد على الواقع؟

بعد إلقاء نظرة على أساطير عدة، نرى أن الخطيئة الأولى قد تكررت في الكثير منها والتي تعكس ثقافة جماعية، فكما وجدناها في الطوطم، نجدها عند الإغريق ونجدها أيضاً في سفر التكوين وفي أساس العقيدة المسيحية. وهنا يحق لنا أن نتساءل عن دلالتها التي تعبر بشكل أو بآخر عن جريمة أولى اقترفت بحق تابو معين أو سلطة عليا أو إنها عبرت عن تمرد تم من قبل الفرد على قواعد وفروض جماعية-أسروية أو بشكل أدق هي الجريمة المقترفة من قبل الطفل تجاه سلطته الأبوية والتي تجاوزته في أبعادها لتكون تعبيراً عن تراجيديا إنسانية كما فسرها فرويد على أنها "التراجيديا الأصلية" التي لا تقتصر على فعلتها فقط، بل هي الممر الإجباري نحو الحضارة. فالجريمة المقترفة من قبل الأبناء تجاه الأب السلطوي الزعيم القادر على اقتناء النساء(*23) تمثل مرحلة أساسية لعملية الانتقال من حياة الطبيعة إلى الثقافة المؤطرة للأفراد ضمن مفاهيم وأعراف جماعية، حيث يخضع الفعل لسلطته العليا "أنانكي" الناشئة عن عقدة ذنب شديدة رسخت في الذاكرة مع تكرار التأنيب الجماعي، لتتضخم عبر الزمن فتأخذ مناح وتآويل أخرى، والتي أدت مع مرور الزمن إلى ضرورة التخلص منها عن طريق طرح الإنسان لتفاعلاته النفسية الى الخارج.

وبما أننا نتكلم عن شعور الذنب، فهذا يعني أننا نتكلم عن شعور نما لدى الإنسان والناتج عن شعوره بخطأ تم اقترافه حسب أخلاق أو أعراف الجماعة المنتمي اليها، أو ربما هو ناتج لشعور داخلي ولد جراء معركة داخلية ما بين إثبات "الأنا" و"الأنا العليا" المتمثلة بالأب والتي انتهت لصالح "الأنا" والتي لم تمر بسلام، لينتج عن هذه المعركة الرابحة للأنا شعوراً بالحرمان من الحاجات النفسية والفيزيولوجية.

بعد قراءتنا لأساطير عدة نجد أن مفهوم الخطيئة متكرر في كثير منها، فمثلاً نجد آثار الخطيئة الأولى في نص "اناكسيماندر" والموضح لنا من خلال تعبيره عن هول الخطيئة المرتكبة من قبل الإنسان والتي تتطلب عقاباً شديداً للتكفير عن جريمته الأولى قائلاً: "إن

وحدة العالم قد دمرت من جراء ارتكاب جريمة بشعة نفذت في العهد الأول للإنسان، وكل ما ينتج عنه من عقاب حتى هذه اللحظة، هو من روع وهول هذه الجريمة".

من هنا يمكننا اعتبار مفهوم الخطيئة لدى الإنسان ترافق مع حالة انصياع الفرد للجماعة ضمن أسس وقوانين حرمته من مصالحة مع ذاته ومن أية محاولة فردية أرادت الخروج من حالتها الاجتماعية والثقافية من خلال تكريس مفهوم القسمة والقدر العاكسة لمفهوم الاستسلام وحالة التمييز بين الأفراد للإبقاء على التسلسل الهرمي للجماعات.

ولكن لا بد من الإشارة أيضاً إلى أن مفهوم الخطيئة والقدر أسهما ببناء الهيكلة الجماعية وتنظيم الأفراد من خلال ترسيخ مبدأي العقاب والمكافأة.

ولا بد من التنويه أن مرحلة تكوين الخطيئة وما نتج عنها من شعور بالذنب كانت مرحلة ضرورية مؤقتة لتطور وعي الإنسان، لحقتها مراحل أخرى في التاريخ كمجيء بعض الأفراد الثائرين (أوما نسميهم بالأبطال أو الرسل أو الأنبياء) على واقعهم القاسي للتخلص من الشعور بالذنب والمعبرين عن رغبة دفينة جماعية للتمرد على مفهوم القدر والقسمة والمساهمة بعملية تغيير للثقافة السائدة آنذاك.

23-ركز فرويد على محتوى الثقافات الإنسانية والتي تتجه بشكل مركزي إلى قوانين تمنع العلاقات الجنسية بين الأم وأبنائها، ليقارن العالم البدائي (كما يراه من خلال أسطورة "الجماعة البدائية" والمستوحاة من نظرية "داروين") مع نمو الطفل ومروره بالمراحل النفسية-الجنسية حيث وجد أن عقدة الخصي والتي هي أصل عقدة أوديب نشأت عن منع أبوي لرغبة الابن في أمه، ومن هنا جاء تابو القتل العاكس لمنع الابن بقتل الأب للاستيلاء على أمه تحت ثقل العجز والتوتر جراء الخوف من فقدان الطفل للحماية الأبوية (ضمن مفهوم الثقافة الأبوية التي تعطي ثقلاً لدور الأب في اكتفاء الحاجة الفيزيولوجية والنفسية لنمو الابن). وتحت وطأة مشاعر العجز والحاجة والخوف (وهذا ما يسمى بمبدأ "هيلفلوسيكايت") يتخلى الابن عن رغبته في أمه.

القسم الأول الحلقة 14 أثر الخيال الطفولي على ولادة أبطال الأساطير - الجزء الأول

ولدت الأساطير من رحم الخيال النشيط المدفوع بشحنات ثورية ضد الواقع المكبل للأفراد، لتمتد جذورها إلى تلك الرغبات الطفولية النابعة من رؤية الطفل للعالم الخارجي وإلى كل ما حوله. ومن هذه التفاعلات النفسية يُخلق البطل ليكون نتاجاً لتصادم مشاعر ورغبات دفينة لدى الطفل. ويمكننا القول: إن التخيلات التي تجتاحنا عبارة عن ثمرة عقلية للتعويض عن خيبات أمل أو قلق نفسي. ومن هذه الخيالات الحرة والمنعتقة من كل الموانع والتابوهات الخارجية، ولدت القصص الخيالية لتأخذ يوماً ما منعطفاً مؤثراً على حياتنا وطريقة تفكيرنا، فنتحول الى وحوش وآلهة وشياطين وأبطال.

لاحظ العديد من اختصاصيي علم النفس-الأنتربولوجي وجود خصائص مشتركة بين أبطال الأساطير المتعددة في العالم والمتباعدة فيما بينها جغرافياً. فوجد أوتو رانك أن هذه الخصائص لها سمات وعناصر تتشابه فيما بينها لتكون قاعدة للأساطير، فالبطل الرئيسي لمعظمها يولد بعد فترات طويلة ناتجة عن عقم للأهل، أو يكون ثمرة لعلاقة جنسية غير مباح بها من قبل المجتمع، أي نستطيع القول: إنه ولد من الممنوع الناشئ عن كبح الرغبة. كما نجد أن لهذه الولادة خصوصية معينة حيث يتم تبشير الأهل بالحمل قبل حدوثه عبر وسيط، كحلم تنبؤي أو وحي(*24).. ليحذر الأهل من وجود مصاعب خارجية يمكنها استهداف وقتل المولود. بالطبع لا يتوقف التشابه بين أغلبية أبطال الأساطير وأبطال الأديان عند هذا الحد بل نجد أنه في معظم الأحيان، وعند الولادة يوضع الطفل في صندوق ليلقى في النهر ليتم إنقاذ المولود المبشّر به من خلال حيوانات تقوم برعايته أو يُتبنى من قبل أسرة متواضعة المستوى لتتكفل برعايته حتى يكتمل نضوجه(*25)، ليعود فيما بعد إلى أهله الأصليين بعد خوضه لمغامرات شتى. طبعاً هنا أود التنويه إلى أثر البيئة والمناخ على الخيال لرسم معالم الأسطورة وملامح بطلها، حيث تنعكس على طبيعة التفكير والسلوكيات عند الجماعات، فالمناخ الجاف والقاسي لا يوفر للفرد إمكانية التنفيس عن رغباته المتناقضة من خلال خلق أساطير ممزوجة بالفانتازم(*26) الفردي، ليسجنه في دائرة الصراع من أجل البقاء والاستمرار. فمن وجهة نظر مدارس علم النفس والأعصاب، اتضح لنا أن معظم السلوكيات عند الإنسان والحيوان ناتجة عن عمليات نفسية مبطنة تتأثر بدورها من خلال البيئة كي تصب في خانة التأقلم مع المحيط الخارجي المتغير حكماً. هذا الشيء يؤثر حتماً على إمكانية النشاط الخيالي وطرح الرغبات الدفينة المتصارعة بين تحقيقها وردعها.

أعطى فيلهلم وندت بعداً نفسياً للأساطير، فوجد أن البطل يعبّر عن مجموعة من رغبات ونزعات إنسانية مطروحة من خلال النشاط الخيالي الذي يصل إلى ذروته بشكل حر وتلقائي

عند الطفل. كما أوجدت الدراسات والفحوص السريرية أن العصابيين يعيشون هذه الحالة بشكل عميق حيث تُعزز وتُثبت لديهم الحالة الطفولية بدلاً من نضوجها وانتقالها إلى مراحل أخرى.

وبإلقاء نظرة على التفاعلات والدوافع النفسية لدى الطفل، نجد أن المشاعر العدائية تجاه الأهل تتشارك مع مشاعر الحب والحاجة إليهم لتتصارع فيما بينها، مما يؤدي إلى طرحها عبر القصص الخيالية.

نلاحظ إذن، أن حاجة الطفل للتنفيس عن هذه التفاعلات تترافق بدرجات متفاوتة مع نسبة قمع المجتمعات للأفراد، فكلما اشتدت وتيرة الاستبداد على الفرد ازدادت معها ضرورة كبح الطفل لها، فتتحول الرغبات المقموعة والمكبوتة إلى روايات تجسد واقعاً نفسياً يعيشه الطفل في أعماقه، إضافة إلى ذلك، نجد أن لجوء الفرد لتحويل البطل إلى "أنا" مثالي يخدم جميع النماذج التي تعاني من عراك داخلي من أجل حل جامع لمختلف المشاعر الأنوية، وهكذا يتقمص البطل كل ما هو مثالي لـ "الأنا" (حسب المفهوم المختلف لكل نموذج ثقافي)، ليقوم بدمج الواقع والرغبات عند الأفراد، وذلك من خلال منحهم ثقة أكبر بالذات يقوم من خلالها تجاوز شعور الذنب الدفين.

لاحظ اختصاصي النفس "اوتو رانك"(*27) بعد دراسة تحليلية لمعظم الأساطير، تخلي أبطالها والأبطال-الرسل عن أهاليهم وعن أمهاتهم المرتبطين بهم إلى حد كبير من أجل قضية معينة يدافعون عنها ويؤمنون بها. ومن أجل فهم أكبر للأساطير وللدوافع المحركة عند البطل الدافعة لقطع العلاقات مع أهله، وجب علينا التعمق بدلالتها النفسية للوصول إلى منبعها الأول المرتكز على النشاط الخيالي، فحسب الكثير من الدراسات البحثية التي أجريت من قبل اختصاصيي علم النفس، فقد تأكد وجود نشاط خيالي يتشكل بشكل عفوي عند الطفل يرافقه في مراحل نموه. ولا ننسى أن رغبة الطفل في التحرر من سلطة الأهل تؤدي إلى خلق مشاعر مؤلمة يعاني منها الطفل وتساعده في آن واحد على تحقيق عملية النمو.

هذه النتيجة تأتي بعد مراحل عديدة يتم تجاوزها عند الطفل، فنجد مثلاً أنه في فترة الطفولة المبكرة، يمثل الأهل السلطة الوحيدة والمنبع الأصلي للأطفال، ليكونوا أبطال الواقع لديهم، مما يدفع الطفل نحو رغبة التشبه بأهله كي تصبح أو يصبح مثيلاً لوالدته أو لوالده، إلا أن هذه الرغبة المكثفة تبدأ بالتلاشي نوعاً ماً مع تقدم النمو العقلي للطفل وانخراطه في أجواء اجتماعية مختلفة، كما أن تعرفه على آباء وأمهات الآخرين تساعد الطفل في البدء بعملية مقارنة بين الجميع والتي تتيح له اكتساب حق الشك والتشكيك. هذه العملية تنقل الطفل من حالة اليقين إلى حالة الشك، لتكون سبباً لحالة سخط داخلية مرحلية ومحركاً لدوافع المنافسة بين الجنس الواحد...

*24-تعتبر هذه المكونات أساساً رئيسياً للأساطير والأديان مع اختلاف تركيبتها حسب النموذج الثقافي للجماعة والمتأثرة أيضاً بعملية المناخ والبيئة.
*25-في بعض الأديان أيضاً، نجد وبكثرة عناصر الأسطورة في رواياتها مع اختلاف بعض التفاصيل، فمثلاً، نجد أن قصة موسى تتشابه في الولادة ورعايته إلى حد كبير مع بقية الأساطير، إلا أن بعض العناصر الموجودة في أسطورة موسى خضعت لتغيير بعضها، فمثلاً نرى أن أمه تنتمي إلى الطبقة المتواضعة بدلاً من الثرية كما هو الحال في معظم الأساطير الأخرى، بينما تنتمي العائلة المتبنية إلى الطبقة الارستقراطية المالكة، مع إبقاء الأم الأصلية كمرضعة للطفل بدلاً من حيوانات أليفة أو الأهل غير البيولوجيين. ذات الشيئ نجده تكرر مع ولادة المسيح.
*26-الفانتازم عبارة عن تركيز عقلي أو إيمان غير منطقي يقود في بعض الحالات إلى ممارسة أفعال مفرطة. هذا المصطلح له معنيان في اللغة الفرنسية التي سبقت علم التحليل النفسي وهما: الهلوسات والفانتازية والتي تعبران كلاهما عن نشاط خيالي.
*27-اوتو رانك: أسطورة ولادة البطل صفحة 98-116.

القسم الأول الحلقة 15 أثر الخيال الطفولي على ولادة أبطال الأساطير - الجزء الثاني

ومقارنة مع بعض الحالات العصابية، لاحظ الاختصاصيون وجود مشاعر نفور ذات شكل مبطن يشعر بها العصابيون تجاه الأهل والتي لا يبقى منها أي أثر لذكرى واعية، إلا بحالات نادرة، حيث لا يمكن اكتشاف هذه المشاعر إلا من خلال التحليل النفسي.

لقد تم تسمية هذه الحالة وكل توابعها الناتجة عن المشاعر المتصارعة بـ "الرواية العائلية للعصابيين" التي تعود أسبابها لوجود نشاط خيالي خاص يتحكم في جوهر العصاب وفي الذكاء الأعلى سوية. ومقارنة مع مراحل نمو الطفل لاحظ الاختصاصيون وجود هذا النشاط عند الطفل حيث يبدأ بالتظاهر (أي النشاط الخيالي) في ألعاب الطفل ليحول وجهته فيما بعد، أي في مرحلة ما قبل البلوغ، فيبدأ النشاط الخيالي بالاهتمام بالعلاقات العائلية، ليعلن عن نفسه من خلال الأحلام النهارية المرافقة للطفل في مرحلة ما قبل البلوغ وإلى ما بعد هذه المرحلة. وضحت لنا الدراسات التي أجريت على مهام الأحلام النهارية مدى أهميتها وضرورتها لإنجاز الرغبات فهي التي تقوم بتعديل وجودي، ليكون لها هدفين أساسيين وهما: تحقيق رغبة الايروتيكزم(*28) وتحقيق الطموح والذي يختبئ وراءه في معظم الحالات العنصر الأيروتيكي.

فعندما يبدأ الطفل بالتعرف على عائلات أخرى، يباشر عملية المقارنة بين أهالي الآخرين وأهله. وهنا تبدأ رغبة تغيير الأهل بالتشكل، وخصوصاً عند أطفال العائلات الأقل قدراً أو شأناً من الآخرين. ففي هذه المرحلة يحشد الخيال نفسه لتحقيق رغبة التخلص من الأهل واستبدالهم بأهل أكثر شأناً، وهذا ما نراه في الكثير من الأساطير المعتمدة في جوهرها الأساسي على ولادة الأهل الاعتباريين العاكسة لرغبة الطفل باقتناء أهل ذوو مرتبة رفيعة. فغالباً ما تبدأ الأسطورة مع طرفين ينتميان لعائلات نبيلة أو أحد الطرفين ينتسب إلى عائلة أرستقراطية، أما في بعض الأساطير الأخرى، فيتم استبدال العنصر الأرستقراطي بعنصر مقدس كإله مثلاً، ليكون طرفاً لعلاقة عاطفية أو زواج. كما يمكن أن تكون ولادة البطل ناتجة عن اختيار إلهي للأم من أجل تسهيل ولادة الإنسان- الإله. ومن هنا لاحظ اختصاصيو علم النفس وجود تشابه كبير بين هذه الأساطير وبين الرواية العائلية وعناصرها الفانتازمية التي يعيشها الطفل في خيالاته الرحيبة والتي تحقق ذاتها في الأساطير من خلال قلب واقع الطفل.

السؤال المطروح هنا هو: في أي مرحلة يبدأ "الفانتازم" الإعداد بهدف تحقيق احتماليته؟

يبدأ الفانتازم بالإعلان عن نفسه في مرحلة الطفولة الجاهلة لعملية التكاثر والجنس عند الطفل، وتمتد إلى المرحلة الثانية عند تعرفه على العلاقة الجنسية بين أبيه وأمه مع استيعابه بأن الأب يعكس حالة الشك "باتر- سيمبر إنسيرتوس"، أما الأم فهي الحالة الأكيدة

"سيرتيسيما"، بينما تخضع "الرواية العائلية" إلى بعض التقييدات، ليقوم الطفل بترفيع أبيه إلى مرتبة عليا. في هذه المرحلة الثانية يبدأ الخيال الأيروتيكي عند الطفل بالاستيقاظ حيث يصطدم (الخيال) بالسلطة العليا الممثلة بالأهل وخصوصاً عند الذين يطبقون بعض العقوبات القاسية على الطفل من أجل ردعه عن تنفيذ الخيال الجنسي، مما يولّد عند الطفل رغبة الإنتقام من الأهل من خلال مساحة الفانتازم.

تعكس خصائص أسطورة البطل مشاعر العنف تجاه الأهل الممزوجة بحنين وعاطفة تجاههم، فبعد دراسات دقيقة لعناصر الأسطورة وما تحويه من فانتازم حالم، نجد أن الطفل يضع بعض ملامح وسمات أهله الحقيقيين بمن استبدلهم، أي أنه لم يلغ الأب الحقيقي بل قام بترفيعه إلى مرتبة أعلى والتي تشير إلى حالة توق إلى الماضي عندما كان الطفل ينظر لأبيه على أنه الأفضل والأقوى ولأمه على أنها أجمل الجميلات والأكثر محبة. ومن هنا وجد اوتو رانك أن الفانتازم ما هو إلا مشاعر أسف على مرحلة الطفولة المبكرة التي عرفت مغالاة في تقدير الأهل...

28- الايروتيكزم وهو مصطلح اغريقي منشق من أحد الآلهة "ايروس" والذي يعبر عن رغبة الحب الممزوجة بالشهوة الجنسية في الثقافة الاغريقية.

القسم الأول الحلقة 16 أثر الخيال الطفولي على ولادة أبطال الأساطير -الجزء الثالث

عودة إلى عناصر التشابه بين عناصر الأسطورة والأديان، والتطرق إلى الوسيط المبشر للحمل عن طريق حلم أو وحي، فقد استطاع علم التحليل النفسي من خلال تفسيره للأحلام والرموز ولمجموعة من الحقائق الأثنولوجية والفلكلورية إيجاد دلالات ومعان للعناصر الأسطورية، لتوفر لنا أحلام الولادة مادة دسمة توضح من خلالها المعاني المختبئة خلف استخدام مكوني الصندوق والنهر في الأسطورة.

من خلال أحلام عدة قام بدراستها الكثير من اختصاصيي علم التحليل النفسي، تبين أن الرموز المستخدمة تتشابه إلى حد كبير مع مكونات "الرواية العائلية"، فمثلاً، نجد أن الصندوق يرمز إلى الحاضنة الأم، أي الرحم، بينما تؤشر المياه (النهر) إلى السائل الأمنيوتي الذي يسبح فيه الطفل، أما عنصر "الحبل" الموجود في أسطورة موسى، وعلى حسب بعض الروايات، نجد أن والدته كانت تقوم بربط الحبل بالصندوق والشجرة كلما سمعت أصوات جنود خشية على حياته إلى أن جاء ذلك اليوم عندما نسيت الأم ربط الحبل بالشجرة لكي يسحب الماء الصندوق. أي أن الحبل يرمز هنا إلى الحبل السري (وهو قناة تصل الجنين بالمشيمة)، كما يدل نسيان الحبل ووصول الصندوق إلى الضفة الأخرى على الولادة. وهنا لا بد من التطرق إلى حلم لإحدى حوامل اختصاصي التحليل النفسي د. كارل ابراهام(*29). فنلاحظ وجود ذات مكونات الأسطورة في الحلم، لتدل القناة التي تصل الغرفة بالمياه على الحبل السري والمياه على السائل الأمنيوتي، فمن القناة تظهر الفقمة التي ترمز إلى الجنين حيث يعيشان كلاهما في وسط سائل. أما في القصص الشعبية الألمانية ودلالاتها، يرمز البئر إلى رحم المرأة. بينما نجد أن مكان أصل الأطفال هو الغابة حيث تسكن الروح في أعماق المياه أو في مستنقعاتها عند الشعوب البدائية مثل قبائل آسيا الوسطى أو عند القبائل البدائية الأسترالية. كما نلاحظ في معظم الأساطير وجود عنصر الحيوانات المنقذة التي تتدخل لتسهيل عملية الولادة، كما هو حال طائر اللقلق الذي نجده في بعض الروايات والقصص الشعبية الأوروبية.

هناك الكثير من الرموز المستخدمة للدلالة على رحم الأم كالبئر أو الصندوق أو الكهف أو الحفرة أو الشجرة الجوفاء... وكلها تؤشر في معظم ثقافات القبائل إلى المكان الأولي لإقامة الأرواح، أما المياه فهي ترمز بشكل عام إن كان بحراً أو نهراً أو نبعاً إلى السائل الأمنيوتي.

تتطابق الرواية العائلية وتنسجم مع أسطورة البطل، لتتشابه "أنا" الطفل مع بطل الأساطير، فيعبّر البطل عن معاناة داخلية لاواعية لدى الطفل لتأخذ شكلها الواعي من خلال تجسيد البطل وطرح المعاناة إلى الخارج، ولا ننسى أيضاً أن الأسطورة تعكس بشكل عام رغبة الإنفصال عن الأهل المستيقظة في فانتازم الطفل في مراحله الطفولية المتقدمة، لتكون

أكثر وضوحاً في الأسطورة ونزعة البطل في الفراق عن أهله. كما نلاحظ أيضاً وفرة الأبطال الذكور في الأساطير وخلوها تقريباً من بطلات أسطورية نسائية، وذلك يعود إلى الثقافة الذكورية السائدة في المجتمعات ليستعير البطل عند كارل يونغ الـ"أنيميوس"(*30)، فيكون بديلاً واعياً للأفعال التي يرغب الفرد انجازها وتحقيقها.

مما لا شك فيه أن البطل الأسطوري تجاوز "الأنا" الفردية ليصبح لاحقاً أداة تعبير عن "أنا" جماعية يمنح لها جميع الصفات العليا التي تفتخر بها جماعتها، فتكون نموذجاً لشخصية قائدة تستطيع مجابهة ماضيها وحاضرها وتتحول إلى رمز حي للمستقبل ومادة خيالية خصبة لنسج تاريخ وانتصارات جماعته.

---

*29-حلمت هذه الحامل بأنها وحيدة في غرفة مستطيلة، لتسمع فجأة صوتا آتيا من داخل الأرض، لكنها لم تأبه به لأنها تذكرت وجود قناة داخل الأرض موصولة بالمياه مباشرة، لتباشر برفع فتحة موجودة في الأسفل، وعند فتحها، رأت كائنا يشبه الفقمة، تروي الحامل.

*30-مصطلح ال"انيميوس" في علم النفس التحليلي للدكتور كارل يونغ يرمز الى أحد "اركيتايب" أي أحد الرموز الأصلية الموجودة في بنية اللاوعي الجماعي وتدل على تمثيل انثوي في خيال الرجل، ويعادل هذا التمثيل عند الأنثي تمثيلا ذكوريا آخر ويسمى بال"انيما" وهو مصطلح لاتيني يعني به الروح. ،هنا لا بد من الاشارة الى أن الروح في كثير من المجتمعات تأخذ صيغة ذكورية، ويعود ذلك الى الثقافات الذكورية اللاغية للأنثى، وسأتطرق إليها من خلال أساطيرها في القسم الثاني.

القسم الثاني الحلقة 1 الجنس والسلامة النفسية - الجزء الأول

قبل التطرق إلى رمزية الأساطير ومنابعها، أود تسليط الضوء على بعض الدراسات الإكلينيكية التي أكدت تأثير كبح الغرائز البيولوجية على التحكم بالأفراد من خلال تحويل الطاقة الجنسية إلى طاقة جهد تصب في مصلحة الجماعة. وحيثما ترتكز "مصلحة الجماعة" على أساس قمعي يستفيد منه بعض رجال الدين والسلطة، فإن تلك المصلحة تتجاهل حاجة وسلامة الفرد، بل إنها تتجاهل حاجة الجماعة نفسها للإنسجام مع التغيرات الخارجية ومواكبة العصر.

أكدت هذه الدراسات أثر السعادة والاكتفاء لدى الفرد في عملية الإبداع والعطاء، بينما يؤدي قمعها ودفنها في الأعماق إلى حالة من التوتر والقلق الذي ينتج عنهما حالات العنف والعدوانية الشديدة، وذلك بحثاً منها عن تفريغ الشحنات الجنسية التي لم تستطع القيام بعملها واكتفائها. فمن الطبيعي أن يسعى النشاط الحسي لدى الفرد إلى اكتفاء بنيته، وهذا ما يلقب بـ"التوازن البيولوجي" من خلال البحث والعثور على السعادة والفرح واللذة في آن واحد، كما يرى هنري لابوريت.

ففي حال اصطدام الدوافع البيولوجية مع القوانين الخارجية المؤطرة لهذه الدوافع، يبدأ القلق الناتج عن إدراك استحالة تحقيق اللذة المنشودة لاكتفاء الغرائز، مما يدفع الفرد إلى الهروب من القلق من خلال مشاعر العدوانية تجاه أي محرض يمكنه مس غرائزه المكبوتة. وبذلك، نستطيع القول: إن العدوانية والتعنيف عبارة عن محاولة لتخفيف القلق النفسي الناتج عن صراعات النشاطات العصبية المتمركزة على مستويات مختلفة في نظامنا البيولوجي والتي يصعب على الفرد المقموع إشباعها.

لاحظ فيلهلم ريتش أن الفرد القابع تحت ضغط قوانين وأسس جماعية تثبط مبدأ "اللذة"، وترفض الحياة والجنس، تثقل على الفرد شعوراً من "اللذة القلقة" ليثير لديه الخوف من المتعة. ويؤسس هذا الشعور من اللذة القلقة قاعدة رئيسية للنظم الإستبدادية على كافة المستويات، كما يساهم في تحضير أرضية مناسبة لدى الفرد لقبولها، وإخضاعه لجميع الأيديولوجيات القائمة على رفض الحياة. مما يؤدي إلى نشوء تضخم مشاعر الخوف لدى الفرد من العيش بشكل مستقل وحر. فسرعان ما يصاب بأعراض كثيرة تحرمه من الانسجام مع ذاته، ليقوم بتبديل حاجته للاكتفاء الجنسي بحاجة ماسة للهيمنة والهروب من المسؤولية.

إن هذه القوانين الكابحة تخلق صدامات عدة وخصوصاً في المجتمعات الذكورية. فتتعاكس الثقافة مع الطبيعة، والغريزة مع أخلاق الجماعة، والممارسة الجنسية مع تحقيق الذات، ليتكون لدى هذه المجتمعات أفراد غير متناغمين لا مع ذواتهم ولا مع الآخرين ولا

مع الطبيعة. وعلينا ألا ننسى الأثر الإيجابي للعملية الجنسية على سلامة النفس، فهي عملية بيولوجية هدفها تحقيق اللذة والتوازن النفسي، كما أنها تساهم بشكل كبير في عملية الانتاج الذاتي(*31).

إن الرغبة في العنف والهدم، نجدها عند ريتش وعند بعض اختصاصيي السايكولوجيا والسيكسولوجيا، ناشئة عن رفض لغريزة الجنس ذات الطبيعة المسالمة، ليكون العنف عبارة عن وسيلة لتحقيق الرغبات الأساسية، في حال عدم الحصول عليها بطريقة سليمة. وهكذا تتحول هذه اللذة المسالمة إلى لذة سادية والتي هي خليط من دوافع جنسية ودوافع هادمة ثانوية، فهي إذاً حالة بيولوجية متحولة تحت تأثير ثقافة البيئة.

لقد أوضحت الدراسات الإكلينيكية لنا أيضاً الجانب الآخر للسادية الدفاعي، والناتج عن قلق عميق يؤدي إلى تأجيجها على الصعيدين السلوكي والجنسي.

أوضح لنا فيلهلم ريتش من خلال معايناته السريرية العلاقة بين الكبح النفسي الذي استعرضه فرويد مطولاً وبين علاقة الجسد المكبوح، ليتوصل ريتش إلى مفهوم خاص يسمى "التدرع النفسي" الناشئ عنه تدرع عضلي.

وهو ما يعني أن المفهوم القمعي يجتذب الأفراد المؤهلين جينياً، ليقوم بتأجيج السلوكيات السادية وتفعيلها من خلال الثقافة العامة. وهذا ما يُلقّب بـ "علاقة السوما" أي الجسد والنفس حيث استطاعت اختصاصية النفس جيردا بويسن (*32) التعمق أكثر في هذه النظريات، لتقوم على تطويرها وخلق فرع جديد وهو "علم النفس البوديناميكي"(*33) المتخصص بالعلاجات البيوديناميكية القائمة على علاج الجسد والعقل في آن واحد.

إن عدم ظهور الحاجة الجنسية في الوعي بسبب المانع الأخلاقي، يدفع الإثارة لتقوم بالارتباط بأفكار أخرى غير خاضعة للرقابة الثقافية، مما يؤدي إلى انحراف هذه الإثارة عن مسارها الطبيعي، فتقوم بأخذ أشكال معينة من العصاب(*34)، وعندئذ يبدأ الأنا العصابي محاولاته للتخلص من الضغوطات الناتجة عن هذه الحالة عن طريق أفعال إندفاعية مبالغ بها.

توصلت الفحوص السريرية إلى أثر تربية الطفل بالحالة العصابية فيما بعد. فقد أكدت المعاينات أسباب هذه الحالة لدى العصابيين المصابين بالوسواس، فلوحظ أن معظمهم نشأ وترعرع في محيط خارجي ينبذ الجنس (إن كان من خلال الثقافة الاجتماعية أو العائلة الواحدة). وبعد التدقيق أكثر في سلوكيات هؤلاء في فترات ما قبل البلوغ حيث اتسمت بأفعال جنسية مبكرة أو بمحاولات جنسية إغرائية، إلا أنها جوبهت في ذات الوقت برد عنيف ومفاجئ من قبل المحيط، والذي أدى إلى تفاقم إحساس الطفل بالذنب...

*31-كتاب وظيفة الـ"الاورغاستيك" لاختصاصي النفس فيلهلم ريتش.

*32-استطاعت جيردا بويسن تطوير فكرة "تدرع الأنسجة" التي قدمها ريتش لتكتشف قدرة الغرائز على ضبط العواطف حيث تأخذ بعين الاعتبار الإنسان ككل من جسد وطاقة وعقل.

*33-يقوم علم النفسي البيوديناميكي على أسس علاجية جسدية ونفسية. تقوم هذه المدرسة، وخصوصاً مؤسستها بويسون، على تعريف المشكلة، إذ تعتبر ان كل فرد يملك نواة سليمة مرتكزة على الشخصية الأساسية وتتمتع بمزيج من المرونة وتحديد الأمور، والقدرة على الإبداع والحماية، فهذه النواة السليمة لها القدرة على تنظيم وضبط ذاتها، فهي التي تسمح للفرد بالوصول إلى الراحة المستقلة، فالشخصية الأولية عبارة عن نواة سليمة منسجمة مع ذاتها ومع محيطها. أما الشخصية المتفرعة فتأتي نتيجة تسوية معينة تنفذها الشخصية الأولية محاولة منها دمج التناقضات الآتية من المحيط والتي تمارس على الفرد تحت شكل أعراف وأخلاق... وينتج عنها انسداد وثبات في الأنظمة؛ كتشنج العقل والعواطف الممنوعة والتدرع الفيزيولوجي. مما يؤدي إلى ضياع أي اتصال مع النواة السليمة والمتمثل بالشخصية الأولية للفرد، ليجد الفرد نفسه في طريق مسدود لا يمتلك مخرجاً واحداً للخروج من هذه الحالة مما يؤثر عليه نفسياً، ومن أجل التخلص من آلام هذه الحالة يسعى الجسد إلى منع أي إحساس، وذلك للتأقلم مع المحيط، الأمر الذي تنشأ عنه اضطرابات فيزيولوجية.

*34-العصاب هو اضطراب نفسي يختلف عن الذهان، والفرق بينهما ان مصابي العصاب يتمتعون بوعي لواقعهم وآلامهم، فمن أشكاله؛ القلق الحزين، الاكتئاب، الغضب...الخ ومن نتائجه؛ العدوانية والتبعية...الخ.

القسم الثاني الحلقة 2 الجنس والسلامة النفسية - الجزء الثاني

من هنا لاحظ ريتش من خلال علاجه لمرضاه، أن كل محاولة تفريغ للضغط الجنسي من خلال اكتفاء الأعضاء التناسلية، ساهمت بشكل فاعل في تخفيض إمكانية استيلاء الدوافع الباتولوجية على المريض. ليؤكد لنا دور الركود الجنسي في عملية تزايد الاندفاعات الجنسية المنحرفة عن طريقها الطبيعي.

إذن، فإن الركود الجنسي هو نتيجة لاضطراب في وظيفة "الأورغاستيك". وكما أوضحت الدراسات فإن كل تجربة نفسية لها أثرها على التغييرات الفيزيولوجية التي تمس عضواً ما. وهذا ما يسمى في علم النفس بـ "التثبيت الفيزيولوجي من خلال الأثر النفسي"(*35).

بعد إجراء بعض الفحوص السريرية على بعض المصابين باضطرابات نفسية، استدلت الدراسات على وجود حالة من فانتازما تنتاب الفرد، تشبه كثيراً تلك الأفكار والرغبات اللاواعية لدى الطفل، كممارسة العلاقة الجنسية مع أفراد العائلة الواحدة، ورغبة الطفل بأمه الممزوج بشعور الخوف الشديد، وذلك رغبة منه بالحفاظ على سلامة عضوه التناسلي. فنجد أن هذه الرغبات تطفو على السطح في مراحل لاحقة وتحت ظروف معينة، لتعبّر بذلك عن ذاتها من خلال أعراض عصابية- ذهانية تكون مصحوبة بطاقة جنسية عالية كانت قد تطورت عن حالة الكبح الجنسي المشروط من قبل الخارج. الأمر الذي ينشأ عنه ركود جنسي، والذي يسبب بدوره زيادة من المنع وإنعاش الأفكار والرغبات الطفولية، فتقوم باحتلال مكان الأفكار الطبيعية.

وفي دراسات أخرى، عثرت على وجود بعض الإصابات العصابية الناشئة في عمر متقدم، أي عند بلوغ الطفل، والتي أتت كنتيجة لتجربة جنسية معينة في الحياة البالغة، لتكون المسبب الرئيسي للركود الجنسي. ليلاحظ ريتش أن هذا الركود يستطيع بدوره أن يقوم، من جديد، بتنشيط رغبة الجنس الممنوعة مع أفراد العائلة الواحدة المرافقة لحالة القلق الجنسي.

مما لا شك فيه أن هذه الرغبات الطفولية وتحت ضغط الثقافة الخارجية الكابحة لكل عمل جنسي يمكنها عدم الإعلان عن ذاتها، كما هو الحال عند العصابيين. لكننا نجدها، بشكل أو بآخر، تتجلى بوضوح في سلوكيات أفراد ومجتمعات الثقافة الذكورية المفرطة المتمثلة بسلطة الأب، ليتوافق هذا الوضع مع المفاهيم الدينية التي تدفع الفرد بعيداً عن رغباته الجنسية، فتنظمها ضمن قوانين جامدة خالية من الحياة، وتضعف بذلك نشوة التمتع في الحياة عند الأفراد تدريجياً، فنرى كيف تتحول العملية الجنسية إلى عملية فكرية قائمة على غزو وتغلغل ذكوري في الأنثى، وتعكس بهذا الشكل انتصارات واهية يقوم بها الذكر لإثبات ذكورية ناقصة، وذلك

بسبب تراجع الحالة النفسية والانتكاس إلى مرحلة الطفولة، حيث يتم إنعاش الإحساس القديم بذكورية ناقصة أمام الأب وعقدة الخصي الناتجة عن الثقافة الذكورية.

أكد لنا الأنتربولوجي برونيسلاف مالينوفسكي من خلال أبحاثه التي قام بها بعد دراسته لقبائل جزر "تروبريان" التابعة لنظام النسب للأم(*36)، أن عقدة "أوديب" هي ناتج اجتماعي وليس بيولوجي، حيث يتمتع أفراد قبائل هذه الجزر بحرية جنسية طبيعية وبتنظيم عال ولديهم القدرة على العمل من دون شكوى. لهذا نستطيع القول: إن عقدة أوديب وتشعباتها ناتجة عن مفهوم سلطوي للأب، والتي تتفرع منها سلطة رجال الدين والسياسة وفكرة القائد الواحد.

فكلما ازدادت السلطة الأبوية، تفاقمت معها الثقافة الذكورية واستبداديتها بفروعها الثلاث (الأسرة، المجتمع، الدين).

فإذا عدنا إلى مسألة اكتفاء الرغبات الجنسية، فسوف نجد أنه من الطبيعي أن تُختزل الأساسيات بمفهومها الأولي في عملية الإشباع. إلا أنها في مرحلة لاحقة، تبدأ عملية الانتقاء بشكل أوسع بحثاً منها للوصول إلى مشاعر فائقة من التلذذ والتي تحتاج إلى قدرة انسجام مع الذات من دون أية موانع، والذي يحتاج إلى عملية وعي أكبر يقوم بها الأفراد للتخلص من الشوائب الثقافية القمعية.

وهنا أود التنويه إلى ما قاله ريتش: "إن الدافع الجنسي ليس دافعاً يبحث عن اللذة، لأنه محرك اللذة الباحثة عن تحقيق اكتفائها". وقمعها هو تأجيج الصراع الداخلي لدى الفرد.

وجد فرينكزي أن تراجع اكتفاء بعض الرغبات الجنسية يتم تحت كم من الضغوطات الممارسة على الأفراد من قبل ثقافة المحيط، لتدفعهم إلى نبذ اللذة كي تصب في مفهوم الاستبقاء (أي الحفاظ على الطاقة الجنسية)، مما ينعكس وبشكل مباشر على عملية السيلان.

ومن هنا نستطيع تأكيد ما قاله ريتش على أن قمة النشوة تتلخص في القدرة على تدفق الطاقة البيولوجية المختزنة من دون رادع أو مانع أخلاقي، فذروة النشوة تكمن في تفريغ جميع المحتويات بشكل كامل، والموجودة في التهيجات الجنسية، ليساهم الانسجام والرغبة المتبادلة بين طرفين في الحصول على النشوة المبتغاة لكليهما.

أما في الحالات القامعة لرغبات الطاقة الجنسية، تسلك هذه الطاقة ممراً خاطئاً للتفريغ، ليؤدي إلى تراجع الفرد إلى المراحل السابقة بشكل لاواعي وغرقه في خيالات واسعة.

---

*35-يسمى بعلم البرمجة العصبية اللغوية ب anchoring وهي عملية آلية لاواعية تجمع ما بين ردة فعل داخلية مع محرض خارجي، وبفضل الذاكرة يسترجع الفرد الإحساس الذي عايشه في الماضي من خلال المحرض.

*36-استخدمت مفهوم نظام النسب للأم بدلا من النظام الأمومي، وذلك لعدم وجود أي اثبات انتربولوجي بوجود مجتمعات أمومية ذات سيادة انثوية قديما أو حديثا، فقد نبه معظم الانتربولوجيين لهذا اللغط المستخدم بين الأكثرية.

وكما شرحت الانتربولوجية فرانسواز ايريتير بوجود خلط واسع بين النظام الأمومي الدي هو بالأصل عبارة عن اسطورة ولا تمت بأية علاقة للتاريخ الواقعي وبين نظام النسب التابع للأم، أو بالأحرى الى عائلة نسب الأم، حيث يتمتع الرجال بكامل سلطتهم على جماعاتهم ويقوم الأخوال بتربية الأطفال بدلا من أبائهم، ليتم نقل الممتلكات والوظائف للأطفال عن طريق الخال.

القسم الثاني الحلقة 3 متلازمة الموت والحياة والأعضاء التناسلية الجزء الأول

لا بد لنا، ومن أجل فهم أكبر لمنابع الأساطير، الاطلاع على الأبحاث والدراسات الخاصة بالأنتربولوجيا النفسية. فقد توصل الكثير من اختصاصيي الأنتربولوجيا النفسية إلى ضرورة تشخيص الحالة الغريزية الجنسية عند الإنسان، لنعثر على العنصر الأساسي لجميع المعتقدات التي تركزت على الرغبات والأعضاء التناسلية.

لاحظ جيزا روهيم أن العلاقة الجنسية مثلت الفكرة اللاواعية المؤسسة للروحانيات، فهي المادة المركزة للروح. وحسب تفسيره لأساطير شتى، اتضح له وجود علاقة مترابطة ما بين النطاف والروح، فعملية قذف النطاف تهدد العضو الذكري بالموت، وهذا ما نراه واضحاً في كثير من الأساطير التي شكلت الأرضية الخصبة لمعتقدات بعض القبائل، والتي تسربت إلى الأفراد بشكل لاواعي من خلال الوعاء الثقافي. مما دفع الكثير من اختصاصيي علم النفس والأنتربولوجيا إلى التعمق في أساطير هذه القبائل بشكل أوسع وأعمق.

فقد رأت الأنتربولوجية فرانسواز ايريتيه أن ثنائية الأمور: الموت والحياة، البرد والحر، الأنثى والذكر، هي أساس الهيكلة الفكرية للإنسان. فمنذ فجر الإنسانية، ربط القدماء العلاقة بين الدم والحياة، ليدل ضياعه على الموت بينما يدل الحفاظ عليه على الحياة. وبما أن الأنثى تفقد بعضاً من دمها في كل دورة شهرية، فقد لصقت بها صفة البرد، لتكون صفة سلبية ترتبط بالأنثى والموت في آن واحد.

نلاحظ أن معظم الأساطير قد تشابهت بالرغم من بعدها الجغرافي، لتكون منابعها مرتكزة على أساس الخطيئة والعلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة، فنجد تشابه الأسطورة الأولى لقبيلة "ماوري" مع أسطورة سفر التكوين في الديانات الابراهيمية إلى حد ما، والمرتكزة في أسسها الأولى على العلاقة الجنسية والحية ومن ثم الخطيئة. ففي أسطورة قبيلة "ماوري" تتحول هيني- اتا- ويرا ابنة هيني- اهون" و"تاني" إلى "هيني- نوي-تي- بو" إلهة الليل والموت، ويعود ذلك لاكتشافها العلاقة الجنسية بينها وبين والدها.

تبدأ الأسطورة مع "رانجي- نوي" الأب السماوي و"بابا-توانوكو" الأم الأرض، وهم الأهل الأوائل لجميع الذكور الأولاد لقبيلة ماوري ، فكان "تان- ماهوتا" وهو أحد الأبناء قد طلب من أمه "بابا" أن تعلمه كيف تخلق الأنثى لمواساة وحدته، فيخلق امرأته بعد استخراجها من التراب الأحمر وينفخ فيها الحياة، وينجبا فيما بعد هيني- اتا- ويرا، لتصبح ابنته وامرأته لاحقاً. تبدأ التراجيديا عند اكتشاف "هيني- اتا- ويرا" علاقة الأبوة التي تربطها برجلها "تاني"، مما يؤدي إلى لجوئها للهرب إلى ما وراء الحياة وتتحول بذلك إلى هيني- نوي- تي- بو إلهة الموت. وفي ذات يوم، أراد البطل الأسطوري" ماوي" منح الأبدية لأفراد قبيلة "ماوري"،

ليقوم بالتسلل إلى داخل إلهة الموت "هيني- نوي- تي- بو"، فينتهز فرصة نومها، كي يدخل بين ساقيها بهدف الخروج من فمها والحصول على أبدية البشر، إلا أن "هيني- نوي- تي- بو" استيقظت حين ولوجه في داخلها، لتسحقه في مهبلها. نلاحظ هنا أن الموت أصاب "ماوي" عند تزاوجه مع سلفه "هيني- نوي- تي- بو"، ليفسر لنا روهيم هذه الرمزية التي تدل في معتقدات هذه القبائل على أن القضيب يمثل الحياة عند انتصابه بينما تدل عملية القذف على الموت. أما في سفر التكوين فقد اقترن الموت بفكرة العصيان وارتكاب خطيئة بشرية نتجت عن أكل فاكهة ممنوعة (لا ننسى أن النبات والحيوان يرمزان إلى الأعضاء والعملية الجنسية في كثير من المعتقدات)، أي أن الموت كان نتيجة لفعلٍ ممارسٍ ممنوع اقترفه الإنسان.

بعد الاطلاع على دراسات فيرينكزي(*37) لحالات الجماع عند الكائنات الحية توصل إلى أن حالة القذف عند الذكر مترافقة مع حالة الانفصال عن الجسد الأنثوي، والتي تعبر عن تكرار لعملية الولادة من جديد، لتعد من المحفزات الأولى للإنسان من أجل خلق جنته المفقودة. فالجنة تمثل في سفر التكوين الحالة التي سبقت طرد الإنسان منها والتي تعكس حالة مكوث الجنين في رحم أمه. بينما تعكس عملية الطرد منها عملية الانفصال عن الأم أي الولادة. ومن بين النقاط التي شرحها فيرينكزي عملية وضع النظام العضوي كاملاً تحت تصرف الأعضاء التناسلية، ليتماثل نظامنا العضوي مع العضو المنفذ، ويتحد "الأنا" مع العضو التناسلي ليصبحا واحداً أثناء الجماع. أما اوتو رانك فقد اعتبر أن عقدة (فقدان العضو) تعود إلى لحظات الولادة، أي لحظة انفصال الأم عن الطفل من ناحية (انتوجينيز) ، ليبني فيرينكزي فرضيته على أن مبدأ المجامعة على صعيد (انتوجينيز)(*38)، عبارة عن محاولة لتحرير الضغوطات المؤلمة الناتجة عن لحظة الولادة، مع اكتفاء الإثارة والعودة إلى المشاعر الدافئة لما قبل الولادة..

---

*37-كتاب الجنس في التحليل النفسي لـ"ساندور فيرينكزي".

*38-الأنتوجينيز عبارة عن دراسة الكائن الحي منذ بداية نشأته في الرحم.

القسم الثاني الحلقة 4 متلازمة الموت والحياة والأعضاء التناسلية - الجزء الثاني

عودة إلى أبحاث روهيم في مجال علم النفس الأنتربولوجي، فقد لاحظ وجود علاقة ما بين الموت والحياة وبين الأعضاء التناسلية. وتتميز هذه العلاقة بوضوح معالمها في كثير من الأساطير حيث وجد ترادف الروح للنطاف. وإذا قمنا بتسليط الضوء على بعض الدراسات العصبية التي أجراها فيرينكزي نجد أن "الأنا" يضع نفسه ليتطابق مع العضو الذكري والإفرازات الجنسية. فبما أن الفراق مع العضو الجنسي الآخر يذكرنا بلحظة الولادة والخوف من هذه اللحظة التي ترمز عند الذكر إلى انفصال عضوه عن جسده، والآتية من لحظة الولادة وانفصال الجنين عن أمه، نجد أن الذكر يستطيع تخيل العودة إلى الرحم من خلال العضو الأنثوي. ربما تفتح لنا هذه الدراسات الباب لفهم ارتباط مفهوم الروح بالذكر في معظم الثقافات القديمة حيث إنها قامت بإلغاء مبدأ الروح للأنثى والتركيز على ربط النطاف مع الروح لدى الذكر حكراً. ليعبر النطاف، بشكل أو بآخر، عن الأنا الثانية التي ترمز إلى حياة ما بعد الموت أي بمعنى آخر، تعد الأنا الثانية هي الروح. وهذا ما نراه في معتقدات "هوس" حيث يمتلك الإنسان روحين؛ روح للحياة وروح لما بعد الحياة، فتودع روح الموت الجثمان عند دفنه وتغادره إلى عالم آخر.

نلاحظ أن هذا المفهوم يوضح لنا عملية فصل الروح عن الجسد، والتي تتشابه كثيراً مع عملية التزاوج التي تنتهي بمغادرة النطاف العاكسة في الثقافات الذكورية خشية الطفل من أباه من قطع عضوه الذكري أو خصيه لرغبته الشديدة في أمه.

لم يقتصر تلازم الحياة والنطاف سوياً على جماعة معينة، إذ نجده واضحاً في نص من نصوص "ايتاريا اوبانيشاد"(*39) حيث يعتبر الـ "اتمان" (وتعني الذات أو الروح) محتوى النطاف. أما في معتقدات قبائل "مورهيد" و"واسي كوسا" في بابوا الغربية (إحدى مقاطعات أندونيسيا)، فإن عنصر الحياة اللامرئي والمحرك الرئيسي للإنسان مرتبط بفكرة دخول النطاف إلى الرحم من خلال المهبل لتكوين الجنين والذي يدعى بـ"بيرمبير"(هو النطاف ذاته)(*40)، ومسببه كائن يشبه "تومبابوير" يسكن المياه تمهيداً منه لتهيئة فرص الحمل للمرأة المتزوجة حيث يحصل الحمل عند المرأة عند وجوده في المياه معها، وذلك لا يتم إلا في حال ممارسة المرأة لفعل جنسي كي يسهل مرور الـ"بيرمبير".

أما بالنسبة لعلاقة الموت بالأنثى، فنجد ملامحها واضحة في ذات الأسطورة لقبيلة "ماوري"، عندما قالت "بابا" أم الأرض لـ "رانجي" الأب السماوي "سأسترجع جميع أحفادي وسلالتي في الموت". كما نجد في معتقدات "كارين"(*41) العلاقة المترابطة بين الأرض والأنثى وفقدان العضو الذكري في مفهومهم للأرض والسماء المقترنة بذكورية أفرادها حيث

يتطلب من أشباح موتاهم عبور جسر من سيف حاد يصل ما بين الأرض والسماء بهدف الوصول إلى قبورهم، فمن يستطيع اجتيازه يصبح رجلاً، ومن يعجز عن المرور فوقه حتى وصوله إلى السماء، يتساقط من عليه ويتحول إلى إمرأة على الأرض، وبمعنى آخر، نجد أن نساء القبيلة عبارة عن رجال مذنبين تم عقابهم بحرمانهم من العضو الذكوري. وهنا لا بد من الإشارة إلى وجود هذا الجسر في كثير من المعتقدات. ففي المعتقدات الإسلامية والتي تستمد ينابيعها من الديانات السابقة والأساطير القديمة، كما هو حال جميع الديانات، يعتبر "الصراط جسراً على جهنم في الطريق إلى الجنة ويرده كل بر وفاجر، فالأبرار يمرون عليه بسرعة ويصلون إلى النعم الإلهية، أما الفجار فتزل أقدامهم ويتردون في نار جهنم" وفي حديث آخر "ان على جهنم جسراً أدق من الشعر وأحد من السيف"، والإنسان العاجز على اجتياز هذا الجسر يحرم من النعم الإلهية القائمة على مبدأ الليبيدو الجنسي.

فإذا عدنا إلى تلك العلاقة الثنائية ما بين الموت والحياة وما بين الأعضاء التناسلية الذكرية والأنثوية، نجد على سبيل المثال عند بعض القبائل البولينيزية، تقاليد سحرية، كتلاوة بعض الأقوال السحرية مع وضع اليدين على الأعضاء التناسلية بهدف استبعاد أي شعوذة يمكنها التأثير على أفرادها، ليدل التاوهيتو عند "الماوري" على الاسم الديني للقضيب، فبفضله يتم درء مخاطر الشعوذة للاحتفاظ بالحياة(*42).

لهذا نجد أن الكثير من القبائل تمنع عملية التزاوج بين الذكر والأنثى في حالة الحرب واعتبارها حدثاً سلبياً يبشر بخسارة أمام العدو، كما نجد أن الكثير من الممارسات السحرية عند بعض قبائل الهنود الحمر تحاول استرجاع المني، اعتقاداً منهم بوجود روح الذكر في نطافه. ومن الواضح أنه تم ربط عملية القذف مع تلقي الأنثى له، ليتم ربط العضو التناسلي الأنثوي مع مفهوم الموت، والذي ساهم، ربما، في تكريس المفهوم القهري الذي يُمارس على النساء ليلقي على عاتقهن مسؤولية الشر والعذاب والذي نراه في كثير من الأساطير الدينية كمسؤولية حواء في تحريض آدم على ارتكاب المعصية.

نلاحظ أيضاً وجود عامل الألم في بعض المعتقدات المرتكزة على مبدأ العقاب والمكافأة من خلال الجنة والنار وقدرة الإنسان على تحمل الأوجاع في سبيل الحصول على أبدية الراحة، كما هو واضح في الديانة المسيحية. فعملية صلب المسيح لها بعد نفسي. فهي تشكل نواة المفهوم المسيحي لدى معتنقيه، والمرتكزة على مبدأ ضرورة قبول الواقع القاسي من أجل الحصول على المكافأة الكبرى وهي جنة الخلود.

ومما لا شك فيه أن سمات الجنة تختلف بين دين وآخر، فمنها ما اتسم بالراحة والهدوء، وربما للإشارة إلى حالة وجود الجنين في رحم أمه، عاكسة بذلك حالة العدم التي سبقت حالة التزاوج بين الأرض والسماء في كثير من الأساطير. ولتعكس الجنة في بعض الأديان الأخرى عن اكتفاء الرغبات المقموعة للفرد من قبل جماعته من خلال إعطائه جنة تداعب خيالاته لتهبه ما حرمته إياه على الأرض.

*39-"اوبانيشاد" والتي تعني حرفيا الجلوس عند أقدام المعلم لسماع تعاليمه. ترتبط نصوص "اوبانيشاد" ب"سروتي" والتي تعني حرفيا النص المسموع، أي انها تعبر عن قدرة الإدراك الحدسي في سماع الداخل. أما "ايتاريا اوبانيشاد" فهي نصوص هندوسية مقسمة الى ثلاثة فصول فيها 33 آية وتحوي أيضا على الفصل الرابع والخامس والسادس للكتاب الثاني من نسخة "ايتاريا ارانياكا".

*40-كتاب الروحانيات والسحر والملك الإله لجيزا روهيم، صفحة 46.

*41-كارين اوكارينغر، ،هم جماعة إثنية تنتمي الى التبيتو-بيرمان ويعيش قسما منهم في برمانيا والآحر في تايلاند.

*42-كتاب الروحانيات والسحر والملك الإله لجيزا روهيم تحت عنوان "لحظة الموت والروح".

القسم الثاني الحلقة 5 الطبيعة الازدواجية للأم عند الطفل-الجزء الأول

اعتبر دونالد وينيكوت أن حياة الإنسان تعتمد على عنصرين أساسين هما: الحب والكراهية، لينتج العنف عن أحديهما، كما يمكنه أن يكون ناتجاً عن عامل الخوف لديه. تبدأ هذه المشاعر بالنمو منذ الشهور الأولى للرضيع حيث يقوم بإثراء عالمه الداخلي من خلال إدخال الأشياء عليه(*43)، وطرح بعض الأشياء الداخلية(*44). ففي هذا العالم الداخلي للطفل تتداخل جميع القوى الهادمة والجيدة أو السيئة بكل ما لديها من كثافة، فتحاول القوى الهادمة الهيمنة على قوى الحب، مما يؤدي للجوء الإنسان إلى تبني حالة دفاعية من خلال طرح بعض الفانتازم(*45) إلى الخارج، ومن ثم يتمكن من القيام بدور الهادم للحصول على سلطة خارجية تستطيع السيطرة عليه من دون خنق دوافعه النفسية.

بطبيعة الأحوال، يجهل الطفل عملية تثمين الأغراض، فلا يدرك ما يمكنه هدمه أو تثمينه، ليؤكد لنا وينيكوت أن مشاعر العنف تعد جزءا من مشاعر الحب الموجه بدوره إلى الأم والموجه في ذات الوقت بطريقة خيالية ضد جسدها المنفصل ذاته(*46). ففي الأشهر الأولى للرضيع، تمثل الأم له غرضاً جزئياً فتنحصر بالأم- الثدي، ليلعب هذا التمثيل دوراً هاماً لحدوث عملية تمييز يبدأ الرضيع الفصل بين الجيد والسيئ، ليعبر الجيد عن حالة إعطاء الأم ثديها له والمرافق لشعور الاكتفاء، حسب اختصاصية علم التحليل النفسي للأطفال وأهم أعمدته "ميلاني كلاين"، أما السيئ فيتجلى عند سحب الثدي منه أو عند شعور الطفل بالحاجة إليه وعدم توفره أو حتى في حالة فرض الثدي على الطفل لإرضاعه، ليبدأ الرضيع، منذ أيامه الأولى، في بناء عالم داخلي يتناسب مع تجاربه الواقعية وانطباعاته التي يتلقاها من الخارج وممن يحيطه بشكل لاواعي، ليعدّلها حسب الدوافع والفانتازما الداخلية لديه.

تتأجج رغبة دفينة للإنتقام عند الأطفال، ليطرحها من خلال قصص أسطورية تتضمن عفاريت وأشباح، فتعكس بذلك رغبات الطفل الداخلية ومشاعره تجاه أمه والخاضعة إلى جملة مشاعر متناقضة وجملة من الأحاسيس بالذنب، فتنقسم العملية النفسية إلى قسمين تتراوح ما بين الخير والشر، الجنة والنار، وبالطبع ما بين الإله والشيطان، فلا يمكن لوجود إله من غير وجود نقيضه.

وحسب روهيم، فقد مهدت هذه المشاعر والرغبات والمبادئ المتناقضة ظهور سلسلة من الأفكار والفانتازما اللاواعية التي تعزز من خلال النموذج الثقافي والصور الجماعية المحيطة.
ولاحظت كلاين أن الميول السادية تتوجه ومنذ الأشهر الأولى من حياة الطفل نحو ثدي الأم،

ولا تقتصر عليه فقط بل يقوم الطفل بإفراغ هذه الميول داخل جسد الأم، فيشتهي إفراغه والتهام كل ما يحتويه.

يخضع نمو الطفل إلى آليتي الاستدماج(*47) والإسقاط. ففي الاستدماج يتم كل ما هو جيد بالنسبة للطفل، وبما أن الثدي يعبر عن الجيد والسيئ في آن واحد، فهو بذلك يريد استدماجه واستدخاله عند حصوله عليه. وفي ذات الوقت يصب الطفل جام غضبه على ثدي أمه عند شعوره بالحاجة إليه، لينتج عنه شعور بالإحباط لعدم تحقيق رغبته، لا بل أكثر من ذلك، يولد لديه شعور ممتلئ بالخشية منه، ليعده خطراً على كيانه.

تحت ثقل هذه المشاعر، يجتاز الطفل حالات من الأرق، فينتج عنها آلية للدفاع عن النفس من خلال إنكار حقائق نفسية بشكل لاواعي(*48)، كما يستعين "الأنا" لحماية نفسه من كل ما تم استبطانه عن طريق عملية الطرد والإسقاط. وفي حال العجز عن إطفائها من خلال هاتين الآليتين، يلجأ "الأنا" للتصدي من خلال استخدام ذات القوى التي يستخدمها ضد الخارج، لتشكل هذه المحتويات من أرقٍ وآليات دفاع أساس البارانويا، ليتبين لـ "كلاين" أن الخوف الطفولي من الشياطين والسحرة... خضع إلى عملية إسقاط وتعديل.

وعلينا ألا ننسى استحالة أن تتمكن أم من اكتفاء طفلها بشكل كامل وفي كل اللحظات، لينتج عن هذه الحالة شعورٌ بالعدوانية تجاهها.

من هنا جاءت تحاليل روهيم مكملة لفرويد الذي وضع الأساس الأول للتحليل النفسي عندما اعتبر أن حياة الفرد مقترنة بطفولته وبمحيطه وبجميع الصور الخارجية المشروطة، إلا أن الطفل لا يخضع لها بطريقة سلبية، ليقوم بتحريفها...

---

*43- وتدعى ب *Taking in*

*44-وتلقب ب *Giving out*

45-مشروحة سابقاً.

46-طرح "وينيكوت" مفهوم Self والذي ترجمته بالذات والجامع ل"الأنا" وال"هو" وجزء من "الأنا الأعلى"، ويعتبر الجزء الأكثر ابداعاً في شخصية الفرد، فهو الذي يتخيل ويلعب ويؤسس للرمز كي يمنح الفرد الشعور بالوجود. تعكس الذات الحقيقية ثقة الفرد بذاته وبمحيطه، ليكون ذاتاً منسجماً مع هويته وخصوصيته.

47-الاستدماج يعني تماثل الشخص مع شخص آخر واعتباره جزءا منه، وهي ترجمة لكلمة Introjection

48-يطلق عليها في علم النفس ب Scotomisation وهي آلية دفاع يستخدمها العصابي لنفي وجود وقائع مر بها ولم يطيقها.

القسم الثاني الحلقة 6 الطبيعة الازدواجية للأم عند الطفل - الجزء الثاني

وبإلقاء نظرة على بعض الأساطير المحكية، نجد ذات العناصر الداخلية المستبطنة لدى الطفل. فقد بين لنا روهيم تمثيل الغول في الفلكلور الأسترالي للأهل.

فعلى سبيل المثال، نجد الصورة المزدوجة للأم - الآلهة "كالي" المتعطشة لشرب دماء أطفالها في إحدى الأساطير الهندوسية. وفي ذات الوقت نجدها تحت اسم وصفة أخرى، فهي "ديفي" الجميلة والخيرة (* 49) المعبودة من قبل توابعها. أما في صحراء أستراليا الوسطى، فقد وجد روهيم آثار عادات قديمة حيث أكد له دليله من قبيلة "بيتجانتارا" تقاسم التهام بعض الرضع من قبل أمهاتهم وأخوتهم أو أخواتهن من دون مشاركة الأب الذي يشارك فقط في عملية قتله، فيؤكد لنا مشاهدته لأمهات رقيقات وحنونات، يرضعن أطفالهن حتى العام الثالث أو الرابع من عمرهم, وبذات الوقت يقمن بالتهام طفل من كل طفلين، ليكون التالي أشد قوة,،فيكتسبن بذلك حنانا وعناية شديدة من الأم (* 50). نلاحظ أن عملية التهام الأم لبعض من أطفالها تذكرنا ببعض أنواع الحيوانات التي تنتقي أطفالها، فتقوم بأكلهم بهدف استعادة قوتها بعد الولادة، فتأكل الضعيف الذي يفتقد إلى درجة قوة معينة للاستمرار في الحياة، كما تفعل، على سبيل المثال، الأم القارض عندما تبدأ بأكل الحبل السري حتى سرة صغيرها، لتلتهمه فيما بعد في حال عدم تفاعله مع بدء العض له، وبهذا الشكل تقوم بتصفية الضعفاء واستعادة قوتها في آن واحد.

اعتبر جيزا روهيم أن هذه العادات تمثل المؤسسة القبلية المرتبطة بمعتقداتها التي تتميز بتنوع الجانب الخارجي للأرواح والشياطين الملقبة ب "مامو"، فلديهم أسنان طويلة تساعدهم على اختراق الجسد والتهام الأمعاء. وينقل لنا روهيم على لسان دليله من قبيلة "بيتجينتارا" كيف حلمت "تانكاي" امرأة "بوكوتي - وارا" بممارسة الجنس مع أخيها "تجيميلكورا"، ليظهر له في حلمه، بعد ليلتين، اثنين من عناصر ال "مامو" بذراعيهما الطويلان وآذانهما الكبيرة، فيهاجمونه ويقتلونه ومن ثم يقومون بتمزيق قلبه وكليتيه وكبده لأكلها.

نجد أن لهذه الوحوش الذكرية نظيرها لدى الإناث، فهناك شياطين أنثوية آكلة للحوم البشر، والمعاقبة للذكور كالعفريت الأنثوي "كنارينتيا" التي تأتي إلى الذكور ليلاً، فتجلس على عضوهم الذكوري، فتسممه بواسطة مهبلها المليئ بمواد سحرية قاتلة تستطيع قتل

الرجال لتكون مهمة الأرواح الأنثوية محاكمة الرجال من خلال عقوبتي الاغتصاب والخصي.

يستهل روهيم القسم الأول من كتابه ليقارب بين هذه العفاريت البدائية الممثلة للعقاب والأساطير ورغبة الطفل الدفينة في اختراق جسد أمه، فيجد أن هذه العفاريت ما هي إلا تمثيلاً للطفل الراغب في تحقيق دوافعه واكتفاء الفانتازما لديه والممزوجة بحالة القلق الناتجة عن مشاعر التعلق والحب لأمه، لينشأ عن هذه المشاعر المتضاربة شعور يحتم ضرورة تطبيق العقاب.

إذن، هذه المخلوقات الأسطورية ما هي إلا إسقاطات طفولية لحالات نفسية نشأت عن التقدم (الأنتوجيني) جراء مواجهة بين التجربة الداخلية والمحيط البيئي - الاجتماعي - الثقافي، لتندمج التجربتين: الداخلية والخارجية سوياً.

مما لا شك فيه، تعد التجربة من أهم الركائز للخوض في استكشاف المجهول، فهي التي تحرض على معرفة الأسباب التي أدت إلى ظهور نتائج معينة, لكنها تختلف حسب المعرفة العلمية والفكرية للإنسان. فالإنسان ذو المعرفة الضئيلة أو القابع تحت سلطة الممنوعات، يعجز عن الملاحظة والتدقيق في العناصر الخارجية، ليقوم بإخضاعها إلى حقله الداخلي المليئ بالرغبات والدوافع والمشاعر المتضاربة فيما بينها، فيختلط عليه الحال ويصبح فريسة سهلة لهلوساته، لينشأ عنها آلية دفاع نفسية تقوم بعملية إسقاطات للخارج.

49-كتاب ذعر الآلهة لجيزا روهيم، حيث لاحظ أن بعض المجتمعات تستخدم وبطريقة إرادية حالة القلق لدى الطفل كوسيلة لكبح رغباته وتطبيق الممنوعات الثقافية أو الدينية عليه. فقذ لاحظ روهيم وجود علاقة كبيرة بين التربية والثقافة الجمعية والممنوعات الممارسة عليه، ليكون لها أثرها في خلق الروايات والقصص الحيالية. فالإنسان الخاضع لممنوعات شتى بطريقة إرغامية والتي تم تجريدها من عملية الفهم والإدراك والاختيار، يعجز عن إدارة تفكيره بشكل سليم والمصالحة مع جميع تناقضاته النفسية.

50-كان لأعمال جيزا روهيم أثر صادم على الجميع وخصوصاً بعد شهاداته عن القبائل الاسترالية والتهامها لذريتها. فيقول "يبقى الطفل في خطر التعرض للأكل من قبل والديه حتى لحظة تسميته، فالاسم يحمي الطفل من والديه ويزيل عنه خطر التهامهما له، فهو الذي يربطه بعبادات أسلافه". كما يؤكد في كتابه التحليل النفسي والانتربولوجيا أن "أفراد قبائل جانكيتيجي واولوين والدينجا مارست آكل بعض أخواتها واخوتها، فقد كان أكل لحوم الجنس الواحد منتشراً لدى مجتمعات الغرب أوسطية وفي غرب حدود استراليا الوسطى".

القسم الثاني الحلقة 7 زنمردة الإله الخالق*51 - الجزء الأول

لاحظ العديد من اختصاصيي علم النفس الأنتربولوجي وجود عنصر أولي خالق للأرض والسماء أو الطبقات العليا التي ترمز في غالبية الأساطير إلى الذكورة، بينما ترمز الأرض إلى الأنثى والخصوبة(*52) فنلاحظ في معظم أساطير الكوسموجوني الإنسانية وجود عنصر الخالق الأولي الذي نشأ من خلاله السماء والأرض أولاً، ومن ثم الريح والمياه...الخ. كما هو الحال عند الأغريق، فـ"الكاوس"(*53) هو العنصر الأولي خالق "جايا" آلهة الأرض والتي من خلالها خُلق "اورانوس" إله الغلاف الجوي المحيط بـ "جايا"، ليتكرر هذا المفهوم عند الصينين في "اليانغ والين" الناشئين هما أيضاً عن مفهوم يشبه "الكاوس" حيث نجد من بين نصوص "داو- دو- جينغ"(*54) هذه العبارة التي تقول: "قبل أي زمن وقبل كل الأزمان، وجد هناك شيء أبدي كامل منتشر في كل مكان، خُلق من ذاته، فلا يمكننا منحه أي اسم أو تحديده، فهو غير المحدد والمعرف".

تشابهت نشأة الكون عند المصريين القدامى مع الكوسموجي الأخرى، بالرغم من حدوث بعض الاختلاف بينهم، فإلهة السماء المصرية أنثى، ليكون بذلك إله الأرض ذكراً، وهما أولاد الإله "شو"، إله الهواء والحياة، وإلهة الرطوبة "تفنوت" اللذان ولدا من بذرة "اتوم" الخالق الأول غير المخلوق(*55) كما هو الحال في معظم الأساطير.

وبنظرة سريعة على نشأة الخلق حسب المفهوم الهندوسي نجدها بدأت على شكل بيضة (بيضة براهما)، لينقسم النصف الأعلى منها إلى سبعة أقسام، فشكلت بذلك التريلوكا، وتعني العوالم الثلاث، وتنقسم بدورها إلى ثلاثة أقسام (الأرض والهواء والسماء) لتسكنها الآلهة. أما القسم الأسفل للبيضة والممتد على سبعة مناطق جهنمية تدعى "باتالا" ويسكنها الشيطان والأفاعي. وشبيهاً لباقي الأساطير المحتوية على عنصر الخالق الأول، نلاحظ أن الهندوسية مؤسسة على فكرة الروح الكونية المتمثلة بـ "براهما" الأبدي وغير المخلوق. وتتوزع الهندوسية على أكثر من مدرسة، فمنها الشيفية التي تؤمن بثلاثية أبعاد الإله الواحد، والممثلة بالآلهة الثلاث الأولى "براهما" وهو الخالق ويرمز إلى الماضي؛ أما "فيشنو" والذي يرمز إلى الحاضر والمحافظ عليه، ليمثل "شيفا" المستقبل، فهو الهادم والمحول، وهؤلاء الثلاثة هم أسياد العالم حسب هاريفامسا(*56).

سأركز هنا على الإله "شيفا" والذي يعد الإله الأعلى، حسب المدرسة الشيفية، والمتقمص لثلاثة آلهة بآن واحد، فمن أهم صفاته نلاحظ تلك المتناقضة فيما بينها، فهو خير من خلال "براهما" وهادم وبنّاء من خلال ذاته، فهو يهدم بهدف بناء عالم أفضل، ليساهم في بناء العالم عندما يفتح عيونه، ويقوم بهدمه عند غلقها، كما أنه الإله الذي يملك 1008 اسم من أسمائه

الحسنى. يمثل "شيفا" ثنائية متناقضة، فهو الموت والحياة الأبدية، كما يمتلك صفات الأنثى والذكر في شكله "اردناريشفارا"، فلديه الجانب الزنمردي كالكثير من الآلهة الجامعة لثنائية الصفات، كـ "نون" أو "اتون" الإله الأول عند المصريين.

إن مفهوم "الزنمرد" هو مفهوم تكاملي لا يقتصر فقط على جمع الشكل الأنثوي والذكوري تحت غطائه، فهو منبع الصفات والخصائص التي يتمتع بها الذكر والأنثى والموجودة في جميع الأنواع المختلفة، ليكون الجامع بين التناقضات النفسية التي يعيشها الإنسان حيث يخضع لتمثيلاتها العقلية بشكل واع أو لاواع. فنجد أن الإله الخالق يعكس حالة كمالية متكاملة ومتداخلة بكل أنواعها وأشكالها، فهو الخيال والهلوسات والرغبات وحالات القلق والخوف...الخ، كما يرتكز مفهوم الإله الأولي على أساس المعرفة والإدراك المطلق، فهو حالة إدراكية كاملة للداخل النفسي والخارج الواقعي، ليكون نقطة البداية والنهاية للحياة والموت، ولتكون البداية كما نعلم متمثلة بانشطاره إلى شقين؛ أنثى وذكر، فيكتسب كل منهما صفات ثنائية مختلفة، حيث لا يمكنهما التوحد إلا لفترات قليلة، ويتم ذلك بواسطة العملية الجنسية التي من خلالها تبدأ دورة الحياة والموت المتجددتان.

في حكاية قرأها هيربرت سيلبرر(*57) وأخضعها للتحليل، وجد أنه من الضروري تسليط الضوء على بعض النقاط الرئيسية الموجودة في الخيمياء قديماً، وذلك لإخضاع محتويات هذه الحكاية للتحليل النفسي. فقد باشر بتوضيح الخطوط العريضة بهدف ترتيب شكل الحكاية، والتناسب بين خصوصية محتوياتها مع طريقة التفكير آنذاك. ففي المقام الأول(*58)، وجد أن الفكرة المركزية للتفاعل بين شيئين متمركزة حول ثنائيتها، كالمرأة والرجل، الشمس والقمر، الكبريت والزئبق، ليلقب هذا التفاعل في القديم وبشكل مجازي "الملاقحة" حيث ينصهر الإثنان في رمز واحد، والناشئة على ما يبدو من أفكار مماثلة محددة من مبدأ الجنس، فالنشاط الذكوري مستمد من الذهب، بينما يستمد النشاط الأنثوي من الفضة، ليتم اتحادهما وانصهارهما كما ينصهر الزئبق والكبريت.

واستناداً إلى ما قاله مورينوس(*59) "تشبه حجرتنا عملية الخلق الأولى، فأول الخطوات هو الاتحاد، ومن ثم التعفن (تعفن البذرة)، ليليها الحمل والتغذية لاحقاً". فجميع المكونات آتية من جذر واحد...

**51-استخدم أبو نواس كلمة فارسية للتعريف عن ثنائية الخصائص الأنثوية والذكورية "زنمردة" وتعني "زن" المرأة، بينما يعني "مرد" الرجل. ويقابل هذا المصطلح بالعربي كلمة "الخنثى"، إلا أن هذا التعبير لا يتسم بالدقة في المعنى. تقابل هذه الكلمة باليوناني "اندروجونيوس".*

**52-هناك بعض الحالات المختلفة عنها، كما هو الحال عند المصريين القدامى حيث نجد أن السماء يرمز الى الأنثى، ف"نوت" هي آلهة السماء وزوجة إله الأرض "جب"، ويعكس هذا الشيء حسب اعتقادي مكانة المرأة وماتمثله من حضور في الثقافة الجماعية. وبالرغم من هذا الاختلاف، فاننا نلاحظ وجود عناصر متشابهة بين نشأة*

الكون عند المصريين وبين الأساطير الأخرى والتي تعكس دلالات نفسية.
*53-ال"كاوس" وتعني بالعربية الفوضى أو الفجوة أو الظلام، وحسب اعتقادي أجد أن مصطلح العدم هو الأكثر تناسباً مع هذه الكلمة، خصوصاً عندما نتكلم عن نشأة الكون. فالكاوس هو بداية الوجود من لاشيء، ليكون في أصله اللاوجود، فيتحول بذلك الى أساس الوجود لحظة خلقه عناصر الحياة والموت معاً.
*54-كتب هذا العمل مؤسس الطاوية الصيني "لاوتز".
*55-تشير بعض الكتابات إلى وجود "نون" أو "نوو" إله المحيطات الأولية (أي المياه) والملاحظ أن "نون" و"اتون" لهما ذات القدرة في ذاتية التولد، كما يملك "اتون" ذات الخصائص الأنثوية والذكرية التي يتميز بها "نون".
*56-هاريفامسا وهو عمل يحتوي على 16375 بيت شعر.
*57-هذه الحكاية موجودة في الطبعة الثانية لكتاب Geheim Figuren Der Rosen-Kreuzer aus dem 16ten und 17ten Jahrhundert والمنشور عام 1785-1790 لدى Altona. محتويات هذا الكتاب الرئيسية تعطي لوحات واسعة لتمثيلات صورية والمرافقة لنصوص عديدة.
*58-كتاب "مشاكل الغموضية ورمزيتها" لهربيرت سيلبرر.
*59-يقال إن خالد ابن اليزيد طلب من الراهب موريينس تلميذ الخيميائي الاغريقي ايتين دالكسنادريا عام 620 ترجمة بعض النصوص اليونانية والقبطية إلى اللغة العربية.

القسم الثاني الحلقة 8 زنمردة الإله الخالق - الجزء الثاني

نلاحظ أن الإنسان ومنذ بدء عملية إدراكه أعطى لجميع المكونات مصدراً واحداً، فأصل الخليقة لدى الإنسان هو الخالق غير المخلوق، فمهما اختلفت وتنوعت أسماء الآلهة أو جنسها، فالإله الأول اتصف بـ"زنمردة" الأعضاء والصفات، والقائم على العملية الجنسية المؤدية إلى التكاثر بين الأنثى والذكر. وحسب الشاعر الاغريقي "هزيود" وروايته لأسطورة "افروديت" حيث إنها خُلقت من الرغوة البيضاء الخارجة من العضو الذكري لـ "اورانوس" بعد قيام ابنه "كرونوس" بخصيه. ليعتقد أن "افروديت" إلهة الحب هي أنثى وذكر في آن واحد(*60)، فقد لقبها "اريستوفان" "افروديسيون" وتعني الحيادية(*61)، كما أعاد "هاريس" "افروديت" إلى أسطورة نبات اليبروج الطبي حيث كانت النساء تحمل جذر هذا النبات على جلدها من أجل الحصول على جاذبية لا تقاوم.

وبنظرة سريعة إلى هذا النبات حيث تظهر ميزاته في نصوص "هوميروس"، حيث كان يستخدم في الممارسات السحرية ليقوم بتحويل من يحمله إلى ساحرة.

ونجد آثار هذا النبات وميزاته في مقطع نص عندما تطلب "هيرا" من "افروديت" منحها إياه كي تستخدمه على "زيوس" ليكون سحرها عليه ذو فاعلية أكبر.

وفي النص ذاته، تتحسس "افروديت" صدرها لتخرج منه شريطاً مطرزاً(*62). من وجهة نظر "روهيم"، يجد أن أصل هذا السحر يعود إلى النبات وإلى نبات اليبروج الطبي بالتحديد. وأود التنبيه إلى وجود نصوص أخرى تشرح عملية إخراج "افروديت" لهذا النبات من صدرها. أما في العصور الوسطى حيث كان يمارس السحر، نلاحظ وجود نبات اليبروج لإتمام بعض الممارسات السحرية حيث كانوا يقوموا باستخراج جذره بعد ارتوائه من نطاف مقذوف للص تم شنقه وعلق في أعلى المشنقة، ومن أجل إضافة فاعلية كبرى للسحر، يتوجب أن يكون الذكر المشنوق عذري(*63)، وذلك اعتقاداً منهم أن لهذا أثر على جذر نبات اليبروج المستخرج من باطن الأرض والشبيه لطفل.

قارن روهيم بين عملية خلق "افروديت" التي تشكلت من الرغوة البيضاء للقضيب بعد قطعه، وبين عملية استخراج هذه النبتة من النطاف المقذوف لذكر مشنوق من أجل استخدامها بشكل سحري، فقد وجد علاقة بين القيمة القضيبية ورمزية تشابه هذا النبات مع الطفل، ليستنتج أن نبات المرأة التي تحمل اليبروج الطبي هي امرأة ذات قضيب والسحر الذي تحمله تحت حزامها ما هو إلا قضيب خيالي له علاقة برمزية الحية التي وجدت في أساطير كثيرة.

وبالعودة إلى الصفات الجنسية وعلاقتها بعملية تتمة الخلق الناشئة عن أنثى ورجل، نلاحظ أن صفة "اللاجنسية" في بعض الأساطير الدينية ارتبطت بصفة الطيبة والتسامح، فنجد لدى سكان "ارنهيم" في أستراليا، كيف منحت أخوات "دنجانغاوول" الناطقات باسم الأرواح هذه الصفة وذلك لطبيعتهن اللاجنسية، فكن يتمتعن بسلطة لا محدودة، فهن من خلقن البشرية. وبالمقابل، نجد أن قبيلة "بيتجانتارا" تقوم بإضافة صفات الجودة والخير لكائناتها السماوية الخالية من طبيعتها الجنسية، بينما تمنح شياطينها وعفاريتها "قضيبية السمات والخصائص" صفة الشر. أما في الديانة المسيحية، نجد أن أبرز صفات المسيح هي لاجنسيته التي تجسد مفاهيم المحبة والتسامح. دعونا نلقي الضوء على هذه النقطة بشكل علمي، لنعثر على تفسير يربط هذا المفهوم بطبيعة الثقافة الجماعية والبيئة المؤثرة على الإنسان، وتوجهه في بعض الأساطير والأديان إلى ربط العملية الجنسية بقيمة ما. فحسب دراسة لاختصاصي النفس جيد بلاند(*64) تبين لنا مسؤولية التوستيرون عن السلوك العدواني عند الذكور. فالهرمونات وبالأخص التوستيرون يلعب دور المنظم والموضب للسلوكيات أثناء النمو. كما بينت لنا الدراسات ان زيادة نسبة التوستيرون عند الذكور عالية عند مقترفي الجريمة العنيفة عما هي عليه لدى الآخرين، ولاحظت هذه الدراسات أثر المحيط على ارتفاع نسبة التوستيرون والمرتبطة بنمط حياة معين. وفي دراسات أخرى نلاحظ أن عملية الخصي لدى بعض الأنواع الحية لها تأثير على انخفاض درجة العنف لديهم.

---

*60-وجد تمثال لجسد ملتحي مع قضيب وأعضاء رجولية وعليه ثوب أنثوي ل"افروديت" في قبرص.

*61-حسب النصوص الواردة ل"رندل هاريس" والمأخوذة عن الكاتب والفيلسوف اليوناني "ماكروب".

*62-كتاب ذعر الآلهة لجيزا روهيم، قسم "افروديت، أو المرأة ذات القضيب".

*63-استخدمت هذه الكلمة بتصرف، فالعذرية هي عدم ممارسة الجنس لأي الطرفين، بينما نجد أن هذه الكلمة ارتبطت في اللغة العربية بالغشاء والذي يدعى علمياً "هايمن"، لتحتكر هذه المجتمعات مفهوم العذرية على المرأة فقط، مما يدل على الثقافة الذكورية المفرطة لهذه المجتمعات.

*64-دراسة نفذها جيد بلاند عام ١٩٩٨-٢٠٠٤ تحت عنوان "تستوستيرون والعدوانية".

القسم الثاني الحلقة 9 رمزية النبات والحيوان- الجزء الأول

بعد رؤية عدد من الرسوم المنقوشة الممثلة لطواطم نباتات وحيوانات في أغلبيتها، والعاكسة لطبيعة المشاعر الدينية عند الإنسان، وجد ايميل دوركهيم ضرورة التعامل مع هذه الرسوم على أساس المبدأ الديني، فهي تحمل في طياتها مبدأ المقدس للطوطم الممنوع استهلاكه، والمدنس لما يسمح للعشائر استهلاكه بشكل يومي.

نلاحظ أن كثير من الأساطير بنيت على أساس نموذج واحد قائم على أساس انتهاك المحرم، مما دفع العديد من اختصاصيي علم النفس الانتربولوجي الخوض فيها لفك لغز المحرم والعثور على عناصره المختبئة تحت رموز عديدة. وبجولة حول ما قدمه روهيم من محاولات لحل هذه الرمزية، من خلال دراسته لعدد من أساطير السكان الأصليين لجزر "اندمانيز"، نجد أنه قد عثر على الخط الأساسي الجامع لها جميعاً والمتلخصة بتحريم أكل النبات الخاص للإله "بولوجا" (كنبات اليام) وقتل حشرة الزيز.

قبل التعمق في هاتين المخالفتين الأساسيتين، أود التطرق إلى التقارير الأثنوغرافية(*65) لـ "مان" والصورة المنقولة لـ "بولوجا" إله "الاندامانيز"، لنعثر على تشابه بين الإله "بولوجا" وبين الكثير من آلهة الأساطير الدينية، فهو كغيره من الآلهة التي لم تولد ولا تموت. فبالرغم من مظهره المشابه للنار إلا أنه يحتفظ بالصفة غير المرئية، فهو من خلق هذا العالم والحي والجماد، باستثناء القوة الشريرة، كما يتميز بالحضور في كل مكان ويتمتع بقدرة على قراءة جميع الأفكار الهاربة في أعماق الإنسان. وعلينا أن ننوه إلى أن ما يثير غضبه هو انتهاك ما حُرّم على الإنسان فعله، فهو المحاسب النهائي لكل روح إنسانية تنتقل إليه بعد الموت. أحببت أن أعرض قليلاً من صفات هذا الإله، ليقوم القارئ من تلقاء ذاته بعملية مقارنة بسيطة بين إله سكان "اندامانيز" وغيره من آلهة أخرى، كالإله الابراهيمي مثلاً.

عودة إلى المحرمات الأولى في أساطير هذه القبائل وإلى ما توصل إليه التحليل النفسي الذي أكد وجود علاقة بين هذه التابوهات وبين الممنوعات للعلاقات الجنسية بين أفراد العائلة الواحدة، لتكون الوصيتين الأساسيتين هما: لا تقتل طوطمك، ولا تتزوج امرأة عشيرتك. وتعني هاتان الوصيتان بشكل آخر حسب التحليل النفسي؛ لا تقتل أباك ولا تتزوج أمك(*66)، والتي تلخص لنا رغبتي الابن الدفينة عند مروره بمراحل النمو وتكوين "أنا" منفصل والذي لا يتحقق إلا بعد انتصاره على السلطة العليا المتمثلة بالأب لدى المجتمعات الأبوية.

لاحظ سالامون رينا أن هناك الكثير من التابوهات الواحدة المشتركة بين جميع الجماعات

كتحريم قتل أي فرد من ذات الدم الواحد، وعدم ممارسة الجنس مع امرأة من ذات الدم الواحد. فوجد أن هذين الممنوعين يرتكزان على أساس احترام حياة سلالة الدم الواحد، ونبذ ممارسة الجنس بين أفراد العائلة الواحدة. أي أنه يمكننا القول: إن منع العلاقات الجنسية بين أفراد العائلة الواحدة أتت كنتيجة لازدياد الوعي عند الإنسان وقدرته على التنظيم الاجتماعي بشكل أفضل، لينظر فيما بعد إلى هذه الممارسات كخطيئة أساسية في سلوك الإنسان.

اتفق الكثير من الأنتربولوجيين واختصاصيي التحليل النفسي على أن طوطم النبات وتحريمه يرمز إلى العلاقة الجنسية المحرمة، فكل نوع نباتي يرمز إلى فعل جنسي، وهذا ما نلمسه بوضوح في المعتقدات الشعبية لبعض الشعوب، كنبات الشبت لدى الروس والمتميز بفعالية جيدة لإثارة الجنس وذلك لاستخدامه من قبل نساء عديدات في محاولة منهن لإغواء "راسبوتين"، ومثله دخل الريحان أو الحبق كمادة أساسية للتعويذات السحرية لسكان الهايتي، وذلك لاقترانه بآلهة الحب "ايرزويل".

مما لا شك فيه أن استخدام النبات لإثارة الجنس عند الطرف الآخر مرتبط بشكل أساسي بالأساطير القديمة للمجتمعات الناشئة وممنوعاتها.

واستناداً إلى ما أكدته الأنتربولوجية واختصاصية التحليل النفسي اليس بالينت، فإن الطفل يقسم الأشياء إلى اثنين، الأول وهم الأغراض التابعة له والتي يملكها، أما الثاني فهو كل الممنوعات التي لا يمكنه لمسها لأنها تخص الأب، لينظر الطفل إلى أمه على أنها خاصة أبيه، فلا يحق له الاستيلاء عليها.
ووجد روهيم أن النبات المحرم يرمز إلى امرأة الإله "بولوجا". إضافة إلى ذلك، ومما يزيد من احتمالية صحة تحليله، هي تلك النصوص التي عثر عليها والمؤكدة للطبيعة المختلفة لامرأة "بولوجا"، لتكون هي ذاتها طائر اليمام أو حشرة الزيز...

65-الاثنوغرافي هو علم الإنسان التطبيقي والمرتكز على الأبحاث الانتربولوجية، ليقدم التفاسير والتحليلات للعادات والتفاليد... للمجتمعات

66-كتاب ذعر الآلهة لجيزا روهيم صفحة 49

القسم الثاني الحلقة 10 رمزية النبات والحيوان -الجزء الثاني

نرى أن قبائل "سيمانج" كانت واعية لتلك العلاقات الجنسية بين الأخ والأخت أو بين الأهل والأولاد التي تثير غضب إلههم، لذلك لم يلجأووا إلى استخدام بعض الرموز للدلالة عليها. بينما نجد أن قبائل "اندامانيز" المجاورة لهم قامت بإخفاء معالمها، ليستخدموا الدلالات الرمزية، وبذلك تم تبديل تحريم العلاقات الجنسية بين العائلة الواحدة بتحريم أكل نبات معين، ليكون المحرم الذي منعه "بولوغا" عنهم هو أكل النبات الخاص به وقتل حشرة الزيز، والتي رأينا أنها ترمز إلى امرأته، أي نستطيع القول: إنها طريقة غير مباشرة هدفها منع أية علاقة جنسية مع الأم.

وكما رأينا في عرض اوتو رانك لمجموعة من أساطير وحكايات شعبية تهدف إلى تفكيك لغز ولادة البطل الأسطوري وعلاقة إرضاعه من قبل حيوان أنثوي لتحاكي صورة الأم المرضعة لدى الطفل. وحسب ما قدمه رانك من تحليل، نرى أن الأم خضعت لعملية انشطار، كتلك التي خضع لها الأب أيضاً، فمن بين الأسباب التي تدعو الطفل إلى اللجوء لخفض مكانة الأم إلى حيوان، هي حاجته في طرح مشاعره المتناقضة تجاهها، وتبريراً أيضاً لمشاعر الجحود التي تختلجه بشأنها، والتي تهدف للحصول على استقلالية تامة للابن. عدا عن ذلك، فإن الحيوان البديل للأم يتيح للطفل فهم العملية الجنسية التي يحاول أهله اخفاءها عنه*(67).

نلاحظ في أساطير الكوسموجوني وجود تلك العلاقة ما بين الأرض والسماء والشمس... وبين جنسي الأنثى والذكر، وبعد الإطلاع على بعض أساطير القبائل الهندية والأسترالية التي تبين لنا أيضاً العلاقة المترابطة ما بين النبات والحيوان وبين الأعضاء الجنسية للذكر والأنثى، فعلى سبيل المثال، نجد أن حيوان السحلية أحد الطواطم الجنسية الرئيسية للميثولوجيا الأسترالية. وأوضح روهيم في كتبه علاقة الطوطم الجنسي بالليبيدو ليأخذ الطوطم دور تمثيله. وبهذه الحالة يمكننا القول: إن السحلية قامت بتمثيل العضوالذكري في هذه الأساطير، كما يمثل السلطعون أو العنكبوت أو اليام أو حشرة الزيز العضو الجنسي الأنثوي. لنجد أنه في إحدى النسخ المعدلة للأسطورة الواحدة والراوية عن كيفية خلق "تومو" الإنسان الأول العالم، فيخلق في البدء "بوشي" القمر ليأخذها زوجة له. إلا أن "تومو" الإنسان الأول رحل إلى السماء ليسكنها بعد مماته، وليصبح مسؤولاً عن الطقس الجيد. وبعد تكملة النص يتبين لنا اندماج الشمس مع "تومو" مما يعطي رمزاً آخر للشمس وربطه مع العضو الذكوري. كما نجد رواية شبيهة لهذه الرواية هي تلك الموجودة في معتقدات "اكا- جيرو"، حيث يكون "مايا جارا" أول كائن حي، فبواسطته ينتشر النور في هذا العالم.

نعلم أن القدامى بجلوا القضيب المنتصب، فمنه تخرج الحياة، حسب معتقداتهم. من هنا نستطيع إجراء مقارنة بينه وبين الشمس التي تساهم في تسميد الأرض، وربطهما سوياً، مما يسمح بخلق شراكة بينهما ليكون استخدام أحدهما دلالة على الآخر. وإذا تمعنا قليلاً في تاريخ سوريا وفينيقيا...الخ نجد استعارة هذه الثقافات لذات الرموز والعبادات والتي تمت تحت أسماء مختلفة.

لم تقتصر هذه الرموز على هذه الحضارات، فقد وجد أثرها في معظم الثقافات القديمة، فكما تمت الشراكة بين "تومو" والشمس، نجد آثار هذه الشراكة في كثير من الأساطير للسكان الأصليين في أستراليا وأمريكا. فهناك طقوس للخصوبة لدى قبائل "ماريند انيم" في بابوا غينيا الجديدة. وكما ورد في إحدى أساطيرها التي تروي عن بطلها "اناميمب" أنه ولد من جراء هراوة رميت من الهواء، لتسقط إلى الأرض على شكل حجرة نارية (وهنا يُقصد بها الحجر النيزكي عند وصوله إلى الأرض). نظر بعض سكان هذه المنطقة إلى هذا الحدث على أنه عمل آت من الشمس من أجل إرسال ابنه إلى الأرض.

ففي إحدى النسخ المعدلة لأساطير قبيلة "أندامانيز"، نجد أن مسبب الجريمة أو الخطيئة الأولى هما امرأتان قامتا بسحق النباتات تحت تأثير أشعة الشمس. (طبعاً هناك العديد من الأساطير الواضحة في معالمها والتي يستطيع أي اختصاصي العثور على الشراكة الحاصلة بين القضيب المنتصب والشمس)، فمن بين هذه الأساطير المتعددة اعتبر روهيم أن أشعة الشمس القوية الموجودة تعكس حالة الرغبة الجنسية لدى الأنثى تجاه الذكر في هذه الأسطورة بالتحديد، وبشكل أصح، تجاه القضيب الذكري، لينتج عنه عصيان لما هو محرم. وحسب هذه الأساطير نجد أن المحرم هي الأم كما هو واضح في أسطورة السلف الكنغر الملقب بـ"جانو" الذي أخذ أمه كزوجته. وعلى شاكلة هذه الأسطورة، نعثر على أخرى توضح لنا كيف أن الأم "جاكوست" أصبحت زوج ابنها عندما انتقلت إلى الجهة الغربية.

فهل يمكننا القول إن الأم مارست الجنس بشكل فعلي مع ابنها، وقامت بعصيان ما حرمته الجماعة عليها؟ تعكس لنا هذه الأسطورة رغبة وظمأً أولياً شديداً من الأم تجاه ابنها قبل أن تنشأ عنها رغبة متبادلة من الابن تجاه أمه. ليقوم الابن فيما بعد، وتحت تأثير علاقته بأبيه، بإجراء عملية تصعيد تلك الرغبة التي يشعر بها تجاه أمه وذلك خشية من أبيه وهدفاً منه لخدمته في مرحلة لاحقة، أي عندما يصبح بدوره أباً. اذ يمكننا القول: إن علاقة الأب- الابن وما نتج عنها هي نتيجة لعلاقة أقدم وأقوى وأكثر تعقيداً وهي علاقة الأم- الابن. كما نلاحظ أن هذه العلاقة تجسدت في أساطير أخرى، كتلك الأسطورة لذات القبيلة والتي تتكلم عن إبادة الأم الأولى البشرية كاملة انتقاماً لموت ابنها "السحلية".

يعتقد روهيم أن استخدام رمز السحلية في هذه الأساطير كدلالة على القضيب يعود إلى

قدرة السحلية على تجديد أعضائها المفقودة، ليتمكن الطفل الابن من الانتصار على خوفه من فقدان عضوه الذكري من خلال تجديده ونفي هذه العقدة.

نلاحظ أن العلاقة الثلاثية المتلخصة بالأب- الأم- الطفل شكلت العامود الأساسي للأساطير، فكما هو واضح في جميع أساطير نشأة الكون، عملية انفصال الأرض عن السماء بواسطة فعل إرادة ابن أو أب أرادا فصل أهليهما أو أولادهما عن بعضهما البعض، كما هو الحال عند الإله "شو" الذي قام بتفريق ابنته السماء "نوت" عن أخيها وزوجها "جيب"، و"كرونوس" ابن "جايا" الذي حرر أمه من أبيه "اورانوس" بعد أن قتل وخصي أباه.

67- كتاب اسطورة ولادة البطل لاوتو رانك صفحة 156-166

القسم الثاني الحلقة 11 الثنائي المحرم- الجزء الأول

نستطيع القول: إن التخيلات التي تجتاحنا عبارة عن ثمرة لصور عقلية وجدت للتعويض عن خيبات أمل أو قلق نفسي أو رغبات مدفونة تعرضت إلى انشطار وذلك لتناقض مشاعرها وأحاسيسها واحتياجاتها. ومن هذه الخيالات الحرة والمنعتقة من كل الموانع والتابوهات الخارجية، ولدت القصص الخيالية لتأخذ يوماً ما منعطفاً مؤثراً على حياتنا وطريقة تفكيرنا، فتحولت إلى وحوش وآلهة وشياطين، تجلت بوضوح من خلال الأحلام أحياناً، وأحياناً من خلال الجلسات الاستشفائية لمرضى العصاب، إلا أنه بالتأكيد يمكننا رؤيتها بشكل واضح من خلال الأساطير، القصص الخيالية، الأديان والآلهة أجمع.

أظهر هيربرت سيلبرر*(68) ميل الخيال في الاعتماد على أشكال رمزية للتعبير. فهناك علاقة ترابطية ما بين الرموز والخيال، فكلما ازدادت نسبة الرموز، اتسع الخيال بشكل أكبر، فنراها (أي الرمزية) واضحة في الأحلام النصفية*(69) والهلوسات والأحلام أيضاً، لتتمثل في ثلاثة مجموعات مختلفة من المفاهيم:

1- محتويات الفكر والخيال وجميع المواد الفكرية سواء كانت واعية أو لاواعية.

2- الشرط والنشاط وهيكلة النفس وطريقة سير العمل النفسي سواء كان بطريقة واعية أو لاواعية.

3- العملية الجسدية ويقصد بها التحفيزات الجسدية.

أعطى سيلبرر شرحاً مفصلاً لمحتويات الفئة الأولى والتي تحتوي على مواد تعبر عن تمثيلات لمحتويات عقلية، كالأفكار التي نستبطنها في جملة من سلسلة أفكار أخرى، إن كانت على شكل صور أو مجموعات صورية، أو مفاهيم وجدت للمقارنة أو لاستخراج أحكام أو لتحليل الأمور وإيجاد علاقات الارتباط والاقتران بين الأشياء والظواهر. فتكون الفانتازما المجسدة في الأحلام أو عن طريق الفن والشعر والأدب...الخ مستوحاة من جملة رغبات تعكس الرموز المستخدمة فيها صور عديدة لرغبات تبحث في خيالها أن تعيش تجربة الإشباع. أما الفئة الثانية، فنجدها غير متعلقة بمحتويات المواد الفكرية، لأنها خاصة بطريقة وأسلوب العمل الواعي من خلال سرعته أو درجة صعوبته أو مستوى الإحساس

بالبهجة أو القسرية، ليكون مثمراً ومتحداً أولاً، أو مقسما إلى مركبات، ليقوم أولاً بالتبادل فيما بين محتوياته...الخ

يقتبس الفرد مواد رموزه الذاتية من الثقافة المشروطة، أي أن الرموز المستخدمة من قبل الأفراد تختلف حسب الثقافة الاجتماعية التي ينتمون إليها. فمن أجل تفسير الرموز المستخدمة، علينا استخدام الأحكام والمعايير والقيم التي تتبناها جماعة ما. من ثم تأتي وظيفة الرمزية عاكسة بذلك النظرة الذاتية للأشياء. فيقوم الفانتازم بالاغتذاء على كل ما استبطن، مما ينتج عنه انسحاب الفرد من الواقع إلى العالم الداخلي ساعياً للوصول إلى منابع الليبيدو، ويتم الاتصال ما بين الاستبطان والانطواء وبين الايروتيزم الذاتي ليتداخلوا مع العقاب الذاتي الناشئ عن قيود السلطة العليا. فتعكس الحكايات الشعبية والأساطير الدينية أو غيرها ثقافة جمعية تداخلت مع الرغبات المقموعة للأفراد من قبل ثقافة السلطة العليا المستمدة من قواعد وضوابط دينية أو اجتماعية أو أسروية، لتتحول جميعها إلى سلطة ذاتية لاواعية.

تتشكل آليات الدفاع عند الطفل على فترات متعددة، فيتسم الطور الأول بحالة إنكارية للصدمات التي مر بها والمتجسدة برغبة إزالة الأعضاء الجنسية عن أهله*(70)، وكما رأينا في فصل "زنمردة الآلهة". يقوم الطفل بإسقاط الفعل الجنسي الممارس بين الأم والأب على الشياطين وجميع الكائنات ذات الطبيعة القضيبية المنتصبة، فيضاف لهذه الكائنات نشاطاً كانيباليزمياً. وكما رأينا سابقاً، تنشطر الأم والأب إلى جيد وسيئ، لتحل مكان صورة الأهل السيئة جميع الشخصيات الأسطورية بدلاً عنها.

تقاطعت فرضية روهيم مع نظرية فيرينكزي وأطروحات كلاين التي أكدت وجود دافع عدواني لدى الطفل محدداً من خلال عوامل فيلوجينية*(71). فكما أوضحت كلاين، يعي الطفل خطر الدافع العدواني الموجه تجاه أهله، فيخشاه خوفاً من إرجاعه على جسده، وذلك لتشابه صورته الجسدية مع أهله. وتأتي فرضية روهيم في ذات الوقت موازية للعملية الفيلوجينة والأنتوجينية*(72)، لتؤكد لنا ظهور العرق البشري من أسلافه الشبيهة له، والمشابهة لانبثاق الفرد من الطفل بعد مروره بفترات نمو آليات دفاعه المنحدرة من الأنا للدفاع ضد الصدمات الطفولية ذات الطبيعة الليبيدية، فنجد أن خصائص هذه الصدمات الناشئة عن التجارب الطفولية، تعبر عن حالة جنينية للأنا الطفولي. ولهذا ينظر الطفل إلى حالة الجماع بخشية شديدة، ويعود ذلك أولاً؛ لعدم استعداده للوصول إلى النشوة، فهو لا يبحث إلا للحصول على الاكتفاء الموجود في مراحله الأولى للجنسانية الطفولية، وثانياً لعامل خوف الابن من الجسد المكتمل لأبيه وإحساسه بعجز عضوه الذكري الصغير لمنافسة أبيه للاستحواذ على أمه. لتكون هذه المشاعر التي تجتاح الطفل هي أساس النزوع البدائي

والإنساني في التنديد للرغبات واتسامها بالصفة السيئة لديه، لتمثل كل ما هو هادم وخطير...

68- .كتاب مشاكل الغموصية لهيربرت سيلبرر، قسم الاستبطان صفحة 233.

70- وهي حالة واعية تأتي كمرحلة أولى للنوم، لتكون بين اليقظة والنعاس.

71- فيلوجيني وهو علم يدرس علاقات النسب بين الكائنات الحية أو بين مجموعة نوعية بهدف فهم عملية التطور للمتعضيات، كما تتداخل دراسة الفيلوجيني مع علم الأنساب بين مجموعة كائنات حية أو تجمعات سكانية أو بين الأفراد.

72-الانتوجينيز وهو علم يختص بالنمو التصاعدي لمتعضية منذ بداية نشأتها حتى نضوجها.

القسم الثاني الحلقة 12 الثنائي المحرم - الجزء الثاني

عودة مرة أخرى إلى أساطير قبائل "اندمانيز"، فقد لاحظ روهيم في رواية مختلفة لإحدى أساطير السحلية، والتي ترمز إلى القضيب المنتصب المتمثل بالبطل- الابن، أن السحلية تتميز بقدرتها على تجديد أعضائها والتي ترمز إلى خوف وخشية الابن من عقوبة الخصي، ليلجأ الابن إلى نفي هذه العقدة من خلال عملية إسقاطه على السحلية وذلك لتجديد عضوه الذكري بشكل دائم. وفي أسطورة أخرى لقوم "باتاك" في أندونيسيا، تقول الرواية "بعد أن تزوج أخ أخته فائقة الجمال، وفي يوم كانا في الغابة، رغب الأخ قطف بعض الفاكهة من على شجرة، إلا أنه التصق بالشجرة، ليلقى معه أخته وحرباء وحية وضفدعة وجرذ ذات المصير، فقد صعد جميعهم لالتقاط الفاكهة إلا أنهم عجزوا جميعاً عن الهبوط منها.

دارت معظم الأساطير حول رواية واحدة، حيث اختلفت ببعض العناصر إلا أنها حملت ذات الرموز، فقد عثر روهيم في الأساطير الاندمانيزية على دلالات عديدية تؤكد وجود صراع ما بين الأب والابن، وبين الابن والأم والتي نجد آثارها في أسطورة "سوسانو- نو- ميكوتو" اليابانية*(73) وفي رواية أخرى لأسطورة "بيليكو" الأنثى الأم العاكسة للحماية والخطر من خلال دور الأم الثنائي، نجد أن "تاراي" الزوج- الابن أقل شأناً منها، ومكملاً لها من جهة أخرى. كما نلاحظ في أساطير طوطمية واغريقية وغيرها عنصر الحمل العجائبي للأم من دون الجماع المباشر مع ابنها والذي يدل على جماع مباشر تم بين أفراد العائلة الواحدة والذي تم تحريمه من الجماعة.

أكد لنا علم النفس التحليلي وجود رغبة جنسية للأبناء تجاه أمهاتهم، إلا أن الأساطير بينت وجود رغبة متبادلة ما بين الأم وابنها. وبما أن العلاقة ما بين الأم وابنها اتسمت بالتميز، فقد أصابها أول تحريم جنسي، أي قبل تحريمه ما بين الأخوة والأخوات، ومن ثم ما بين الأب وابنته. لنلاحظ أن هذه العلاقة المتميزة ما بين الأم وابنها استمرت في جميع الديانات وثقافات الشعوب حيث نجد أن بعض الأديان ركزت على هذه العلاقة وخصت الأم بمكانة تفوق مكانة الأب اجتماعياً ومعنوياً*(74). وذلك في محاولة لجعل تحريم الأم على الابن أعلى شأناً.

أعاد الكثير من اختصاصيي التحليل النفسي عقدة الخصي لدى الطفل إلى العلاقة الثنائية ما بين الأم وابنها في المرتبة الأولى، ليأتي أثر علاقة الأب والابن في المرتبة الثانية. فمن

خلال علم النفس التحليلي للأساطير والمعتمد تجريبياً على تحليل العصابيين، تبين أن عقدة الخوف الأولى للذكر هي فقدانه عضوه عند ممارسته الجنس، أي الخوف من العضو التناسلي الأنثوي واعتباره قادراً على الاحتفاظ الدائم بالعضو الذكري من خلال بتره. كما أن رغبة الذكر الابن بالعودة إلى رحم أمه يعكس لنا المشاعر المتناقضة ما بين الرغبة في الجماع والخوف منه في آن واحد.

رغبة الابن الدفينة في العودة إلى الطفولة وتكرار هذه الحالة ثانية، دفعت بكثير من القبائل إلى تحريم الزواج من نساء عدة، ليتبنوا الزواج الأحادي، والمرتكزة بمفهومها على علاقة الطفل بأمه ومحاولة استرجاع لتلك العلاقة من خلال امرأته عند التصاقه بها، فقد توصل فيرينكزي إلى أن حالة القذف عند الذكر والمترافقة مع انفصال عضوه عن جسد الأنثى، يجسد بشكل لاواعي تكرار عملية الولادة من جديد. فعند تفريغ جميع الضغوطات من خلال الأعضاء التناسلية وتعميم النشوة على كافة الجسد، يضع النظام العضوي ذاته وبشكل كامل تحت تصرف الأعضاء التناسلية، ليتماثل مع العضو المنفذ، وبذلك يتطابق "الأنا" مع العضو التناسلي أثناء الجماع. لتصب هذه الدراسة بما قدمه روهيم من فرضية تطابق الأنا والقضيب، ليكون الروح مرادفاً للنطاف الخارج من عضوه.

أما بالنسبة للقبائل التابعة لنظام التزاوج الأحادي، كقبيلة "سيمنج" التي تمنح لأفرادها الحرية الجنسية الكاملة قبل الزواج، فيلاحظ روهيم قلة احتمالات الخيانة لدى الطرفين بعد الزواج. فالزواج لديهم عبارة عن مؤسسة أساسية للتنظيم الاجتماعي، ليتشابه مفهوم الزواج مع المفهوم الكاثوليكي الذي منع الطلاق، فلا وجود لمفهوم أحقية الرجل بالزواج من امرأتين أو أكثر، أو تعدد الأزواج أو الطلاق حيث تعد كل هذه المفاهيم غير معروفة لديهم، حسب الأنتربولوجي مان. ويفسر روهيم ميل الرجل للزواج بامرأة واحدة على أنه محاولة تكرار الحياة الطفولية عندما كان الابن متعلقاً بأمه، لتبين الدراسات التي أجريت على بعض الثدييات العليا (أو "الرئيسيات")*(75) التصاق الذكر بالأنثى حتى تجاوز صغارهم مسألة الاعتماد على العناية الأمومية. وتمثل هذه المرحلة لدى الذكر طفولة ثانية، ليتماثل مع ذريته على الصعيد النفسي وليقوم الاقتران الأحادي عند الإنسان بإحياء مفهوم الثالوث الأم- الطفل- الأب وإضافة قيمة عليه، لتأخذ العلاقة الزوجية بعد مجيئ الطفل بعداً مقدساً. فتصبح الزوجة أماً ثانية للزوج بعد تماثل الأب مع الابن، وبعد أن تصبح صورة مطابقة للغرض الأصلي (أي الأم) بنظر الزوج. ومن ناحيتها تملأ القرينة وظيفتها الأمومية تجاه القرين والابن من جهة، ومن جهة أخرى تتماثل الأم مع ابنتها لتجد غرضها الأصلي (أي الأب) في الزوج - الابن، ويوجه الابن الليبيدو تجاه أمه بينما يمثل أبيه الأنا المثالي.

من هنا نجد أن الذكر تبنى مبدأ التصعيد، أي أن دور الأنا الأعلى حسب المفهوم

الفرويدي، تقمص دور الأخلاق والآلهة، بينما تعكس الأنثى الليبيدو الحر والعودة إلى الغريزة الأصلية.

---

*73- سوسانو وهو أحد آلهة الديانة الشنتوية في اليابان، فهو إله الرعد وابن إلهة الخلق والموت "ازانامي"وأخت زوجة إله "ازاناغي"، والذي قام مع زوجته بخلق العديد من الجزر والآلهة والأسلاف القدامى. تقول الأسطورة "أراد سوسانو أن يزور أخته إلهة الشمس اما-تيراسو-اوهو والتي خشيت بدورها أن يستولي سوسانو على مملكتها، فارتدت لباسا واقيا، إلا انه استطاع اقناعها بحسن نواياه، ليقسم لها بعدم التعرض وانه آت لرغبته في خلق أطفال منها من دون أي اتصال جنسي بينهما. إلا انه وبعد فترة من السلام، نكث إله الرعد وعده، ليقوم بالتهجم على حقول أخته والتبرز في القاعة الكبرى لقصرها. مما أثر هذا المشهد على نساء إلهة الشمس لتنسحب الشمس وتمكث في مغارة وتحرم الجميع من أشعتها.

*74- أتكلم هنا عن مكانة الأم وليس المرأة. فهناك تناقض بين مكانتي المرأة والأم في بعض المجتمعات الدينية. ففي بعض المجتمعات وربما بسبب عملية التصعيد النفسية الشديدة ورفض الاعتراف بكل ما يختلج الإنسان من مشاعر ورغبات وجهلها للعملية النفسية، انشطرت الأم الى قسمين: أم وأنثى. فمن جهة ارتفعت مكانة الأم عند الابن ليقابلها تراجع لمكانة المرأة.

*75- الرئيسيات وتصنف على انها أحد رتب الثديات العليا وتدعى " انتروبريد".

القسم الثالث الحلقة 1 القوانين والأعراف الأولى

رأى فريدزر أن الإنسان قد خلق القانون وذلك لشعوره بأن اكتفاء غرائزه بشكل كامل كان ضرراً له من الناحية الاجتماعية، لأن الجماعة استطاعت إيجاد مصلحة لها تعاكس الاكتفاء الغرائزي الفردي وتعاكس الطبيعة نفسها. فنحن لا نحتاج لتعلم كيفية الأكل أو الشراب أو حتى تجنب ملامسة النار، فهذه الأمور نملكها بشكل غريزي لضمان حمايتنا، فما تدافع عنه الطبيعة وتمنعه، لا حاجة لقانون أن يدافع عنه.

أما كلود لاكاديك(*76)، ومع استناده على علم البيولوجيا الاجتماعية، قام بتثيت الحجج المتجهة نحو اعتبار الأخلاق مؤسسة على مجموعة إلزامات سلوكية يتبناها الفرد تحت تأثير الضغط الشديد الناتج عن هاجس القلق أو شعور الذنب أو الألم الذهني الآتي عن وعي ما، ليعتبر أن هذه الإلزامات أتت لتحد من إمكانيات الفرد.
في كتابه "القاعدة البيولوجية للأخلاق" يشرح لاكاديك، وباستناده إلى نظرية "داروين"، كيفية انتقال الإنسان من الحالة الفردية إلى الجماعية التي تمت جراء تأثيرات ناتجة عن محيطه الخارجي واندماجها بتفاعلاته الداخلية، من هنا استنتج أن الحالة الجماعية هي مجموعة إلزامات بيولوجية تمارس على أفراد الجماعة لتتحول إلى كوابح نفسية فيما بعد، فكما هو معروف أن الداخل النفسي والتغيير البيولوجي مرتبطان سوية.

بدأت العلوم الإنسانية الحديثة في عصرنا هذا بالاعتماد على البيولوجيا كقاعدة أساسية وبالطبع على أساس نظرية التطور والاصطفاء الطبيعي، ومن هنا لا يبقى لدينا إلا أن نقول: إن الحياة الجماعية نشأت عن التطور الدارويني فهناك الكثير من الأمثلة لجماعات من القرود تعيش بتنظيم جماعي، إضافة إلى وجود 37 نوعاً من القردة يتبعون التزاوج الأحادي لأنه الأنسب لهم، فالحياة الاجتماعية مزيج من تركيبات نفسية متعارضة فيما بينها، فمنها ما يقوم على المنافسة ومنها ما يقوم على التعاون. ولولا المنافسة التي هي أساس التطور والتعاون الذي هو بدوره أساس التكاثر، لما نشأت التحولات في التركيبة النفسية الجماعية التي أدت وما زالت تؤدي إلى التطور المستمر.

فهل نستطيع القول: إن المصلحة الجماعية هي أساس الأخلاق؟

يرى فرويد أن الركيزتين الأساسيتين للأخلاق الإنسانية مرتكزتان على مبدأ التابو القائم

على أساسين؛ حيث يستند الأساس الأول على ضرورة احترام الحيوان الطوطمي والثاني على تحريم العلاقات الجنسية بين أفراد العائلة.
لنبدأ أولاً، في تحليل الركيزة الثانية وهي تحريم العلاقات الجنسية بين أفراد العائلة، فمن وجهة نظره ومن خلال الاعتماد في هذا التحليل على نظرية "داروين" المتمثلة ببدائية السيد القوي، والمتمثلة بالأب الجامع لنسائه لينفي أبناءه خارج القبيلة ويعود ذلك إلى غيرته الشديدة وحبه لامتلاك أناثه، ويليها فيما بعد عودة الأبناء لاحقاً بعد معاناة وبعد اتحاد فيما بينهم بهدف البقاء والصراع من أجل الحياة حيث ساهمت هذه الحالة في تشكيل رابطة قوية فيما بينهم لتقوم بتوحيدهم وتوحيد قرار عودتهم إلى القبيلة السابقة، ليباشروا بالانتقام من ذلك الأب المتسلط. إلا أن عملية قتل الأب وأكله لم تمر من دون ترسيخ شعور تأنيب الضمير، نتج عنها عقدة ذنب تشكلت خفية لتتفاقم على مر الأجيال وتتحول إلى أداة خارجية تصوغ قوانين وأخلاقاً جماعية.

استنتج فرويد أن فكرة الجريمة الأولى وما نشأ عنها من تحريم لعلاقات داخل الأسرة الواحدة يعود لشعور بضرورة حماية القبيلة بعد رجوع الأبناء لتفادي الصراعات فيما بينهم، وتجنيب القبيلة تفسيخ الروابط الاجتماعية، أي أنها وجدت لضرورة استمرار الجماعة، ودفعتهم لسن قانون من أجل تنظيم القبيلة وذلك في أول تحريم جنسي بممارسة العلاقات ما بين الأخوة والأخوات، لهذا نرى أن النظام "الايكزوغامي" قد أسس تحريماته الجنسية بشكل تدريجي، ليبتدئ أولاً في تنظيم نفسه.

76-كرس كلود لاكاديك حياته في تعليم الفلسفة في عدة جامعات بكندا، توفي عام 2000. أنجز ثلاث كتب وهم: الأسس البولوجية للأخلاق وكتاب القاعدة البيولوجية وكتاب الهيمنة ودور السوسيوبيولوجيا على الخداع وعدم المساواة. كما كان له العديد من المقالات المنشورة منها في جريدة الواجب و في مجلات علمية أخرى.

القسم الثالث الحلقة 2 القواعد الأساسية للنظام الايكزوغامي

أطل علينا فرنسيس جيمس سبنسر ووالتر بالدوين جيلين بدراسة التنظيم الجماعي للقبائل الأسترالية، ليجدا أن هذا النظام وما رافقه من تنظيم للزواج خارج العشيرة والمسمى بـ"الايكزوغامي" والذي كان مرافقاً للنظام الطوطمي والذي قسم نفسه بالبدء وفي المرحلة الأولى إلى فرقتين؛ الفرقة الأولى وتضم أولاد الأم الواحدة إناثاً وذكوراً. والفرقة الثانية تضم رجال القبيلة، ليتم التزواج فيما بينهم. فالهدف الأساسي من تقسيم القبائل إلى فرقتين هو الحد من تزاوج الأم مع أبنائها ومن ثم الأخوة مع الأخوات. إلا أنه في مراحل لاحقة قسمت القبيلة نفسها إلى أربع أقسام ليتم منع التزواج بين الأب وبناته. أما في مراحل متطورة فقد قسمت بعض القبائل الطوطمية نفسها إلى ثمانية فرق وذلك للحد من زواج القربى.

هذا النظام "الايكزوماغي" وكما يظن جيمس فريدزر حل محل نظام الطوطم البدائي الذي كان يقوم على مبدأ فردي أي اختيار طوطم الطفل حسب الصدفة وذلك لجهل الأب في تلك الحقبة أبوته لأطفاله.
إذن: حل النظام "الايكزوغامي"، وهو نظام الفرق للتزاوج مكان النظام الطوطمي الفردي البدائي في بعض القبائل، وذلك من وجهة نظر فريدزر. أما عند قبائل أخرى، فقد تم تداخل النظام الفردي مع نظام الفرق لتتبنى القبيلة النظام الطوطمي الجماعي. وبالرغم من وجود بعض الفوارق والاختلاف بين بعض الأنتربولوجيين بالنسبة إلى الطوطم الفردي إن كان هو الذي مهد للطوطم الجماعي أم العكس (تطرقت اليه في القسم الأول)، إلا أننا نستطيع أن نُجمع على أن النظام الطوطمي كان مهد النظم الاجتماعية والدينية.

ومروراً على عادات الحياة عند القرود العليا لمقاربتها فيما بعد بالإنسان البدائي الذي عاش ضمن جماعات متنقلة، نجد تشابهاً بينها وبين الإنسان، كغيرة الذكر الأكبر عمراً المحددة للعلاقات الجنسية والمانعة للاختلاط الجنسي بين أفراد القبيلة. لهذا نجد أن بعض الدراسات ترتكز على أن البشر قد عاشوا بدائياً ضمن مجموعات بشرية، فكان لكل رجل أنثاه أو أكثر في آن واحد. فامتلاك الذكر قوة جسدية تشبه قوة الغوريلا، ساعدته في امتلاك عدة نساء. كما أن شعور الغيرة عند القرود مشابه لشعور غيرة الإنسان البدائي العاجز عن التحكم بمشاعره. في حين نجد تأكيد الأنتربولوجي ج.ج.اتكينسون لنظرية شارل داروين حيث برر أسباب تحريم التزاوج، ونسبها إلى العامل النفسي وهو غيرة الإنسان ورغبته في

السيطرة على زمام الأمور، ليصبح هذا العامل مع مرور الوقت شكلاً قانونياً للتنظيم الاجتماعي بل يصبح قانوناً واعياً يحدد العلاقات فيما بينها.

من ناحية أخرى، نجد أن فرويد وفيرينكزي استندا إلى تجارب سريرية، فبعد الفحوص السريرية التي أجرياها، وتحليلهما لظاهرة فوبيا الحيوان عند الأطفال، توصلا إلى تفسير السبب الرئيسي لكراهية الأطفال لحيوان معين. حيث يمثل الحيوان سلطة الأب لدى الطفل، ليتم طرح جميع المشاعر العدائية لديه تجاه والده على الحيوان والاحتفاظ بالمشاعر الطيبة تجاه الأب. وبذلك ومن تحليل أسباب هذه الفوبيا استمد فرويد حله في فك اللغز الطوطمي، كما ارتكز فيها إلى نظرية داروين مستنتجاً أن طرد الأب الأول لأبنائه نم عن غيرة على نسائه، لحين عودة الأبناء لاحقاً للانتقام من أبيهم، كي يتم قتل وأكل الأب إلا أنه لاحقاً بدأ العراك بين الأخوة لنيل النساء، ليصلوا فيما بعد إلى اتفاق وقناعة عبر أجيال لاحقة للحد من التزاوج ما بين الأخوة والأخوات من أجل الحفاظ على القبيلة.
لم يفت على فرويد أن يتطرق لشعور الذنب الذي بدأ يتفاقم مع الأجيال من جراء عملية قتل الأب وأكله والرغبة في المصالحة معه، مما دفع إلى فصل الأب عن الطوطم لاحقاً وإعطائه قوة لا محدودة وبالتالي ولادة أرضية مناسبة للأديان التي أتت لاحقاً.

رافق تحريم العلاقات الجنسية بين الأهل والأولاد عاملاً نفسياً دفع القبائل إلى اللجوء للطوطم، لطرح جميع هذه المشاعر النفسية المتصارعة فيما بينها، وذلك رغبة في المصالحة مع الأب وتخفيف حدة الشعور بالذنب، فالطوطم يمثل القوة الأبوية. فهو من جهة يقوم بالمصالحة بين الأب والأبناء، ومن جهة أخرى يقوم بتذكير الأبناء بانتصارهم على الأب من خلال القيام بمراسيم الذبيحة لقتل وأكل الحيوان الطوطمي جماعياً. ليستنتج فرويد في فرضيته هذه على أهمية المصالحة مع الجريمة المقترفة من ناحية الأبناء والتي أدت إلى تقديس الطوطم. كما علينا ألا ننسى أيضاً أن الحيوان الطوطمي لم يقتل أو يؤكل بشكل فردي لأن فعلاً كهذا يعتبر خرقاً لعرف يؤدي الى عقوبة صارمة. أي أننا نستطيع من خلال هذه النظرية الاستنتاج أن تحريم القتل والعقاب قد تبناه الأفراد في هذه الحقبة ليأخذ بعداً أوسع مع الأجيال القادمة، فإذا دققنا أكثر في هذه الفرضية، نرى أن قتل الأب وأكله قد تم ترميزه الى حيوان طوطمي لتتحول هذه الصورة ومع مرور الأجيال إلى صورة الإله الذي ولد من فكرة الطوطم في حقبة متطورة عليا من الشعور الديني. ويجب القول: إن عملية قتل وأكل الأب والشعور بالذنب تجاهه قد خبا عبر الزمن ليخلي السبيل لمشاعر الحب الأولى تجاه الأب لكي يتم الاستشعار بمرور الزمن بتلك القوة اللامحدودة الأبوية الآتية من الماضي البعيد فيرفع الأب إلى مرتبة الإله.

مما لا شك فيه أن للجماعة الأثر المباشر والمؤسس الأصيل للمبادئ الأخلاقية الأولى،

فكما وجد فرويد أن أساس الأخلاق يستند إلى ركيزتين أساسيتين عند الجماعة. ركز ادوارد اوسبورن ويلسون على مجموعة أخلاق أولية بيولوجية وجماعية المنشأ موجودة عند الكائنات الحية، كتقسيم العمل الجماعي، التسلسل الهرمي للجماعة، توزيع الأدوار على أفراد الجماعة، حماية الأرض أو الشعور بالكراهية تجاه الغريب. وهكذا يمكننا أن نقاطع هذه النظرية مع فرضية فرويد التي تقول إن الأساس هو الغريزة الجنسية والتي تتحول إلى قيم جماعية مثلى. فبما أن أساس الأخلاق هو التطور وبما أن بعض السلوكيات يتم اكتسابها لتتحول إلى صفات يتم توريثها، حسب ضرورة الحياة والاصطفاء الطبيعي الخادم لمبدأ البقاء والاستمرارية، نستطيع القول: إن الغرائز الجنسية عند الكائنات الحية تطورت مع مبدأ الاصطفاء الطبيعي لتتحول إلى أسس بيولوجية، فبما أن الانسان يتسم بخصائص نفسية مركبة، فهو لا يرث سلوكياته مئة بالمئة كالنمل، مع الإقرار بأن هناك تأثير ما للموروث الجيني بنسبة معينة. ومن جهة أخرى فهناك سلوكيات مكتسبة من المحيط الخارجي، أي ثقافة مجتمع، تربية...الخ، وبذلك يتم تسجيل السلوك المكتسب في نظامنا الوراثي من خلال الاصطفاء الطبيعي ليتم بعده توريثه بنفس النسبة إلى الأجيال القادمة. أي أن الإنسان قادر على تحويل هذه الغريزة الجنسية إلى قيم اجتماعية يتم توارثها عبر الأجيال مع إمكانية تحولها المستمر إلى قيم أخلاقية تتغير تدريجياً مع مرور الزمن. فمورثة العلاقات الجنسية بين أفراد العائلة الواحدة لم يتم إلغاؤها كخيار حضاري إنساني بل ألغيت كنتيجة داروينية، كما فسرها ويلسون.

وبما أن العلم ما زال عاجزاً عن إثبات أو نفي إشكالية توارث السلوكيات عن طريق الجينات، يحق لنا أن نتساءل الآن عن آلية اكتساب الإنسان لصفات سلوكية خارجية؟

بعد تجارب وملاحظات عديدة اتضح أن جزءا من السلوك هو وراثي. فالذكاء والصفات الشخصية وبعض الأمراض العصبية تحدد من خلال عوامل جينية. أي أن السلوك يخضع إلى قاعدة بيولوجية وهي بدورها تخضع للاصطفاء الطبيعي*(77)، وبهذا المنحى نستطيع أن نتكلم عن اكتساب سلوكيات خارجية فرضتها علينا البيئة بحكم عملية التأقلم، ليطرأ تحول جماعي في توارث القاعدة البيولوجية للسلوك، أي أنه لا يتم تغيير في القاعدة البيولوجية السلوكية الفردية الوراثية بل تتغير القاعدة البيولوجية السلوكية الجماعية عبر الأجيال. فالبيئة تنتقي سلوكيات أفرادها. وكذلك علينا ألا ننسى أن الظروف والتغيرات الآتية من المحيط تشكل حافزاً أساسياً لظهور بعض الجينات الضامرة، أو لضمور بعض الجينات الظاهرة؛ هذه الظروف والتغيرات تعتبر سبباً أساسياً في اكتساب صفات وسلوكيات جديدة لدى الجماعات المتأقلمة مع المحيط الخارجي.

نعود إلى داروين وتوضيحه لنظرية التطور على أنها نتيجة تنافس بين الأفراد وتغير

محيطي، وهذان بدورهما يقومان بتغيير القاعدة البيولوجية للسلوك في المجتمعات. فهناك تنوع كبير في أي تجمع لكائنات حية، إلا أن الاصطفاء الطبيعي يقوم بتصفية خصائص معينة لدى بعض الأفراد لصالح التأقلم مع المحيط. فقد أكد لنا علم البيولوجيا دور الاصطفاء الطبيعي لداروين كما أوضح لنا أن التغيرات التي تطرأ على الخصائص الوراثية مرتبطة بدورها بعملية الاصطفاء نفسها.

77-تجربة سكينر عام ١٩٧٧ والتي برهنت على ان البيئة تنتقي وبشكل طبيعي جميع السوكيات الفردية التي تلائمها وتصفي أو تلغي ما لا يتناسب معها.

القسم الثالث الحلقة 3 المنابع النفسية الأولية

طرأت على الإنسان تحولات نفسية جذرية هامة تراكمت مع مرور الزمن لتأخذ أشكالاً مختلفة وتكتسب ميزات عدة، فأهدافها الأولى الباطنية اكتسبت خصائصَ وميزاتٍ تم استبدالها لتبني أهدافاً أخرى تصب في خانة التأقلم مع المحيط الخارجي المتغير من جراء عملية التحول المؤثرة على الدوافع النفسية الأولى.

هذه الدوافع أو المحفزات النفسية الأولية*(78) (التي تصب بحاجة الجسد، أي بمعنى الغرائز) والآتية من اللاوعي تشكل المحرك الحقيقي لتطور النظام العصبي. فإذا نظرنا إلى المحرك نراه يتألف من دافع أو محرض، ليكون العامل الحركي الفعال الذي يهدف إلى تحقيق اكتفاء الدوافع النفسية الأولية والمتعلقة بالغرائز، فهو مرتبط بحاجة الجسد (المحرك الأول).

إذن، نستطيع القول: إن التصرف الغرائزي هو حالة نضج لما نتلقاه من خلال الحواس والدوافع، لينتج عنها ميكانيكية داخلية تربط الحواس والدوافع والحاجة معاً، من هنا نستطيع القول: إن التصرف الغرائزي ليس منتوجاً تعليمياً بل هو حالة نضج عضوية منظمة.

اعتبر رونالد فليتشر أن الغرائز تحدد الأهداف لتخدم حياة النظام الفيزيولوجي من ناحية الغذاء والتكاثر، فمجموع الغرائز (المصاحبة لردود فعل أو عادات أو أفعال ذكية) تسمح للإنسان أو للحيوان بالتأقلم مع المحيط الخارجي الموجود به، أي الإستطاعة على الحياة وتأمين حاجاته الجسدية. لهذا نستنتج: أن الغريزة تقود إلى ردود فعل متنوعة ومناسبة للكائن الحي حسب المعطيات الخارجية المحيطة به.

تتمثل الغرائز أو الدوافع بطاقة (كالدافع الجنسي)، لتنتقل، حسب نظرية فرويد، من الدافع الجنسي إلى أهداف وقيم اجتماعية عليا. وهو ما اعتبره فرويد العامل الرئيسي في نشوء الحضارات، أي أن الحضارة بحد ذاتها قائمة على قمع الغرائز وخصوصاً الغريزة الجنسية، فهي تساهم في التحول النفسي*(79) لاكتساب قيم وأخلاقيات جديدة، إلا أننا اليوم نستطيع تسليط الضوء على عامل الوعي عند الإنسان لتأسيس قيم وأخلاق واعية من دون عملية القمع للغرائز، أو بمعنى آخر التصالح ما بين الحاجات البيولوجية ومبدأ الحضارة المعتمد والمؤسس على أيدي الأفراد والجماعة.

أعود إلى الدوافع النفسية الأولية، والتي اعتبرها كارل غوستاف يونغ كامنة في الصور الأصلية المسجلة في نفس الإنسان. لهذا نراه قد حدد قطبين في النفس هما: القطب الأول المؤلف من غرائز ودوافع، أما الثاني فيتكون من صور أصلية أو رموز بدائية موجودة عند جميع الكتل الجماعية، وهذا ما أسماه باللاوعي الجماعي.

هذه الأرضية المؤلفة من رموز تقود الإنسان إلى تحديد المصالح حسب البيئة الموجود بها لبناء سلوكيات جديدة مغايرة، إلا أن عملية تأقلم غرائز الأفراد والجماعات مع المحيط الخارجي قد تستعصي أحياناً. وهنا يعتقد يونغ أن الرموز الأصلية تتظاهر بشكل خفي للإعلان عن نفسها من خلال جملة أحداث جماعية لاواعية تؤثر على السلوكيات الأخلاقية أو الركائز اللاواعية، مما أدى في مراحل تاريخية إلى نشوء وولادة الأديان التي نتجت عن انخفاض المتطلبات الغرائزية الناتجة بدورها عن انسحاب الطاقة من الغريزة لصالح محتوى نفسي آخر، أي أنه يتم استبدال الحاجات البيولوجية بقيم وأحكام تصب في مصلحة الإطار الجماعي، ليخلق آليات فعل وتفكير تقوم بتعزيز التسلسل الهرمي للجماعات. ومن هنا تبدأ عملية خلق إيحاءات عقائدية معينة مستمدة من المنابع النفسية، ليتم خلق رموز متقمصة لشخصيات مقدسة كالإله والرسل والبطل الأسطوري إلا أنه وفي حالة توقف الجماعة عند مرحلة معينة وعدم تكيفها مع المتغيرات الخارجية يجعلها تقع في مطب تكرار المرحلة التي وصلت إليها وثبات النموذج الثقافي واستعصائه عن فهم وإدراك المتغيرات. وهنا تبدأ عملية تضخيم القبيلة لبطلهم الأسطوري إن كان بطلاً أو رسولاً أو نبياً والمرافقة لفروض وطقوس معينة تقيد الفرد كي تضيف على الفرد مشاعر ضرورة الانتماء لجماعته حيث يصبح الفرد في حالة أسيرة للمعتقدات الجماعية، فيفرض على نفسه وعلى الآخرين قيوداً جديدة يصعب كسرها والانفلات منها. وهنا تزداد لدى الفرد مشاعر الحماس للجماعة وللمعتقدات الجماعية مما يؤدي إلى انعزال الأنا الجماعية ومنها الأنا الفردية، فتنعدم الجسور ما بين الأنا الداخلية والخارج المختلف المتمثل بجماعات ذات ثقافات مختلفة، وتنمو مشاعر الشوفينية التي هي وجه آخر للعنصرية والطائفية. تعتبر هذه المشاعر شكلاً متطوراً عن أشكال "الإثنية المركزية »*(80)، والتي تستمد أرضيتها من الـ "سينوفوبيا"*(81).

مما لا شك فيه أن الشوفينينة عبارة عن سلاح في أيدي بسطائها الذين لا يمتلكون شيئاً مميزاً، فيسعون للافتخار بأديانهم وأوطانهم وقومياتهم وقوانينهم، مما يؤدي إلى ترسيخ سلوك الإنعزال الجماعي والفردي، ليتحول هذا السلوك عند الأفراد إلى حالة دفاعية عن الذات من قبل الأفراد والجماعة.

ويتراكم على أثر هذا السلوك حالة من الخوف تصيب الإنسان منها الخوف من هدم البناء

الذي تأسسس من قبل أجداده وطائفته والناتج عنه ارتباط الأنا الفردية بالأنا الجماعية حيث تفقد الأنا الفردية جميع قدراتها على التميز. وهذا ما يؤدي إلى عجز الفرد عن تحديد المصدر الرئيسي لجميع مشاعر الأرق، ليعتقد أخيراً إن جميع قلقه وعزلته آتية من الخارج، لتتحول فيما بعد مشاعر الأرق والخوف إلى مشاعر تعالي على الآخر.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن جميع الكتل الجماعية البدائية تنظر إلى الجماعات الأخرى على أنها أحط منها قدراً، وهكذا نرى التشابه بين الهنود الأمريكيين الذين يعدون أنفسهم "شعب الله المختار" وبين القبائل الهندية التي تطلق على نفسها صفة "الناس الذين لا ناس سواهم" وبين الشعوب المنتمية إلى الديانات الإبراهيمية.

78- يأتي المحفز النفسي كجواب من جراء تفاعل المحيط الخارجي مع الداخل الإدراكي، ليكون فعلاً محركاً يتفاعل مع محيطه بهدف الحفاظ على توازنه البيو-نفسي وهيكلة النظام العضوي داخل هذا المحيط.

79- جميع الآليات التي تتحكم بمسألة إشباع الحاجات العضوية والبيئية تصنف بالدوافع الغريزية والتي تشكل دوافعاً نفسية تتراكم عبر الزمن لدى الإنسان لتملكه ذاكرة طويلة الأمد كي تستطيع حفظ الشريط التجاربي لحياته.

80- الإثنية المركزية وهو مصطلح إثني. فمن ناحية انتربولوجية يعبر هذا المصطلح عن شعور استعلائي لدى الأفراد حيث يعتقدون أن أمتهم أو جنسهم الدين ينتمون اليه هو الأفضل بين كل الجماعات.

81- تدل ال "سينوفوبيا" عن مشاعر كره للغرباء الناتج عن الخوف من الغريب. نشأت ال "سينوفوبيا" أو شعور كره الغريب منذ نشأة الجماعة، لهذا نجده عند الكائنات الحية التي تعيش بشكل جماعي.

القسم الثالث الحلقة 4 عملية توحيد الرمز الأسطوري أو الديني بالفرد

يخضع الرمز إلى عملية تضخم عند الأفراد لتنشأ عنه وبشكل مباشر عملية ارتباط عاطفية تؤجج بشكل مكثف عند أفراد الجماعة، هذه المشاعر تربط الأفراد والجماعات بالرمز ليشكلوا كياناً واحداً، فالصورة الخارجية (الرمز) والتي نشأت عن انعكاسات نفسية نراها مرتبطة بالداخل النفسي من خلال وسيط الشعور، فلا يمكن إنهاء الرمز عند الأفراد اللاصقين به إلا من خلال إنهاء المشاعر الرابطة بينهما والقضاء عليها.

أعطى ميكائيل بيرسينجر تفسيراً لعملية التصاق الأنا الفردية بالرمز حيث تتوحد المشاعر ما بين الأنا والرمز الشكلي (الله، أو الوعي الكوني، أو إرادة خارقة واعية...) لكل الأزمنة والأمكنة. ينشأ عن هذا التوحد أحياناً شعوراً بالفردية والتميز عند الفرد ليلجأ بعدها وضمن ظروف معينة محاولة الاحتكاك بالرمز، ولقب بيرسينجر هذه الحالة بـ"تجربة الإله".

تتبع هذه التجربة من إرادة فردية لاواعية تهدف للاتصال المباشر مع الإله أو مع أية قوة أخرى يؤمن بها الفرد، ويتم ذلك عن طريق صور دفينة مسجلة في الذاكرة. فالطفل الذي تعلم التعبد لإله معين، تتسجل في ذاكرته صور عقلية مستمدة من الكتب الدينية التي تخص إلهاً أو خالقاً أو طاقة كونية، وهكذا تتداخل الصور الدفينة المختزنة مع شعور بالفردية والرغبة في التميز ليصبح الرمز المحرك الأساسي للأفراد فيتميزون من خلاله ويستمدون طاقتهم منه. في هذه الحالة ليس من المستغرب أن يرى المسيحي مسيحه وهو يخاطبه أو يباركه في المنام أحياناً، ليراه عند اليقظة في أحيان أخرى وفي بعض الحالات التي تشبه الأحلام النهارية كتعويض لحالة نقصان أو عدم اكتفاء من الذات، وشبيهاً لهذه الحالة، يتصل البوذي مباشرة ببوذا لتتم حالة التقمص. فكل فرد يدخل بالإحتكاك مع إلهه أو مع الرمز الذي يعبده من خلال المعتقد الذي يشكل أساس التجربة.

بالطبع لا نستطيع تعميم "تجربة الإله" على جميع المؤمنين، لانها تستند إلى ظروف عدة منها الأرضية البيولوجية التي تحدد مسار السلوكيات والحالة النفسية الناتجة عن ظرف معين واكتساب الفرد للثقافة المشروطة من محيطه.

يقوم الرمز بالاندماج مع شخصية الفرد نفسها كي يتم التداخل مع الأنا الفردية، فينشأ عن هذا الإلتصاق حاجة نفسية في المنافسة ما بين الأفراد المنتمين إلى نفس الرمز، فحاجة الفرد في التميز عن الآخر تدخله في دائرة السباق التي تحثه على المبالغة بتنفيذ القواعد الدينية للرمز من خلال العبادة والصلاة، فتنشأ عن هذه الحالة عند الفرد حالة إدراكية داخلية واهمة لتتسع الهوة فيما بعد ما بين الإدراك الداخلي والواقع الخارجي. ولتوضيح هذه المسألة، سأتطرق إلى آلية التعرف على الأفكار المختلفة بين الأفراد والجماعات تحديداً، فمثلاً، ومن

ناحية عصبية يتم التعرف على وجه ما ومعرفة درجة صلته بنا عن طريق المنطقة اللحائية للدماغ، فهي التي تقدم لنا هوية الشخص المعني، بينما تقوم منطقة أخرى في الدماغ باستخراج معلومات القرابة والصلة، وهذا يتم عبر عمل مشترك للمنطقتين من خلال الألياف اللحائية التي تمد وتغذي التدفق الواعي للمعطيات.

من هنا نستطيع القول: إن استيعابنا أو إدراكنا للأمور الخارجية المرسلة من الذوات الأخرى، عبارة عن أنوات صدامية أو متوافقة فيما بينها، وذلك يعتمد على عامل الموروثات والثقافة والمحيط المشترك الذي يجمع بين أفراد الجماعات، أي أن "الأنا" الشخصي وما يتضمنه من مفهوم واسع للنصوص والكلمات والعبارات، يرتكز وبالتحديد على القاعدة البيولوجية أولاً، ومن ثم على المعلومات والتجارب المخزنة في ذاكرتنا الطويلة الآتية من ثقافة المحيط. ولا شك أيضاً أن عامل الخيال الفردي يلعب دوراً هاماً في فهمنا وتعاطينا مع الأمور من خلال "الأنا" المركبة، وهذا ما يلقب أيضاً بالنموذج الثقافي الذي تكلم عليه الأنتربولوجيون.

عودة إلى هذه الصور والتي تحمل في طياتها تفسيرات شخصية ومن ثم جماعية والقناعات حيث يبدأ الرمز بالانتعاش داخلها ليكتسب قوة مستقلة في عقل الفرد والجماعة، ومن بعدها يقوم باستلاب المنطق التحليلي عند الفرد، مما يؤدي إلى توقف الإدراك عند حدود لا تتجاوزه ويبدأ العجز الفهمي لما هو أبعد وأنضج من رمزه. هذه الحالة تشبه إلى حد بعيد حالة الفصام النفسي الفردي إلا أنها تبقى أشد خطورة منها لأنها تصيب الجماعة برمتها. فنستطيع تلقيبها هنا بحالة فصام جماعية معدية لأفراد الجماعة، لتشكل بعدها أسساً لثقافتهم، وتقتحم تالياً مورثاتهم التاريخية، فتصبح عملية التخلص منها أمراً صعباً للغاية، وفي هذه الحالة، تصبح الجماعة نظاماً مغلقاً على نفسه رافضاً للتغيير والانفتاح على ثقافات أخرى متشبثة بمفاهيمها مجاهدة في سبيل الحفاظ عليها.

يعتبر النشاط النفسي العقائدي من أهم الركائز المعتمدة من قبل الجماعة لترسيخ حالة من الخدر تشمل جميع أفرادها وذلك من خلال قيم ومعايير ومفاهيم لا تصب إلا في خانة التسلسل الهرمي السلطوي للجماعات. هذا النشاط يستند أولاً إلى عمليات إدراكية فردية حيث تمتزج جميع العوامل السيكولوجية والرغبات اللاواعية الجماعية والظروف المحيطة المؤثرة على توجيه إدراك أفرادها باتجاه يصب أيضاً في خانة التأقلم.

نظر فرويد إلى النشاط النفسي على أنه يبدو من جهة وكأنه شكلاً فرعياً من أشكال الروحانيات البدائية ومن جهة أخرى ومع اعتماده على رؤية ايمانويل كانط، بدا له وكأنه تصحيح للعمل الأولي في التلقي الخارجي استناداً منه لمقولة كانط التي تحذرنا من ضرورة تعاطينا مع الإدراك الخارجي الخاضع بدوره لظروف داخلية نفسية.

قبل الخوض في التفاصيل والعوامل المؤثرة، دعونا نقوم بعملية تجزئة، محاولة مني لإيضاح بعض الأمور عن طريق تفكيكها قبل القيام بجمعها لاحقاً، وسأبدأ الآن بشرح عملية الإدراك بشكل عصبي.

القسم الثالث الحلقة 5 ميكانيكية الإدراك

بعد سنوات عديدة، أطلت علينا نظرية "كوبينغ" لـ سوزان فولكمان وريتشارد لازاروس(*82) لتوضح لنا عدم سلبية الفرد تجاه الوسط المحيط، فهو لا يخضع سلباً للإلزامات الخارجية بل يتفاعل معها بنشاط مما ينتج عنه تلقي إدراكي ومن ثم تمثيل عقلي للحالة مما يتيح له وضع استراتيجيات للتأقلم، فهناك استراتيجيات متجهة نحو المشكلة وأخرى نحو المشاكل المحرضة للمشكلة.

نلاحظ اليوم وجود بعض المدارس النفسية التي تقوم على أساس البيولوجيا والأعصاب وهذا ما يسمى بعلم النفس العصبي أو البيولوجي، حيث إن القاعدة البيولوجية هي أساس التجربة النفسية، لنجد أن نشاط مليارات الخلايا تهيئ القاعدة العضوية للتفاعلات النفسية. فالأعصاب أو الخلايا العصبية تشكل وحدات قاعدة النظام العصبي. إذ إن التلقي الإدراكي يتم دائماً عبر الإحساس الذي يحث الأعضاء الحسية على التقاط المعلومة الخارجية لنقلها إلى الدماغ، كي يكون الإحساس عملية تمهيدية لعملية الإدراك، فهو قبل كل شيء (الإحساس) عمل ترجمي يحوّل الطاقة الداخلية إلى أداء. في ذات الوقت يقوم الدماغ بجمع المعلومات وتنظيمها ليباشر بعدها ترجمة الأحاسيس، وهكذا تتحول الأحاسيس إلى لغة نفسية معينة.

إذن، الإدراك عبارة عن عملية بناءة وإبداعية، فمن منظور تطوري نجد أن القدرة على ترجمة الأحاسيس كالسمع والرؤية... هو ناتج عن ملايين محاولات التأقلم. فدقة بناء النظم الحسية ناتجة عن تطورات عديدة، فإذا أخذنا على سبيل المثال الرضيع الذي يستطيع فك الإشارات التعبيرية الموجودة على وجه والديه، نجدها تنعكس عليه بصورة مباشرة كإشارات داخلية نفسية. كما نلاحظ أيضاً قدرة الإنسان على تطوير أحاسيسه على مدار الزمن من خلال التجارب والملاحظات التي يمر بها، فالشعور ليس هو فقط ردة فعل كما كان متعارفاً عليه، بل هو منبع دراسة وغرض إتصال.

في البدء انقسم علم النفس إلى موقفين مغايرين، إلا أنه اليوم بدأ بجمع نظريات عديدة تتلخص بدور المعطيات الحسية وتأثير التجربة وقدرتها على تنشيط الآليات الوظيفية الوراثية.

إذن، يعتمد الإدراك على عمليتين في وقت واحد؛ الأولى: خلق المحيط لأنماط من الصور في الدماغ ومن ثم معالجتها من خلال الأحاسيس المتفاعلة مع المعلومات، لأن جميع المفاهيم المتبناة من قبل مجتمع ما، نتجت من خلال التعاطي النفسي لأفراده وقدرتهم على معالجة المعطيات الخارجية.

لننتقل الآن إلى مفهوم النفس الإنسانية، فنراها منفلتة من واقع لا ندركه بشكل كامل فإدراكنا للخارج مازال جزئياً والبحث عن حقيقة نفسية ما إن هي إلا صوراً تفاعلية تندمج بها المشاعر والأحاسيس، وكل ما يتداخل في لاوعي الإنسان مع الواقع الخارجي لإتمام عملية الإندماج وإضفاء صيغ ومفاهيم هي بحد ذاتها لا تشكل واقعاً ملموساً.

فليس هناك علاقة واضحة ما بين الواقع الخارجي والداخلي، فالصورة النفسية ليست بصورة ولا بتسجيل مطابق عن الخارج، بل هي علاقة منطقية بين هذين العالمين ويتجلى هذا بالقوانين الثلاث الموضوعة لـ"ويبر، فيشنر وستيفنز"؛ إذ إن هناك علاقة ما بين الحاسة والمحفز الفيزيائي المنظم والمرجح في آن واحد.

من وجهة نظر خاصة، أعتقد أن توسع الإدراك من أجل التحلي بوعي أكبر يعتمد على الإرادة والرغبة الفردية في عدم تبني "الأنا" المعرفي الشخصي كمرجعية ثابتة، كما أن الفرد الساعي دوماً لاثبات "أناه" في كل ما تحمله من نموذج ثقافي ومعرفة خاصة وتجارب وخيال، لا يمكنه أن يتجاوز هيكلته للتوصل إلى إدراك أكبر ليجعله في حالة إصغاء وتفهم "للأنوات" الأخرى المختلفة عنه. فتحجيم "الأنا" ليس بالضرورة نسف الذات، بل على العكس هو محاولة لفهمه كي تخرج "الأنا" الضيقة من أفخاخها التي تحاول حصر الفرد ضمن حلقة معرفية محدودة.

82-كتاب سايكولوجي، الفكر، الدماغ والثقافة ل"درو ويستون" الفصل الحادي عشر تحت عنوان "الشعور، الضغط والمواجهة" صفحة 619.

القسم الثالث الحلقة 6 إعلان الإدراك عن نفسه

يستند الإدراك إلى التنظيم وترجمة المحسوسات حيث تكون مهمة التنظيم تحديد معنى الأحاسيس للاحتفاظ بمعانيها، فآلية التنظيم تستند إلى عدة عوامل منها الإدراك الغشتلطي(*84) الذي يقوم بتقسيم الأشياء الموجودة في المحيط إلى وحدات، كمثال (تقسيم الكلمة إلى أحرف)، كما تقوم الترجمة بإعداد معاني ترتكز عليها من خلال التجربة الحسية، لهذا لا يمكننا التحدث عن فطرية خصائص النظام العصبي ولا يمكننا أيضاً الاعتماد على مبدأ الاكتساب بشكل كامل، أي أن الخصائص البيولوجية لا يمكنها الوجود إلا من خلال محيط يساعدها على الظهور، فالاكتساب المعلوماتي يهيئ لنا قاعدة واسعة للإدراك الخارجي.

دعونا نتمعن في ظاهرة سماع ما نرغب سماعه، ولنرى تأثير المحرك المعرفي على العملية الإدراكية الواعية. فالتوقعات الناتجة عن تجارب فردية أو جماعية إضافة إلى الثقافة المكتسبة من المحيط المنعزل تقود جميعها عملية الإدراك بشكل ثابت، أي أن المعرفة والمعلومات المتنوعة والإطلال على النماذج الثقافية الأخرى ووجهات النظر المتضاربة تقودنا إلى حقل أوسع من الإدراك وأكثر قدرة على التحول والتلاؤم مع تغيرات المحيط.

فإذا نظرنا إلى آلية اكتساب المعرفة المتمثلة بإدراك واستجلاء المحيط المعرفي لكل الأمور الخارجية، نراها من وجهة نظر عصبية معتمدة على قدرة الفرد واستعداده الدائم للتشكيك بكل ما أسس عليه من معتقدات، أو رؤى.

ففي كل مرة نقوم بمحاولة معرفة شيء ما، أو الاطلاع على أفكار مختلفة عن أفكارنا وعن الأسس التي تشكل القاعدة لعملية الوعي والتي تتطلب منا التحرر من جميع ركائزنا ومعتقداتنا الأنوية ومفاهيمنا، لنقوم باستعراضها ثانية وترميمها مع كل المستجدات من أفكار ومعتقدات ودراسات، فعندما نستطيع إعادة تفكيك المبنى الأنوي وصياغته مجدداً وبشكل مستمر، نستطيع عندها تجاوز بعض الهضبات والتلال الوعرة.

وقبل الخوض في تعريف المبنى الأنوي، دعونا نقوم بتعريف معنى المعرفة والذي يشكل جزءاً مهما من هذا المبنى. اعتبر الفيلسوف ديفيد هيوم أن المعرفة مستندة إلى الإنطباعات الحسية فلا يمكنها أن تكون دقيقة لأنها ناتجة عن محاولات شتى للتفكير معتمدة بذلك على الأسباب والنتائج المترابطة والناشئة من تكرار الإنطباعات الحسية. أما اختصاصي الأعصاب ليونيل نكاش فقد قام بالفصل بين المعلومة والمعرفة، فاعتبر أنه في معظم الأحيان يتم خلط مفهوم المعلومة بالمعرفة ليضيع المعنى الأساسي للمعرفة نفسها. مما لا شك فيه أن المعرفة تستريح على قاعدة من المعلومات المتوافرة، فحسب تعريف نكاش للمعرفة وجد أنها "رواية الأنا" الجامعة لمفاهيم وأخلاقيات وقناعات وتجارب وخيال... أسست لتوجه إدراكنا في منحى يلائم مبناها ليصبح الإدراك مشروط بها، فإذا رغبنا باكتشاف ما لا نعرفه أو أردنا السعي نحو إدراك أوسع للمعلومة لتحويلها إلى مفهوم معرفي، علينا أن نضع "رواية الأنا" على كفة

الميزان لإعادة تغيير في مبنى "الأنا"، ففي كل رحلة غوص استكشافية، يتوجب علينا خلع جميع المكونات الأنوية الناتجة عن معتقدات وأسس تراكمت في ذاكرتنا لتشكل جداراً استبدادياً وقمعياً. كما أن سعينا نحو فهم الأنوات الأخرى للوصول إلى معرفة جزئية يقوم على أساس هدم مبنى الأنا تدريجياً واستبداله بأفكار وقناعات أكثر انفتاحاً على الغير مع محاولة فهم الوجهات المختلفة كي نتمكن من بناء معرفة جزئية والإنطلاق في رحلة استكشافية لكل ما يغلفنا ويحيط بنا. عندها فقط نستطيع ابتداء رحلة الوعي.

أما المبنى "الأنوي" فهو مرتكز وبشكل أساسي على التعاليم المكتسبة من الثقافة الجماعية وهذا ما نلقبه بالوعاء الجماعي، لأنه يحوي كل الأفراد تحت بطانة من معتقدات ورؤى ومفاهيم حيث يتداخل الوعاء الثقافي الواسع مع وعاء أصغر منه وهو الأسس التربوية الأسرية والتي تختلف بدورها ببعض التفاصيل ما بين أسرة وأخرى، ناهيك عن تداخل الأوعية الخارجية مع القاعدة البيولوجية لكل فرد، فنجد أن المحيط الخارجي له تأثير كبير في ظهور أو انضمار بعض الجينات. كما أن التشبث بمعتقدات وأفكار ثابتة، من وجهة نظر بيو-عصبية، تجعل الفرد عاجزاً عن التعلم المختلف، أو بمعنى عصبي، يتم القضاء على احتمال تغيير المشابك العصبية للوصول إلى إدراك أوسع ناتج بحد ذاته عن حالة التعلم(*85). كما نلاحظ أن جميع عمليات التعلم معتمدة في البدء على الإرادة. فآلية تداولها تتم بشكل واع كي تتجه فيما بعد الى اللاوعي الذي يحتوي على نشاط غني بتمثيلات عقلية(*86) تتضمن أفكاراً ورؤىً وتجاربَ مختزنة.

وبما أننا نتكلم عن الثقافات الثابتة، فلا بد لنا من إلقاء نظرة على أخلاقيات الأديان الثابتة وعلى ينبوعها المرتكز على النشاط النفسي المؤجج للمشاعر المتعاكسة فيما بينها، كالخوف والطمأنينة، الرعب والأمان... لنجدها عاملاً رئيسياً في قوقعة وانعزال الفرد وجماعته. عدا عن ذلك، تعتبر الأديان المؤثر الأكبر في تجميد الفكر الإنساني وخلوّه من الإبداع والإكتشاف، فكما نعلم أن الإكتشاف هو أساس المعرفة القائم بحد ذاته على مبدأ النقض والتشكيك، مما يعني أن التخلي عن مبدأ النقض هو تخلٍ عن الإكتشاف وبالتالي عن المعرفة أيضاً، لأن المعرفة ناتج استكشافي، والاكتشاف حصيلة إستفسارات عدة لملاحظات وأفكار شتى للواقع الخارجي، ومن هذه الحصيلة تتأسس الفرضيات لإنشاء النظريات فيما بعد ووضع البراهين لإثباتها في مرحلة لاحقة.

من هنا لا نستطيع القول: إن الحقائق التي نتخذها كمرتكزات لحياتنا قائمة على أسس سليمة وصحيحة لأنها منبثقة من تجاربنا النفسية المتزاوجة مع جزئية إدراكنا للمحيط. لذا علينا أن نتبنى فكرة الهدم والبناء مجدداً أي تبني القناعات القائمة على أساس أنها قابلة للتحول والتغير ككل شيء متغير في هذه الحياة منذ نشأتها وتطورها، وذلك لأن حواسنا ونظامنا العصبي مرتبط بالتجارب الإنسانية الواعية والملاحظات المتكررة.

من هذا المبدأ علينا أيضاً التوجه نحو ربط العلوم فيما بينها، أي دراسة النظريات والإطروحات كاملة وجمعها وإيجاد التقاطعات لتحقيق قفزات أكثر إتساعا وكسب إدراك

يتجاوز المفهوم الإنساني ليشمل العناصر الطبيعية في الحياة، وعندئذ نستطيع فقط الإقتراب من إنشاء علاقات مترابطة لامتناهية تلم شمل الوعي الإنساني.

مما لا شك فيه أن كل منا يختلف في إدراكه للأشياء وللخارج الواقعي، لأن الإدراك نفسه مبني على تمثيلات عقلية مرتكزة على قناعات وتفاسير ملخصة بـ "الأنا". ولذلك، علينا أن نسعى دوماً نحو إعادة الحسابات الموجودة في هذا المبنى، وهذا لا يتم إلا من خلال النقد والمحاولات المستمرة في تقبل الأفكار المختلفة عنا وقبول الخطأ للوصول إلى صواب جزئي، فكلاهما متلازمان، وهما إنعكاس لمحاولات جمة هدفها الوصول إلى وعي أكبر لكل ما هو خارج عن إدراكنا الأنوي.

وبما أن الإدراك مستند على القناعات الآتية من ثقافة الجماعة، وبما أن الجماعات الدينية تستلهم أسسها وقدراتها التحليلية من فرضية الإله والروحانيات، يحق لنا إثارة الإستفهام حول موقف العلم منها، فمثلاً، ما كان يثير تساؤلنا في الماضي عن وجود وعي سابق للمادة، دخل اليوم عند كثير من العلماء في سباق البداهة، فلا وجود لوعي يسبق المادة، فالنفس هي ناتج تجارب عديدة مرتكزة على أساس بيولوجي، ومكوناتها من ذرات والكترونات، موجودة في الطبيعة نفسها، فنحن جزء صغير من هذه الطبيعة ووجودنا لا يشكل فيها إلا وجود واع بسيط.

قد يكون من المستحب أن نقوم بتصليح بعض المفردات المتداولة، فالأجدر بنا مثلاً وصف الروح بالنفس لأن جسدنا الحي مرتكز على تجارب نفسية، فالحياة موجودة في كل الذرات والإلكترونات المتبعثرة في الكون، وليست حصراً علينا. فيحق لنا أن نَصف المادة على أنها عبارة عن جزيئات للحياة وما يفرقنا نحن الكائنات الحية عن هذه الجزيئات، هو اجتماع المواد مع بعضها لتكوين أحاسيس نستطيع من خلالها الألم والاكتفاء.

ثمة من سيتساءل عن ضرورة الألم لدينا ليعطي تفسيراً غيبياً، لكننا ندرك أن الألم هو ضرورة وقائية للبقاء والاستمرار في هذه الحياة، فكما نعلم أن النظام العصبي عند جميع الكائنات الحية تمكن من تطوير نفسه لحاجته الملحة في درء المخاطر عنه.

قبل أن أخوض في دراسة تفصيلية لعملية الوعي والإدراك، أرغب في التوقف قليلاً لأتكلم أولاً عن معنى الحياة نفسها.

**84-الإدراك الغشتلطي والمستوحاة من علم النفس الشكلي، يعني تنظيم الأحاسيس إلى أنماط عدة حاملة لمعان مختلفة بهدف ترجمة المعلومة الحسية إلى مفاهيم عقلية.*

**85-في كتاب "سايكولوجي، الفكر، الدماغ والثقافة" لدرو ويسترن صفحة 259، أجريت تجارب عديدة على حلزون "ايليسيا" (تجربة بيلي وكاندل عام 1995) وتجربة (مارتينيز وديريك عام 1996)حيث اتضح للباحثين في هذا المجال ان الأشكال التقليدية للتعلم تحرض على التغيير على مستوى المشابك العصبية.* وهناك شرح مفصل *صفحة 145-146 تحت عنوان المحيط، الثقافة والدماغ حيث تشرح الدراسات العصبية دور المؤثرات الاجتماعية*

والثقافية وكل مؤثرات المحيط على الدماغ وخصوصاً على المناطق اللحائية التي تشارك في عملية التفكير والتعلم (تجربة داماسيو عام 1994) و(تجربة غوتو عام 1971).

**86-التمثيلات العقلية عبارة عن تمثيل لصورة أو مفهوم أو فكرة أو حالة يمكنها أن تكون واقعية أو خيالية، فهي تلك الحال المعبرة عن صورة يعيشها الفرد لحالة معينة تتقاطع بها الأحاسيس والذاكرة، فهي مجموعة محتويات مرتبطة مع بعضها البعض.*

القسم الثالث الحلقة 7 الحياة بين الإلزام والحرية

دعونا نتساءل في البدء عن معنى الحياة وعن الإلزامات التي تقيضنا نحن كأفراد من أجل إضفاء صيغ وقوانين تحد من حرية الفرد تجاه الجماعة؟ والهدف من هذه الإلزامات؟

كثير منا يعلم أن الهدف الرئيسي للحياة يصب في التكاثر الضروري لتطور البشرية مما يعني تفضيل الآخر عن نفسه، وذلك نراه في تضحية الأهل لصالح الأولاد، وصحيح أيضاً أن حب الأولاد آت من حب امتداد الأنا واكتفاء الرغبة الدفينة في الخلود، فبالرغم من خلق الإنسان لآلهة كثر وجنات عدة إلا أنه يدرك في أعماق نفسه أن خلوده لن يتم إلا بيولوجياً أي عن طريق الجينات المتوارثة.

نلاحظ أن الإنسان استطاع على مدار الزمن تأطير الغايات الغرائزية وتحويلها إلى فضائل ضمن مفاهيم جماعية منظمة تصب في مصلحتها. فنلاحظ أن البعض من التفاعلات النفسية تم قمعها وطرق على البعض الآخر عملية تصعيد، فتمت عملية إضفاء معانٍ سامية عليها تحت خانة "خير البشرية" (مع أن الخير والشر متغيران أيضاً حسب المكان والزمان).

استطاع الإنسان وتحت الغطاء الجماعي خلق مفردات ونصوص وخطابات وأيديولوجيات... لإقناع الأفراد بجمال محتواها لتصب أخيراً في خانة المصلحة الجماعية وخانة الأفراد القلة القائمين على هذه الجماعات.

فإذا نظرنا، على سبيل المثال، إلى مبدأ التضحية كغاية في الحياة وأقررنا أن مبدأ التضحية من أجل الآخر هو هدف للحياة نفسها، وذلك للوصول إلى فكر أعمق ووعي أكبر لخير البقاء البشري. نجد أن مبدأ التضحية كان ضرورياً في فترة زمنية معينة وخطوة هامة خدمت البشرية في عصرها وساهمت في مرحلة ما في تطور الجماعات. ولكن، مما لا شك فيه، أن المراحل الزمنية تحتاج كل منها إلى مفاهيم ومبادئ مختلفة عن سابقتها وذلك خدمة للبشرية ولتطورها المستمر. فمثلاً، عند قراءة التاريخ، نجد أن جميع الخرافات التي فُرضت على الجماعات، كانت بهدف تقوية واستمرارية العرق البشري وتجلى ذلك من خلال تضحية الحاضر من أجل المستقبل، ليتخلى الفرد عن اكتفاءاته الآنية للتمتع بها لاحقاً بشكل مطول، وهذا ما نراه على نحو واضح في عمق التفكير الديني وفي الأساطير القديمة والقصص الشعبية المتوجهة لغرس تمثيلات عقلية لدى الأفراد بضرورة نبذ وقمع السعادة الفردية الأرضية للحصول على سعادة وتحقيق الاكتفاءات المستمرة لما بعد الحياة، أي ممارسة العقاب الأرضي على الذات من أجل الحصول على مكافأة سماوية. كما نلاحظ أيضاً ارتباط مبدأ التضحية في بعض الديانات ليرتبط بغيبيات خرافية مشحونة بسلبيات ممتزجة مع تفاعلات نفسية مقموعة، لتؤجج ثقافة صلب الذات وجلد المعرفة، وتبتعد بذلك الجماعة عن فهم المغزى البيو- نفسي للألم.

لا شك أن مبدأ التضحية أتى نتيجة قمع الاكتفاءات الفردية، ولصالح مبدأ الهيمنة الجماعية والتي جاءت كبديل للذات الفردية، ليتم تحويل هذه الذات إلى طاقة نافعة للجماعة، وذلك على حساب الفرد ولتصب أيضاً في مفهوم التضحية.

عودة إلى الألم من منظوره العلمي، نجد وكما وضح "ديلجادو" ارتباط العنف مع حالة الألم الممارسة بالتحديد على الفرد المستعبد من خلال آلية المكافأة والترفيع في المناصب، وهذا ما نراه بشكل جلي في الأديان التي ترتكز على نفس المبدأ من خلال إعطاء جنة تداعب خيالات الأفراد لتهبهم ما حرمتهم إياه على الأرض.

مما لا شك فيه أن مبدأ التضحية أخذ أشكالاً عدة تصب كلها في مصلحة الجماعة والبقاء البشري، ومما لا شك فيه أيضاً أن مبدأ التضحية كان خطوة هامة في زمن ما. ولهذا نستطيع القول: إن الأيدلوجيات سواء كانت دينية أو عرقية أو اجتماعية، ساهمت في مرحلة ما في تطور الجماعات، لأن ازدهار الجماعة بُني على حساب الأفراد، وعملية التصعيد المستمرة كانت خطوة هامة لبناء الحضارات وانتقال الإنسان من ضرورة اكتفاء حاجاته البيولوجية الفردية إلى ضرورة العمل تحت إطار جماعي والتضحية من أجله. لكن يحق لنا في عصرنا الحالي التمعن في هذا المفهوم مجدداً لإيجاد مفاهيم جديدة تصب، ربما، في ينبوع المصلحتين معاً.

لا شك أن الحضارة البشرية ناتجة عن تطور مرحلي للوعي والإدراك المتغير حسب المنظور المنفعي للبشرية والتي تخدم استمرار العرق الإنساني. من هنا، أعتقد بضرورة العمل على إعادة الحرية للفرد أولاً والحد من قمع غرائزه من أجل العثور على توازن سليم ما بين المصلحة الفردية والجماعية. فالهدف الرئيسي هو إيجاد وعي أكبر لتحرير الفرد من جميع الإلزامات التي قيدته بها الجماعة وإيجاد توازن بينه وبين مصلحة الجماعة. ولا شك أيضاً أن التغير البيئي الذي نلحظه في هذا العصر، يحتم علينا عدم التوقف عند هذا الحد من التوازن الفردي- الجماعي، بل يدفعنا إلى إيجاد توازن بيئي ما بين الكيان الإنساني والكائنات الأخرى والطبيعة الأم، للتمكن من إدراك الحياة كاملة، ومنها نستطيع إدراك الحرية بمعنى أشمل.

وبما أنني تطرقت إلى موضوع الحرية، فدعونا نراجع بعض ما ذكره بعض الفلاسفة بشأنها. فنجد أن ايمانويل كانط، على سبيل المثال، قام بالتمييز ما بين الحرية الداخلية للفرد التي تقوم على مبدأ الحكم على الأشياء من خلال نظرة داخلية للإنسان، وبين الحرية الخارجية التي تتمثل بحرية التعبير في مجتمع ما يسمح فيه للفرد بالتعبير عما يجول في عقله من أفكار وأحكام من دون اللجوء إلى الغير لتبني أحكام قامت الجماعة بصياغتها بدلاً عنه.

فالحرية الخارجية تتيح للفرد استخدام حريته الداخلية ليشارك في النقد والهدم والترميم. أما في حال عدم امتلاك هؤلاء الأفراد الحرية الداخلية بالرغم من وجودهم داخل مجتمعات تتمتع بحريات النقد و التعبير، إلا أنهم يبقون عبيداً، عاجزين عن البحث والعطاء. فالحرية الداخلية لا تتجزأ عن الخارجية، فمن خلالها يستطيع الفرد مراجعة ما فُسر أو كُتب من الغير وإخضاع الأمور إلى الذات المعرفية والتحليلية والتي من خلالها تتكاثر الأسئلة لتكون محفزاً

أساسياً للوصول إلى أحكام ذاتية. فالعبودية والحرية خاضعتان لقوانين الجماعة من جهة، وللفرد من جهة أخرى. حيث يمكننا من خلال الحرية الداخلية إنضاج أفكار تستطيع توجيهنا نحو البحوث المستمرة، لاكتساب قدرات وإمكانيات تساعدنا في الوصول إلى فهم تاريخ البشرية وفهم الطبيعة والحياة معاً، ولاسيما أن الحياة كما نعلم ليست حصراً على الكائن الانساني فقط، بل تشمل الكائنات الحية كلها حيث نشكل جميعاً عناصراً حياتية مترابطة مع العوامل البيئية الخارجية.

مما لا شك فيه أن هدفنا الأساسي في هذه الحياة هو الإرتفاع بوعينا وإدراكنا لاحتواء ما هو حي. فالإنسان استطاع وعبر الزمن تطوير جهازه الحسي للإرتقاء نحو إدراك أوسع وفهم أشمل. لهذا يمكننا تلخيص الحياة بكلمة واحدة وهي الحرية. هذه الحرية التي نسعى إليها تدريجياً تدعونا إذا أحسنا لمسها أن نتخلى عن رؤى ضيقة محدودة.

القسم الثالث الحلقة 8 آلية استقبال الصور الخارجية

لا بأس من إلقاء نظرة على آلية عمل الدماغ البشري للتعرف على بعض النظريات التي تعنى بهذا الأمر، والتي سنقوم بدراستها بعيداً عن ما تعلمناه من أساطير وخرافات. ولكن قبل الخوض في الآلية، دعونا نتطرق إلى مسألة رفض الأفراد للأفكار الخارجة عن قناعاتهم، أو بالأحرى المختلفة عن "الأنا" الفردية وميل الأفراد إلى ترجيح كل ما هو متكرر، ويدعى ذلك من وجهة نظر عصبية، ترجيح الإحتمال المؤثر*(87). وهذا ما يفسر لنا "استنساخ الأفكار والمنهجية مبتعدين عن تقبل كل ما هو خارج عن الإطار "الأنوي" المعرفي والنمطي". فالتعلم واكتساب المعرفة يعتمدان على قدرة في تجميد "الأنا" المعرفي لاستطاعة سماع أو قراءة ما يختلف عنه. كما أننا جميعاً، ومهما اختلفت نماذجنا الثقافية والاجتماعية، تم تلقيننا منذ صغرنا معلومات موجهة أو تعاليم مشروطة تسللت إلى الدماغ الفردي وانغرست به من خلال خلق صور أو تمثيلات عقلية تم تكرارها مراراً وتكراراً، كي تكون الموجه اللاإرادي لكل فرد منا. كما أنه من الطبيعي أن يجد الإنسان صعوبة في خلع معطفه الثقافي وبكل ما يحويه من سلوكيات وقواعد، والإعتراف بعملية "اغتصاب" مورست ومازالت تمارس عليه إلى يومنا هذا من قبل جماعته. من هنا أقترح أن نضع أحاسيسنا واختلاجاتنا في علبة صغيرة لوقت ما، وخصوصاً عند قراءتنا لأفكار أو فرضيات أو نظريات مختلفة عما هو مغروس في دماغنا، كي نستطيع الغرق في كل العلوم. لهذا أجد أنه من الضروري إعادة تفكيك الأديان لاحتوائها على صور عقلية خالية من المرونة، فهي ترسخ التشنج الفكري لدى الأفراد وتزيد في عزلتهم العقلية عن كل ما هو مستجد ومعرفي. وبما أن الأديان لا تملك تلك الصيغة المتغيرة، بل تعتمد على قواعد وأسس ثابتة جاءتنا كنتيجة متقدمة زمانياً عن الخرافة التي تمكنت من خلق مساحة واسعة لها في نواة الأديان. فعلى الرغم من اكتساب الدين قوة مستقلة إلا أن الخرافة استطاعت أن تتغلغل فيه وذلك لرغبة الكتل الجماعية في استمرار عاداتها وتخيلاتها الخرافية وممارسة معتقداتها القديمة، فنرى كيف ارتدى الدين ثوب الخرافة من أجل استمراره ولرغبة مؤسسيه في نشر ما جاؤوا به من جديد. فمن الصعب بتر ممارسات ومعتقدات موجودة عند الكتل بشكل كامل وخاصة أن المعتقدات عبارة عن ناتج فكري واع لدى الجماعة. فإذا رغبنا في تغيير معتقد ما علينا بهدم جميع الصور العقلية الموجودة في الدماغ لبناء صور أخرى، وهذا العمل لا يمكن تحقيقه إلا تدريجياً، فمن السهل إعطاء الجديد من الأفكار تحت عباءة قديمة، أي استخدام نفس الصور وتغيير شيءٍ من محتوياتها.

نعود الآن إلى عملية التطور نفسها لنرى ما قام بوضعه الباحثون والدارسون في مجالات مختلفة وما سعوا إليه من تفاسير علمية تستند إلى التجارب وليس الخيال، مع أن الخيال

الفكري يعتبر المحرك الأساسي للإبداع، إن كان إبداعاً علمياً أو فنياً... إلا أن ما يميز هذه النظريات العلمية القائمة أيضاًعلى الخيال الفردي عن الخيال الخرافي أو الديني أو الروحاني، فهو إن هذه الفرضيات العلمية تخضع إلى البحث التجريبي ويشرف عليها طاقم من خبراء علميين من أجل اثباتها أو دحضها. وتحت إشراف هذه المجموعة يجري إعطاء أجوبة لأسئلة تطرح من أجل الحصول على تأكيدات من خلال العلاقات الملاحظة بين الظواهر المتنوعة ومن أجل إيجاد البراهين لإثباتها. ورغم صحة القول: إن النظريات عموماً عبارة عن منشآت عقلية وتفاسير معتمدة على ذاتية الطاقم القائم عليها، إلا أننا نستطيع الإستنتاج على أنها أكثر موضوعية وأقرب إلى الواقع في نقلها وشرحها من التفاسير القائمة على النشاط النفسي فقط كالأديان ومعتقدات ما وراء المادة.

أوضحت لنا النظرة التطورية وقوانين غشتلت طريقة تنظيم الدماغ للتجربة الإدراكية لتعكس لنا قوانين الطبيعة، فكما نعلم، إن عملية التلقي الإدراكي تقوم على أساسين هما النظام والتفسير؛ فالنظام النفسي يعكس لنا نظام الطبيعة بينما التفسير يعكس لنا التجارب المختزنة في الذاكرة والتي يقوم الدماغ على أساسها في اختيار تفسير محدد ليقارن الصورة الخارجية بالصور المختزنة في الذاكرة، فبحسب النموذج الإتصالي، وهو أحد الطرق المستخدمة في مجال العلوم الإدراكية والتي تحاول أن تطرح نماذج لمظاهر سلوكية وعقلية استناداً منها إلى علم الشبكات العصبونية الشارحة لعملية التصنيف الحاصلة في دماغنا من خلال التشابهات الموجودة. فآلية تخزين مفهوم ما في الذاكرة، تتم من خلال العقد المشتركة (التي تشكل شبكة كاملة من وحدات معالجة) مع المعطيات الإدراكية الحاضرة في حال امتلكت التجربة الإدراكية الناشطة عقداً كافية يستطيع المحفز تصنيفها كمفهوم ليقوم بتسجيلها في الذاكرة، فمعظم النماذج الإتصالية تعتمد على الزمن كعامل تغير أساسي لأن الشبكة تتغير مع تغير هذا العامل.

أما بالنسبة لدور الإحساس والإدراك، نجد أن الإحساس يتولى من جهة عملية استقبال المعلومة المرتبطة بالمحيط من خلال الأعضاء الحسية ليقوم بتحويلها إلى الدماغ وبدروه يقوم الدماغ بمعالجتها عن طريق قيامه بتصنيف وترتيب وتفسير الأحاسيس وهذا ما نسميه بالإدراك. فالترجمة الإدراكية تنشأ عن تقاطع الإحساس والذاكرة معاً، هذه الترجمة تستند إلى قاعدة من المعلومات والتجربة المتشكلة من المحيط من خلال خلق توقعات وهو ما نسميه: التوقع الإدراكي.

مما لا شك فيه أن هناك آلية لانتقاء التمثيلات العقلية في الدماغ والمتعلقة بإدراك ووعي الإنسان المتغيران حسب الزمان والمكان والرغبة الإرادية الفردية في تفكيك وفهم جميع الآليات، كي تزيد لدى الإنسان فرصه للتغيير. لكن قبل كل شيء دعونا نقوم برحلة في دماغ الإنسان والمرور على بعض الدراسات التي فسرت لنا هذا التطور.

87-ترجيح العرض المؤثر لزاجونك، مشروح في فصل آلية انتقاء التمثيلات العقلية.

القسم الثالث الحلقة 9 تطور الدماغ

إن التغير الذي طرأ على الدماغ كان قد حدث لأهم بنيتين فيه، وهما (الهايبوكيمبس والاميجدلا) حسب الدراسات التي قام بها ميكائيل بيرسينجر. فقد ساهم ظهورهما المرافق للفص الصدغي الدماغي في اكتسابنا خصوصيتين مهمتين؛ القدرة على التذكر، والمحاكمات العقلية، أي تقييم الأشياء والأحداث المختزنة في الذاكرة القائمة في الأساس على تجارب ناتجة عن قيم جماعية متمثلة بالمكافأة أو العقاب والمشاعر المرافقة لهما، ليصبح (الهايبوكيمبس) مع الزمن ممراً للتجارب الصورية، فنجد أن المحفزات المؤثرة في هذه المنطقة الدماغية تستطيع إنعاش ذكريات ماضية كما أنها تستطيع إضفاء خيالات وفانتازيا عدة عليها، أما (الاميجدلا) فقد أصبحت مركزاً للتحكم في المشاعر المنبثقة عن هذه التجارب، فمن خلال هذه المشاعر نستطيع التعرف على الفرح والبهجة أو الشعور بالخوف والإكتئاب الشديد. أي أن الذاكرة هي أساس تطور الوعي عند الإنسان وخصوصاً الذاكرة الطويلة، فبفضلها نستطيع تخزين التجارب المتراكمة.

في كتابه، بيولوجيا الوعي لجيرالد ادلمان اختصاصي البيولوجيا ومدير المعهد العصبي في "جولا" بكاليفورنيا، قام بتحليل المؤثرات الجينية على السلوك وبشكل متبادل تأثير السلوك على الآليات الوراثية، فقد حدد كيفية تأثير الانتقاء الطبيعي على السلوكيات وبدور معاكس تأثير السلوك على عملية الإنتخاب الطبيعي ومساهمة المورفولوجيا في عملية تطور الوعي الذي نشأ من عملية انتقاء الجملة العصبية وتطورها تدريجيا (التطور المورفولوجي).

سنتوقف قليلاً عند العلاقة ما بين التوريث الجيني والاصطفاء الطبيعي من أجل اكتساب سلوكيات غير موروثة، لكن قبل الحديث عن هذه العلاقة، علينا أن نعطي لمحة تاريخية سريعة عنها.

أول من وضع القاعدة الأساسية للجينات هو غريغور ماند، ليمهد الطريق أمام الباحثين في الجينات والتطور، مما أدى إلى جمع النظريتين "الداروينية" و"الجينية" داخل إطار واحد، وعلى هذا النسق استطاع الباحثون تقديم تفسير لعملية ارتباط الدور الجيني بالاصطفاء الطبيعي للبيئة، وتسليط الضوء بشكل أفضل على تطور البنية العصبية الدماغية.

لنأخذ تدريجياً عملية التطور التي حدثت في نظامنا الدماغي وهنا سأعتمد على ما اقترحه ادلمان مع ما يقوله علم الأعصاب، حيث نعلم تماماً أن الدماغ قد تطور واكتسب ميزات مع مرور الزمن. لكن قبل الكلام عن الدماغ، لا بد لنا أن نتكلم عن حالة الوعي عند الإنسان وكيفية نشوئه.

القسم الثالث الحلقة10 تطور الوعي

لا شك أن الوعاء الثقافي بما يحمله من معتقدات وعادات وسلوكيات هوحصيلة درجة الوعي لدى جماعة ما، ومما لا شك فيه أننا جميعا نسعى إلى رفع وعينا من أجل إدراك كل ما هو مستعص عن إدراكنا في وقتنا الحالي. وربما أيضاً علينا العودة إلى الماضي وفهم ما كان غامضاً على الإنسان وما جعله فريسة لمخاوفه النفسية، ليلجأ إلى إخمادها عن طريق الخرافات والروحانيات ومن ثم الأديان. وربما آن الآوان أن نفهم آلية تطور الدماغ عبر الزمان من خلال بعض النظريات العصبية لدماغ الإنسان (الهايبوكيمبس والاميجدلا) واللذان ساهما في اكتسابنا خصوصيتين مهمتين وهما: القدرة على التذكر وتقييم الواقعة، فنجد أن الاستذكار مرتكز على الشحنات العاطفية والأحاسيس. فكما وجد ميكائيل بيرسينجر التغيير الذي طرأ على (الهايبوكيمبس والاميجدلا)، نرى أن جيرالد ادلمان قد أضاف لنا مفهوماً آخر كان قد ساهم في تطور الدماغ عند الإنسان، ألا وهو (القيمة) التي ترتبط بالتاريخ الفردي وكل ما نتج عنه من اكتساب لخبرة ما.

طرح هنري لابوريت أثر الثقافة الاجتماعية على الذاكرة والتي تسمح بخلق تلقائيات عند الفرد وهذا ما نسميه بالتصنيف الثقافي، أي أن الثقافة والبيئة تحددان مسار الذاكرة في حفظ المعلومات الملائمة لثقافة جماعتها ولمتطلباتها أو حاجاتها الجديدة، ولتعريف الحاجة الفردية المرتبطة بالثقافة الجماعية، افترض لابوريت على أنها عبارة عن كمية من الطاقة أو المعلومة الضرورية للمحافظة على البنية العصبية الأصيلة أو المكتسبة الناشئة عن عملية التعلم، كما شرح هذه الآلية على أنها تحول مستقر في المشابك العصبية من خلال العملية الحيوية التي تقوم بها الخلية بتصنيع السلاسل الببتيدية من أجل تشكيل بروتينات تدخل في تكوين وصلات عصبية جديدة تجاوباً مع الأحداث الخارجية المستجدة، وهنا تصبح الحاجة محركاً أساسياً، فلا يمكن إشباع هذه الحاجات في وسط جماعي إلا من خلال مبدأ الهيمنة للجماعة، لتتحول الحاجة من توازن ما بين الداخل والخارج إلى سيطرة على الآخر، ومن هنا نشأ التسلسل الهرمي عند الجماعات من وجهة نظره.

كلما خضنا في دراسة وفهم ما يدور في دماغ الإنسان بشكل علمي، تتسع الهوة بيننا وبين التفكير الغيبي المسيطر إلى الآن على ثقافات عديدة، والذي ما زال يشكل موروثاً ثقافياً قديماً كحاجز فكري وإدراكي لدينا. ولن نستطيع التخلص منه إلا من خلال متابعة علمية لكل ما لا نستطيع فهمه ولكل ما يعجز إدراكنا عن إستيعابه، فبالعلم والمعرفة نستطيع توسيع إدراكنا، فإذا قمنا بجولة في دماغنا مع الإستناد إلى علم الأعصاب النفسي، نكتشف العديد من الصور العقلية أو (التمثيل العقلي) الواعية أو اللاواعية، إلا أن ما يؤثر في تغيير استراتيجية سلوكياتنا هي الصور أو التمثيلات العقلية الواعية القادرة على بتر تلقائية تفكيرنا والقدرة على خلق قوانين ومعطيات جديدة مستندة إلى وعينا.

رأينا كيف قام جيرالد ادلمان بإيجاد ترابط وتبادل ما بين المؤثرات الجينية على السلوك وتأثير السلوك على الجينات، فقد اعتبر أن البيئة هي من تمارس عملية الاصطفاء الطبيعي لصالحها. ليس هذا فحسب، بل إن للمورفولوجيا تأثيراً بالغاً في عملية تطور الوعي الذي نشأ عن عملية انتقاء الجملة العصبية وتطورها تدريجياً، والذي لقبه بالتطور المورفولوجي.

أوجد ادلمان نظريته الحديثة، وهي نظرية اصطفاء المجموعات العصبية، فقام بتقسيم الوعي إلى قسمين: الأول وهو الوعي الأولي، أما الثاني فقد أعطاه تسمية الوعي الأعلى كونه يتميز بتفوق على الأولي.

فما هو الوعي الأولي؟

اعتبر ادلمان أن الوعي الأولي ينقسم بدوره إلى نظامين في النظام العصبي: الأول مؤلف من منظومة مشكلة من الجذع الدماغي وجهاز النظام الحوفي (لمبيك سيستم)، ووظيفة هذه المنظومة هي تنظيم عملية الاغتذاء، كما أنها مسؤولة عن العملية الجنسية، إضافة إلى جميع استراتيجيات الدفاع التي اكتسبت واستمدت خصائصها من خلال التطور، كما أنها مسؤولة عن عمليات أخرى كالتنفس والتعرق والنوم...الخ، إضافة إلى ذلك نجد أن هذه المنظومة تخدم الأساسيات الضرورية للحياة، فنراها موجودة عند جميع الكائنات الحية التي تمتلك نظاماً عصبياً.

إذن، فإن هذه المنظومة عبارة عن نظام داخلي تطور مع الزمن من خلال عملية التطور المستمرة. أما النظام الثاني والمؤلف من القشرة المهادية (تالاموكورتيكل)، منها المهاد (التالاموس) والذي يشكل البنية المركزية للدماغ والتي تحتوي خلاياه على نويات عدة وظيفتها تمرير الإشارات الحسية وغيرها إلى اللحاء، ليقوم الدماغ مرة أخرى بغربلتها، فيبرز بعضا منها ويقلص البعض الآخر.

ارتبط هذان النظامان ببعضهما البعض مع مرور الزمن مؤلفين بذلك الوعي الأولي كي يمنحا الكائنات الحية المقدرة على التأقلم مع البيئة الموجودة بها. لنلاحظ أن التعلم يشكل أساس التأقلم عند الإنسان والحيوان معاً. وبما أن البيئة متحولة وليست ثابتة، فهي في تغير مستمر في المكان والزمان. فنلاحظ أن الطبيعة تتخلص من كل البنيات غير المتأقلمة، فهي في انتقاء دائم للسلوكيات المتأقلمة معها، فالسلوك ينتج عن الخبرة البيئية التي تتيح للكائنات التعلم والتأقلم ضمن الشروط البيئية المتاحة لها. كما علينا ألا ننسى أيضاً أن سلوك التعلم المختار هو لاكتفاء الحاجات الفيزيولوجية والمدلولات المنبثقة من مجموعة الجذع الدماغي والنظام الحوفي (اللامبيك) لتتم عملية ضبط بينهما.

عودة إلى مفهوم الوعي الأولي والذي ساهم في وجوده القدرة على خلق مشاهد في عقلنا (حسب ادلمان). اقترن هذا الوعي الأولي بعملية التطور، ليتبين لنا أن ثلاثة وظائف أدت إلى نشوئه، الأولى وهي النظام القشري (كورتيكال) الذي سمح بارتباط المفهوم أو الأفكار مع النظام الحوفي الذي أدى إلى توسيع قدرة التعلم؛ أما الثانية فهي نمط جديد لذاكرة فهمية قادرة على ترتيب وتصنيف الأجوبة القادمة من الأنظمة الدماغية المختلفة المنفذة لوظيفة تصنيف

العمليات الإدراكية؛ أما الوظيفة الثالثة التي ساهمت في نشوء الوعي الأولي، فهي حلقة ريانترانت (وهي بنية تتألف من خلايا عصبية تؤدي إلى ولادة حلقات معلوماتية من نوع تحكمي، أي أن حلقات الريانترانت عبارة عن مجموعة عصبونات متصلة ببنى قادرة على إعادة إنتاج مستمر للمعلومة بشكل تلقيم راجع، أي الفيدباك) ظهرت أثناء عملية التطور كبنية تشريحية عصبونية جديدة، تسمح للذاكرة القيمية-التصنيفية والذاكرة الخرائطية الجامعة والمعالجة الآنية للتصنيف الإدراكي مع تبادل إشارات مستمرة بطريقة إسترجاعية (ريانترانت).

أكد ادلمان وتونوني أهمية تشكل عقد التالامو- كورتيكال في ظهور الوعي، أي يمكننا القول: إن الوعي الأولي الموجود عند الإنسان والحيوان نشأ على أساس الذاكرة القصيرة والتفاعل ما بين نوع خاص من الذاكرة والتصنيف الإدراكي، مما أدى إلى ولادة الوعي الأولي. يرى ادلمان أن الكائنات التي تملك الوعي الأولي قادرة على خلق صور عقلية إلا أنها عاجزة عن النظر إلى هذه الصور من زاوية الأنا الاجتماعية كما هو حال الإنسان بعد تطور جهازه العصبي والعقلي واكتسابه الوعي الأعلى القادر على ربط كل تمثيل عقلي بقرينه الآخر لتشكيل سلسلة من تمثيلات عقلية مترابطة.

إذن، هناك التصنيف الإدراكي الذي يعالج الإشارات الآتية من العالم الخارجي من خلال الأعضاء الحسية، وهناك التصنيف المفاهيمي (القادر على تشكيل المفهوم) الذي يعمل داخل الدماغ ويعتمد بالتحديد على التصنيف الإدراكي للذاكرة.

هذه القدرة موجودة عند الإنسان إلا أن العلم يقر بوجودها أيضا عند الشامبانزي. فهذ الفصيلة من القرود تملك بعض العناصر من مفهوم الأنا.

إن بناء مفهوم الفردية مرتكز على التفاعلات الاجتماعية لإيجاد نموذج للعالم من خلال ربط الماضي بالحاضر والمستقبل. وهو ما يعني حتمية وجود ذاكرة رمزية. كما أن تطور المسالك الصوتية والمراكز الدماغية لفهم وإنتاج لغة ناطقة أدى إلى تطور الكلام عند الإنسان، والذي ساهم بشكل كبير في تطور الوعي البشري. حيث أدت اللغة إلى تطور مفهوم الأنا والى اكتساب الوعي الأعلى، فالتفاعلات الموجودة بين الأفراد والتي نتجت عنها القدرة على تخزين علاقات رمزية لفترات طويلة ساهمت إلى حد بعيد في نشوء الوعي الأعلى.

إن تفاعل أكثر من ذاكرة ونشوء ذاكرة معتمدة على التجارب الإدراكية حيث تستطيع ربط الماضي بالحاضر مع القدرة على خلق صور للمستقبل، هو الذي شكل جوهر عملية تخزين العلاقات الرمزية تلك.

يخضع الدماغ إلى عمليتين إنتقائيتين وهما الاصطفاء الطبيعي والاصطفاء الجسدي الذي بدوره يخضع للاصطفاء الطبيعي فهو يربط ما بين الإشارات الملتقطة والتمثيلات العقلية، ليقوم بتشكيل ولادة وعي مرتكز على مجموعة من العلاقات الموجودة ما بين الإدراك وبنية المفاهيم والذاكرة المتأثرة بنظام القيم الناشئة خلال فترة التطور، وكما أوضح لنا ادلمان في كتابه "بيولوجيا الوعي" مجرى الوعي الأعلى ومساهمته في بناء الخيال والمشاعر

والأحاسيس والأفكار والأنا والإرادة. فسلوكنا متحكم من خلال ذاكرة ناتجة عن إعادة تصنيف نافذة تحت تأثير التغيرات الحيوية لعدد معين من القيم.

من هنا نرى أن تعاطينا للمفاهيم إن كانت اجتماعية أو دينية أو أخرى، قائمة بالإرتكاز على عملية التحول والتغير المستمر عبر الزمان، فلا إدراك ثابتاً ولا مفهوم محدداً في إطار معين، إنما إدراكنا وإضفاء القيم على المحيط الخارجي يتم من خلال وعينا المتغير للخارج كي يكون منحانا متلائماً مع الطبيعة والحياة نفسها، فعملية التطور عبر ملايين السنين استطاعت انتقاء آليات التعلم التي تساهم في عملية تأقلم الأنظمة العضوية مع بيئتها المناسبة للزمان والمكان المختلف. ولهذا نستطيع القول: إن الأخلاق الناتجة عن تقييمنا الإدراكي للأشياء والمعطيات تتغير بناءً على تغير في عملية الإدراك لإضفاء قيم جديدة أو الإستغناء عن قيم لم تعد تتماشى مع البيئة الخارجية.

القسم الثالث الحلقة11 آلية انتقاء التمثيلات العقلية

مما لا شك فيه أن العلم لا يمل ولا يتراجع في تحفيز العقل على طرح الأسئلة للوصول إلى أجوبة تمنح اختصاصييها بعض الاكتفاء الآني. فما يميز الأجوبة العلمية عن الأجوبة الغيبية المستندة إلى خيال بسيط غير تجريبي، هو أن العلم يستند على الأساس التجريبي.

تنوعت الأبحاث والدراسات والعلوم للبحث عن علاقة تربط العقل بالدماغ، ليتوصل اختصاصي علم الأعصاب بوضع تفسيرات وتوضيح الصورة لما يجري لدماغنا من خلال إيجاد نموذج يستطيع الإجابة على أسئلة متعددة توضح لنا علاقة الوعي باللاوعي واحتمالية وقوع الوعي تحت تأثير نشاط منطقة معينة في الدماغ... مما استدعى الباحثين العلميين البدء في بناء نموذج واقعي ناتج عن معطيات تجريبية لوضع تفسير لسببية الظواهر.

بعد دراسات وتجارب عديدة في السنوات الأخيرة تضمنت براهين منطقية(*88). توصل الباحثون في مجال علم الأعصاب إلى وضع أحد النماذج التجريبية والمسماة بـ"مساحة العمل الكلي الواعي(*89)، ليكون لنا نموذجاً بيولوجياً واعياً مرتكزاً على معطيات تجريبية غنية متنوعة تجمع بين علم التشريح وعلم العصب النفسي الإكلينيكي والفيزيولوجيا الدماغية وعلم النفس التجريبي والتصوير الدماغي.

يستند نموذج "مساحة العمل الكلي الواعي" على المسلمات العلمية والذي يقسم الدماغ إلى نصفي كرتين، فمن جهة نجد العديد من الدوائر الصغيرة الدماغية التي لا تتوقف عن العمل من أجل تحضير دقيق لكم من التمثيلات العقلية اللاواعية في كل لحظة، ومن جهة أخرى نجد شبكة عصبية مختلفة عن تلك الدوائر تتناسب محتوياتها مع تمثيل عقلي واحد في كل لحظة. هذه الشبكة العصبية الوحيدة لقبت من قبل اختصاصيي الأعصاب بـ"مساحة العمل الكلي الواعي" والتي تتمتع بخصائص عديدة أهمها؛ تخترق الخلايا العصبية التي تشكل هذه الشبكة عدد كبير من المناطق الدماغية، وهذا ما يسمح للاختصاصيين اعتبار وجود شبكة مركزية متصلة بوحدات معالجة دماغية متخصصة يمكنها الإتصال بكل منها على حدة، لتستطيع هذه الشبكة القيام بعملية تغيير لأي نوع من المعلومات، كما يمكنها توفير آلية لتحقيق إبداع عقلي، الأمر الذي يميز طريقة التفكير الواعي. أما الخصوصية الثانية لهذا النموذج فهي القدرة على الإتصال بين الأعصاب المشكلة لهذه الشبكة(*90). وأخيراً نجد أن الخصوصية الأخيرة المهمة لهذا النموذج هي الأكثر تركيباً وتقنية والمتعلقة بكيفية وصول المعلومة الخارجية إلى قلب مساحة العمل الكلية الواعية ووصول المعلومات ذات التمثيلات اللاواعية إلى "مساحة العمل الكلية الواعية".

تعالج "مساحة العمل الكلية" تمثيلاً عقلياً واحداً لا أكثر في كل لحظة،(*91) مع العلم أن آلاف التمثيلات اللاواعية تقف منتظرة على أبوابها كي يتم انتقاء إحدى التمثيلات التي تجد أرضية مناسبة في لحظة مناسبة لها، فالمعلومات الممثلة بطريقة لاواعية في عدة شبكات عصبية صغيرة تستطيع اقتحام مساحة العمل الكلي والوصول إلى الوعي بعد إخضاعها إلى آلية تسمى بـ "التضخيم الإنتباهي الأسفلي".

أما انتقال التمثيل من حالته اللاواعية إلى حالة واعية يستدعي إتصالاً ثنائي الإتجاه بين وحدات المعالجة المحيطة والشبكة المركزية، ليسمح بتلقي الرسائل واستلامها بهدف إرسال التمثيل العقلي الذي تم تحضيره إلى أعصاب الشبكة المركزية بواسطة وحدات المعالجة. ولكن ليس من الضروري في حال حدوث هذا الإتصال أن يأخذ التمثيل اللاواعي شكله الواعي وذلك لأسباب عديدة منها ما يتعلق بوفرة بعض العوامل المهيئة لهذا الانتقال؛ كامتلاك التمثيل العقلي لمعلومة ما قيمة شعورية، أو إحتوائه على مضمون لديه ذات توجه المحتويات الموجودة في مساحة العمل الواعي، أي أن مساحة العمل الواعي تميل لاختيار المحتويات الموجودة في التمثيل العقلي اللا واعي التي تلائمها لتحقيق عملية انسجام فيما بينها، وهذا ما يساهم في اختياره عوضاً عن آخر، ومن هنا تنشأ لدينا الفكرة الواعية، فمحتوى الوعي يتمثل بالنشاط العصبي المرتبط على نطاق الشبكة الكلية(*92).

تعتبر عملية الوعي عملية متتالية لحالات مستقرة فهي لا تأتي بشكل عشوائي، بل هي ذاك الترابط بين الأحداث والتجارب والثقافة التي اكتسبناها من خلال حياتنا، لهذا نرى أن من يؤمن بفكرة أو دين أو أيديولوجية معينة، لا يستطيع الإنفلات منها إلا من خلال دراسة وبحث ذاتي وانفتاح على النظريات والثقافات المختلفة عنه، ولا يأتي هذا إلا من خلال اقتناع في جدوى هذا البحث الغني الذي يؤثر تأثيراً إيجابياً على الفرد ومن ثم على المجتمع.

حالة الوعي لأنفسنا التي نعيشها جميعاً تختلف عن حالة الوعي للمحتويات الواعية التي تتطلب وصول فكرة معينة إلى وعينا. فالأولى تعتمد على سلامة مساحة العمل الكلي تشريحياً ووظيفياً، أما الحالة الثانية للوعي، أي وصول فكرة ما إلى الوعي بطريقة متعمدة (بالمعنى الفينومولوجي)(*93)تتم من خلال إرسال الغرض العقلي الممثل بوحدة المعالجة المحيطي إلى آلية الإدراك.

وحسب نموذج مساحة العمل الكلي، تبين وجود أربع فئات لوحدات المعالجة العصبية(*94)غير خاضعة لوعينا، أي إن كل واحدة منهن تشكل طبقة مختلفة عن الأخرى في اللاوعي، فعملية وعي أي تمثيل عقلي يجب أن يكون ممثلاً بطريقة واضحة تحت شكل شيفرة عصبية نشيطة في مجمع للأعصاب، كما يجب عليه أن يكون مشفراً من خلال وحدة معالجة عصبية تشريحية متصلة بالأعصاب والتي تشكل مساحة العمل الكلي، كما أن إحتواء التمثيل العقلي على كثافة ومدة زمنية تفوق الحد الأدنى يسمح بتفعيل آلية التضخيم الإنتباهي الأسفلي على شرط أن تكون مساحة العمل الكلي شاغرة كي تتمكن من تضخيم المعلومة الآتية إليها.

اعتبر نكاش أن المرحلة الأولى لبناء صورة عقلية تتم بطريقة لاواعية، أما تسربها إلى وعينا فيتم في المرحلة التالية عموماً حيث وضح ذلك من خلال مثل أعطاه عن الفترة الزمنية لأي إدراك نظري، فدماغنا العقلي يقوم بتحضير مجموعة من الصور العقلية الغنية اللاواعية في فترة قصيرة لا تتعدى أجزاء الثانية، وابتداءً من هذه المدة تبدأ عملية الوعي لبعض التمثيلات العقلية. كما يتم أحيانا اختيار تمثيل لاواعي من بين تمثيلات عديدة بطريقة لاواعية لخضوعها إلى حكم التفضيل (ترجيح العرض المؤثر لزاجونك)، أو بمعنى آخر، التعرض المتكرر لشخص أو لشيء يزيد من إحتمال وجود شعور إيجابي تجاهه، فكلما يتكرر عرض المحفز يتغير لدينا السلوك المتبع، أما تفسيره فيعود إلى البنية الوظيفية للدماغ أي خضوعها لمحفز ما لمدة زمنية طويلة لتقوم بتوجيه عملية التفضيل تجاه هذا المحفز، فالإدراك اللاشعوري يستند على بنية اللاوعي نفسه.

**88-التجارب وهي: كريك وكوخ عام 1990، دوهاين وكير سبيرج وشانجو عام 1998; جو هاين ونكاش عام 2001، تونوني وادلمان عام 1998.*

**89- وضع ستانيسلاس دوهاين وجان بيير شانجو وميشيل كير سبيرج وليونيل نكاش أسس نموذج "مساحة العمل الكلي".*

**90- كتاب اللاوعي الجديد لاختصاصي الأعصاب ليونيل نكاش، صفحة 273، قام بتوضيح عمل هذه الشبكة حيث أعطى مثالاً يشبه بها الخلايا العصبية في الشبكة الكلية بمجموعة من الضيوف الساهرين في أمسية صالونية. وبعد افتراض وضع أحد الميكروفونات في وسط الصالون، وذلك لتسجيل المحادثات المختلفة بين الضيوف والتي يمكنها أن تأخذ أشكالاً متنوعة حيث يمكنها أن تكون محادثة واحدة يشترك فيها جميع الضيوف على أسس مراعاة أسلوب النقاش، ليأخذ كل منهم دوره بالحديث دون مقاطعة الآخر. ففي هذه الحالة يكون لدينا حديث واحد وصوت واحد في كل لحظة، وبالمقابل يزداد النشاط بازدياد العدد مع تطور النقاش بشكل موحد. ومن هنا يمكننا القول: إن الأعصاب ترمز الى الضيوف، أما علاقة الضيوف ببعضهم فيرمزوا الى المشابك العصبية التي تربط كل عصب بآخر، أما النقاش التنظيمي الدوري بين الضيوف فهو يرمز الى نموذج "مساحة العمل الكلي" الذي ينشغل في كل لحظة بتمثيل عقلي.*

**91- أوضحت التجارب التي قام بها اختصاصي النفس الإدراكي "جورج سبيرلينغ" على ان الإنسان لا يستطيع معالجة أكثر من تمثيل عقلي بشكل واع.*

**92- الشبكة الكلية: عمل مجموعة أعصاب متصلين مع بعضهم بشكل واسع.*

**93- ايدموند هوسيرت من أوائل المؤسسين للفينومينولوجيا الفلسفية التي تؤكد على ضرورة دراسة محتويات الوعي.*

**94- ليونيل نكاش في كتابه "اللاوعي الجديد" القسم الثاني، الفصل الثالث صفحة 291-302.*

القسم الثالث الحلقة12 الحدس اللاواعي الجزء الأول

نلاحظ في كثير من الأحيان وخصوصاً في المجتمعات الدينية إنجراف الكثير من الأفراد نحو إعطاء تفاسير غيبية لكل ما يصادفهم من دون البحث عن تفسير علمي له.

ويعود ذلك لعدة عوامل من أهمها؛ عدم توفر المعلومات العلمية الخاصة في معظم المجالات التي يمكنها أن تجيب على إشكاليات واستجوابات يمكنها أن تضعضع المنابع الأولى للأديان.

وهنا نجد أن المجتمعات الدينية تمنع وتحاول التشكيك الدائم بأية نظرية علمية لا تتناسب مع أرضيتها الدينية، فتُخضع الأفراد لرقابة اجتماعية ودينية ومن ثم فردية، لينتج عنها نقص في الوعي، وليصبح الدين جواباً فورياً لكل فرد عجز عن استخدام عقله.

أتاح لنا علم النفس العصبي بكل مدارسه وفروعه معرفة أكبر لآلية الإدراك ومدى أثر الثقافة الاجتماعية في توجيه الأفراد نحو أسلوب معين يخص التعلم والإدراك.

فقد استطاع علم الأعصاب من خلال تجارب عدة تسليط الضوء على الرادع الذاتي الآتي من تمثيل عقلي والناتج عن حالة واعية للفرد المستندة على ثقافة الوعي الجماعية(*95)، فنجد أن الثقافة الاجتماعية المتحلية بمرونة تساهم في ثراء التمثيلات العقلية العاكسة إيجابياً على الفرد. فبعد دراسات وأبحاث عديدة توصل علم الأعصاب للإجابة وبشكل قاطع على أن اللاوعي الإدراكي خاضع لتأثير النشاط العقلي الواعي، أي أن الوعي هو من يحدد المصير النفسي والدماغي لعدة عمليات إدراكية لاواعية(*96)، لهذا نرى وجود تقنيات حديثة من أجل تطوير الشخصية تستند على تمارين يستطيع الفرد تنفيذها من خلال الإيحاء الذاتي لتغيير بعض التصرفات والسلوكيات عند الفرد، ولإنجاح رغبات وطموح الفرد، وهذا ما يسمى بآلية الهبوط من الأعلى. وفي ذات الوقت، نجد آلية أخرى تسمى بالصعود من الأسفل أي من اللاوعي الى الوعي.

يساهم الوعي واللاوعي في عملية التعلم والإكتساب، ففي البدء يعالج الدماغ أية معلومة قادمة إليه من الخارج بطريقة واعية، لتسمح بخلق تمثيلات عقلية جديدة، وعند استيعاب ما تم تلقينه للفرد، تستطيع هذه التمثيلات العقلية المشاركة في الحياة العقلية اللاواعية. وهنا شرح ليونيل نكاش آلية الإبداع(*97) عند الفرد مستنداً بذلك إلى ما وضعه جاك هادامار، ليبين لنا أن أي عملية إكتشاف لمعادلة رياضية جديدة عليها المرور بأربعة مراحل فكرية؛ الأولى تؤهل المرحلة التحضيرية التي تستدعي التفكير مطولاً بطبيعة المشكلة من خلال مجموعة معرفية واعية، تليها مرحلة الإحتضان والتي تعني إنشغال الوعي بأمور أخرى لا تتعلق بالمشكلة وحلولها لتركها إلى النشاط العقلي اللاواعي كي تأتي فيما بعد المرحلة الثالثة

المتميزة والمسماة بمرحلة الإنارة الناتجة عن المرحلة التي سبقتها (الاحتضان)، أما مرحلة الإنتهاء والتي تعد آخر المراحل وأطولها، ففي هذه المرحلة يتم التدقيق الواعي والعمل على جودته. هذا التسلسل في المراحل يتيح لنا أن نرى عملية تكامل بين النشاط العقلي اللاواعي والواعي سوية، فدماغنا يلقط ويسجل التمثيلات العقلية من الخارج لتختزن في ذاكرته وتنشط مع باقي التمثيلات بشكل لاواع، وكما قال كارل يونغ "ينسى الإنسان ما سمعه طوال فترة حياته، لا بل أحياناً لا يعي ما يسمعه وما يراه وما يشمه وما يلمسه وما يقرأه، إلا أن هذه التمثيلات جميعاً تكبر في لاوعيه، لتكون حاضرة من دون علمه". وهذا ما اكتشفه علم الأعصاب من خلال التجارب والتصوير الدماغي على أن اللاوعي يعمل كفرق من خبراء، فكل فريق يعمل على حدة لإيجاد حلول وعروض لحل المشكلة الموجودة، أو لتنبيه صاحبها بتجنب أمور معينة يمكنها أن تؤثر عليه سلباً. وبصيغة "يونغية"، دعونا نقول: إن الحدس هو حالة معينة لقدرات مختزنة ناتجة من جراء عملية إكتساب وتراكم الخبرات والمعلومات والتجارب والتي يمكنها الظهور حسب المعطيات النفسية والخارجية.

لقد تكلمت عن التمثيلات العقلية الواعية واللاواعية. أما الآن فسأتطرق لتعريف التمثيلات العقلية اللاواعية.

يُعرف علم الأعصاب والنفس التمثيل اللاواعي على أنه عبارة عن مجموعة معلومات لاواعية ممثلة في دماغنا بشكل واضح وفي ذات الوقت ممثلة في النشاط الكهربائي للأعصاب، ليؤكد لنا عن وجود شيفرات بنيوية لاواعية تساهم في مرحلة التعلم بتعديل المشابك العصبية وبناء نظامنا العصبي من خلال شيفرات موجودة في المفارغ الكهربائية لشبكة الأعصاب الدماغية.

قام علم الأعصاب بتجارب عديدة موضحاً لنا حالات عجز العلم عن تفسيرها سابقاً، مثل حالة "بصيرة العميان"، والتي تعني قدرة المصاب على رؤية إدراكية لاواعية بالرغم من وجود ضرر في المناطق القشرية، حيث قام بعض الإختصاصيين بتخريب أو هدم المنطقة القشرية البصرية بشكل متعمد لقرود المكاك، فعند إكراه قرود المكاك على اكتشاف مكان الضوء، استطاعوا الإستدلال عليه مع العلم أن المنطقة المسؤولة لمشاهدة الضوء كانت متضررة لديهم، أي بمعنى آخر استطاع قرود المكاك الرؤية بشكل لاواع، ومثلهم استطاع المصاب "دجي.واي" عند إرغامه على الجواب أن يقود نظره وأن يضع أصبعه تجاه المنطقة المضاءة علماً أن "ادجي.واي" لم يكن يستطيع رؤية الضوء فقد كان يعاني هو أيضاً من ضرر في المناطق القشرية البصرية.

أعطى الدكتور موريس بتيتو شرحاً لهذه الظاهرة بالقول: عندما تدخل المعلومة الضوئية شبكية العين تتحول إلى معلومة كهربائية، فتمتد أعصاب الشبكية لتتحد وتشكل العصب البصري لتنقل المعلومة الكهربائية إلى رابط في مركز الدماغ يسمى (الجسم الوحشي الركبي أو لاترال جينيكيوليت نيكلس). تستعيد أعصاب الجسم الوحشي الركبي المعلومة، ليتم إرسالها إلى مركز التحاليل للمحفزات البصرية، من هنا وجد إختصاصي النفس- العصبي بتيتو أن

تسعين بالمائة من الألياف البصرية تسلك هذا الطريق (جينيكولوكورتيكال)، بينما تذهب العشرة الباقية من الألياف إلى نواة تدعى "الكوليكولوس الأعلى" والتي تعد نهاية الممر فهي التي تعالج المعلومة الآتية من شبكية العين(*98).

أدت هذه الملاحظات إلى إعداد "نظرية النظامين البصريين"، أي أن ممر "الكوليكولر" هو المسؤول عن كشف وتحديد المكان لأي حدث بصري، أما من يحدد هوية هذا الحدث البصري فهو ممر "جينيكولوكورتيكال". أي أن "الكوليكولوس الأعلى" يعمل كحارس أو خفير ينقل كشافه الضوئي إلى مكان الهدف للتعرف عليه ويساعده في ذلك الـ"جينيكولوكورتيكال".

هذه الملاحظات والتجارب العديدة للأخوين بيتيتو وزملائهما ساعدت باكتشاف وجود إدراك لاواعي بصري مما يعزز فرضية وجود وحدات معالجة حسية لاواعية عند مصابي "بصيرة العميان".

تطرقت إلى موضوع "بصيرة العميان" بهدف الإشارة إلى أن الأمور المبهمة والغامضة لها تفاسير علمية دقيقة، فكلما ازداد العلم معرفة وتجربة تبينت لنا وبوضوح أسباب الظواهر التي جهلها الإنسان في فترات تاريخية. حاجتنا اليوم إلى الإيمان بالعلم يتطلبها التقدم في هذه الحياة وازدياد الوعي والإدراك الإنساني والذي يعد أهم بكثير من اكتفاء بضعة مشاعر نفسية تقوم الغيبيات على تغذيتها وتقويتها، لتكون حاجزاً يحول بيننا وبين المعرفة...

---

95 - في هذه النقطة تعارض علم الأعصاب مع فرويد الذي أصر على أن الرادع الذاتي ناتج عن حالة لاواعية، بينما اتفق معه فيما يتعلق بثراء الحياة العقلية اللاواعية وان أي عمل مرتبط بالإرادة الواعية أساسه تمثيل عقلي لاواعي (تجربة بينيامين ليبيت) حيث تخضع الأفعال إلى تشفير في نظامنا العصبي، فالقرار لايأتينا إلا بعد عملية انتقاء.

96 - تجربة دوهاين ونكاش عام 2000.*

97 - كتاب الأثر النفسي للإبداع في مجال الرياضيات لجاك هادامار.*

98 - تعتمد الضفدعة كلياً على بنية هذه النواة التي تسمح لها بالتقاط الذباب الطائر عند الاقتراب نوعاً ما من لسانها.*

القسم الثالث الحلقة13 الحدس اللاواعي الجزء الثاني

عودة إلى الحياة النفسية اللاواعية، وهذه المرة من خلال فرويد الذي اعتبر أن الحياة النفسية اللاواعية لا تقتصر على سلسلة من ردات فعل عصبية فقط بل تصل قدرتها على معالجة المحتوى العقلي، وهذا ما أكده علم الأعصاب الحديث، أي أن حياتنا العقلية اللاواعية غنية بالأحداث والقدرة على معالجتها، زيادة على ذلك، لا تقتصر حياتنا العقلية على وعينا فقط، بل تمتد إلى أبعد من تصوراتنا، فما نعتبره أحيانا قدرات إعجازية مصدرها عطاء أو هبة إلهية، ما هي إلا تمثيلات عقلية لاواعية غنية ونشيطة. فمثلاً التمثيلات المحددة من خلال نشاط الكوليكوس الأعلى تنشئ صورة واضحة للتصنيف اللاواعي الممثل وغير المتصل مع الوعي، فكما شرحها نكاش، أن مصابين بـ "بصيرة العميان" والسليمين أيضا، يتمتعون بقدرات إدراكية عديدة الأوجه والمدلولات، وذلك بفضل الكوليكوس اللاواعي، كما أن هناك العديد من الأعصاب التي تملك معلومات واضحة لكنها تبقى في مرحلة اللاوعي وذلك لغياب الإحتكاك بين هذه المعلومات وبين مساحة العمل الكلي.

واذا تساءلنا عن كيفية إلتقاط المعلومة من الخارج ليتم تسجيلها في ذاكرتنا، نلاحظ وجود ثلاثة أنماط تمر من خلالها المعلومة للتخزين:

1- تسجل المعلومة حسياً، أي أنه يتم معالجتها تحت شكل صورة عقلية إذا كانت المعلومة مرئية، أما إذا كانت سمعية فتتم معالجتها تحت صورة صوتية في السجل الحسي، كما نلاحظ أن المعلومة خاضعة إلى إنهيار سريع وضياع آني إذا لم تتوافر لها المدة الزمنية ليتم تحويلها إلى الذاكرة القصيرة المدى أو يمكنها الذهاب مباشرة إلى الذاكرة طويلة المدى من دون المرور على الذاكرة قصيرة المدى.

2- الذاكرة قصيرة المدى وهي مكان لتخزين المعلومات التي تمت معالجتها عند لحظة الإستقبال ويمكنها أن تسمى بذاكرة العمل وخصائصها متعلقة بالتخزين المؤقت ومعالجة المعلومات المناسبة لحل مشاكل معينة والموافقة للبيئة، أو يمكنها أن تصب في أهداف معينة، فذاكرة العمل لها قدرة تخزين محددة وقدرة معالجة.

3- الذاكرة طويلة المدى ولها قدرة غير محددة، فهي التي تحتوي على جميع المعلومات، لهذا نراها مرتبطة بجميع الأنشطة الإدراكية وتساهم بحل كل ما يستصعب فهمه.

يمكننا القول: إن ذاكرة العمل عبارة عن مساحة عمل واعية لإنجاز هدف معين أو للدخول إلى الذاكرة طويلة المدى، حيث يتم تخزين المعلومة من دون اللجوء إلى تمثيلها بشكل واع، ولا ننسى أيضاً وجود نشاط وتفاعل لذاكرة العمل مع أنظمة الذاكرة طويلة المدى، فنلاحظ أن الذاكرة تسمح باستباق المشاعر لتحدد الحواس كي يتم استقبال المعلومة المرتبطة بالخارج

بهدف التأقلم مع المحيط الخارجي، لتسمح للإنسان من خلال عملية التطور بتوسيع قدرات وظائفه الإدراكية. هذه الآلية أتاحت للإنسان القيام بتصنيف التجارب عبر مخططات متعددة ومنظمة حيث اعتبر أصحاب هذه النظرية أن الذاكرة تقوم بفك رموز المعلومات المخزنة لتحديد طريقة إعادة بنائها من جديد، أي أن المخططات عبارة عن عملية تنسيق لأفكار أو مفاهيم متناسقة فيما بينها أو تركيبات منظمة بهدف مساعدة الإنسان في فهم محيطه وثقافته، وهذا ما يساعدنا في فهم تركيبة النموذج الثقافي من خلال علم الأنتربولوجيا والنفس في آن واحد.

لاحظ اختصاصي علم النفس فريديريك بارتيليت وبعد التطبيق العملي من خلال تجارب عدة، وجود مخططات مختلفة في دماغ الإنسان والتي تتشكل من خلال الغرائز التي تلعب الدور الرائد أثناء الطفولة، أو من خلال المصالح والمثل الآتيان في فترة لاحقة من حياة الإنسان، إذ وجد بارتيليت أن الأفراد الذين يتداولون نصاً لا يفهمون بعض تفاصيله الصغيرة ولا علاقة للنص بثقافتهم، يلجأون إلى بنائه من جديد كي يتناسب مع مخططهم الثقافي الخاص بهم وهذا ما يلقبه الأنتربولوجيون بـ"النموذج الثقافي"، أي أن الفرد يقوم في استيحاء أي مفهوم أو إيمان معين من خلال هذا النموذج، كما أوضحوا دور الذاكرة في التوجيه حيث تختزن المعلومات المتناسبة مع متطلبات محيط الأفراد.

فما هو مدى تأثير العامل البيئي أو الثقافي في لجم النشاط العصبي الذي يعكس قدرات التلقي عند الإنسان؟

لقد تمت تجارب بحثية للوصول إلى نتائج تأثير الخارج على سلوكيات بيولوجية ليتم تغييرها بشكل فردي. لقد طبقت تجربة على بعض الجرذان من خلال إنشاء وسط فقير واللجوء فيما بعد إلى عزلهم في أقفاص فردية للبعض منهم، وتوفير وسط غني للبعض الآخر مع إبقائهم جماعياً داخل الأقفاص. وبعد فترة زمنية، قام الباحثون بقتل الجرذان لمعرفة الوزن الفعلي لأدمغتهم، فوجدوا أن أدمغة الجرذان ذات الوسط الغني أقل من أدمغة الجرذان ذات الوسط الفقير. أما في نتائج بحثية أخرى، فقد وجد باحثون آخرون وبعد تجارب تطبيقية أن دماغ الإنسان يكتسب ثلاثة أضعاف الوزن مقارنة للسنين الأولى من حياته. من هنا توصل الباحثون إلى أهمية دور التأثير الاجتماعي، أو الثقافي، أو المحيطي في عملية البناء داخل الدماغ وخصوصاً في منطقة اللحاء الدماغية. فهذه المنطقة هي التي تساهم في تركيب الأفكار والتعلم بشكل مباشر، لهذا نرى أن وظيفة الطقوس الجماعية أو المعتقدات التي تتشارك بها جماعة معينة، تقوم بتحديد الخبرات لأفرادها، وذلك يعود إلى ارتكاز الفرد على القاعدة الخارجية في جميع حالاتها، إن كانت اجتماعية أو ثقافية... في تعاطيه الإدراكي وقدرة تحليله للأمور من أجل إيجاد حلول لمسائل تشغل فكره، من هنا نجد إختلافاً في أسلوب التفكير وتعدد أساليب إستخدام المنطق بين الجماعات.

يبحث الإنسان وبشكل طبيعي لا إرادي عن تأكيد ما يعرفه وما اكتسبه من خبرات، لهذا نراه يميل إلى الحلول والرؤى المتفقة مع معتقداته والمختزنة في ذاكرته، وعلينا ألا ننسى أيضاً علاقة الاستنتاج والأحكام الجمعية والفردية المرتبطة بالدوافع والعاطفة.

توصل داماسيو بعد تجارب عدة، إلى أن العاطفة هي من تتحكم بالتفكير، فهي التي تقودنا إلى تبني القرارات، فالتفكير عبارة عن سلسلة من أحداث لتمثيلات عقلية ذات أهداف محددة، فمنها ما يتضمن نماذج عقلية شارحة، و منها ما تتبنى إتجاه توقعي. نجد أن عملية التفكير الإنساني تتألف من مفاهيم وصور داخلية تقوم بفرز مجموعة معينة ذات خصائص مشتركة لأحداث معينة، ليتم تعريفها فيما بعد من خلال التشابه والتباين مع المعطيات الخارجية، وهذا ما يسمى بعملية التصنيف.

أما يونغ فقد اعتبر أن التفكير يسمح لنا بإيجاد معنى لشيء ما، وتقوم العاطفة بتحديد القيمة، فوعينا ناشئ عن علاقة الأنا بالعقل الناشئ عن نتائج لعمليات دماغية حيث يعاد إنتاجها وتكرارها على نحو متجدد من دون نهاية، فجاء تعريف يونغ لـ "الأنا" على أنها حصيلة وظائف حسية مهمتها إرسال المحفزات والمنشطات الآتية من الخارج والداخل، وبهذا الشكل يستند "الأنا" على تراكمات هائلة من صور الماضي.

القسم الثالث الحلقة14 التراكم المعرفي

ربط فريدزر تطور الفكر البشري بحركة التطور النفسي وتراكم المعلومات والتجارب من جيل لآخر، مما يعني أن إلغاء الموروث الثقافي للمجتمعات هو عبارة عن حكم إعدام لعملية التطور الآتية من عملية اكتساب المعرفة بشكل تراكمي عبر الأجيال، ففي حال إفتراض قيام كل جماعة بالتجارب السابقة نفسها التي قامت بها الأجيال السابقة والتعلم من جديد لتأسيس خبرات متتالية لانعدم التقدم البشري. ولهذا سماها فريدزر بالتراكم المعرفي للروح الجماعية، أو بمسمى آخر "يونغي" اللاوعي الجماعي. وكما يعد الموروث الثقافي المتراكم العامل الأساسي لتطور المجتمعات، نجد أن تراكم الخبرات وتنوع المعلومات تساهم في ليونة الإدراك.

هنا يتوجب عليّ التوقف قليلاً للتعرف على آلية انتقال هذه التجارب والمعلومات الموجودة في وعاء جماعي إلى الأفراد.

أطلق يونغ مصطلحاً في علم النفس وهو اللاوعي الجماعي المرتكز على نظرية الرموز الأم المنبثقة بدورها من نظرية الحفاظ على الطاقة التي طرحها روبرت ماير الذي اعتبر أن فكرة الطاقة والحفاظ عليها هي الفكرة الأصلية الموجودة بشكل خفي في اللاوعي البشري. واعتبر أيضاً أن الديانات الأكثر بدائية المنتشرة في جميع أصقاع العالم، تأسست على صورة القوى السحرية الموجودة في كل مكان، لتكون مركزاً لكل شيء والذي أطلق عليها ارثور لفجوي اسم "الطاقة البدائية". فمنها انبثقت مصطلحات متعددة مثل الخصوبة، السحر، الروح، الإله...الخ، ليلجأ الإنسان إلى مزج الطاقة مع الرموز، فمنها نشأت مملكة الواكاندا في أفريقيا منذ آلاف السنين، ليطلق على كل قوة غير مفهومة أو ملموسة "الواكاندا"، فتعبر بذلك عن الأسرار والقوة والمقدسات الأبدية، فكانت الشمس والقمر والنجوم والرعد والريح والشياطين المسكونة في جميع العناصر، أي أنها (الواكاندا) كانت القوة العملية والكونية.

لاحظ يونغ أن هذه الصور وجدت عند أعراق مختلفة ومجتمعات متباعدة عن بعضها البعض، فكانت متشابهة في الرمز، ومختلفة في تفسيرها، لأنها نشأت من ظروف خارجية مختلفة للشعوب، لينتج عنها عملية دمج الظروف والعوامل الخارجية المحيطة مع التفاعلات النفسية لتعطينا تفاسير مختلفة. أما فريدزر فقد اعتبر أن تشابه طبيعة الظروف الخارجية التي مرت بها المجتمعات أدت إلى تشابه في العادات والتقاليد الناشئة عن رغبات نفسية متفاعلة مع المحيط الخارجي، فكان لعامل المناخ، والحرارة وتوفر المياه، تأثيرها على الشعوب.

ومن هنا نلاحظ أن المعتقدات والأديان استمدت جوهرها ومنبعها من العوامل الشتى المختلطة فيما بينها، لتتلاءم معها وتستمد قوتها من التأقلم الناتج عن تلك العملية، فتتغلغل نفسياً في أفرادها وتتشعب في أفكارهم لتكون الرموز الأصلية في اللاوعي.

تكلم يونغ عن تلك الصور البدائية فلاحظ أنها تتألف من أشكال تمثيلية أكثر بدائية وأكثر تراجعاً في تاريخنا البشري والتي ربما أتتنا من الخطوط الوراثية من الأسلاف، فكما يرث الإنسان أعضائه من قلب ودماغ، يرث أيضا الخصائص النفسية والرموز القديمة الآتية منذ نشأة الكائنات الحية. وهذا ما شرحه فيرينكزي في فرضيته الخاصة بانتقال ذكريات المعاناة القديمة إلينا، ومنها معاناة أسلافنا الحيوانات، والتي نشأت من جراء التأقلم مع المحيط الخارجي والتي أدت إلى تطور جهازها من مائي إلى برمائي.

هذه المعاناة تسجلت في نظامنا النفسي، حسب فيرينكزي، فهي تنتقل من جيل إلى آخر بطريقة لاواعية. وهكذا وجد يونغ أن الرموز الأم أتت من التاريخ البعيد وقبل ظهور العرق الإنساني وتطوره.

وكما للإنسان معاناته ورموزه، فللحيوانات أيضاً رموزها الخطابية فيما بينها ومعاناتها الداخلية.

وبالرغم من جهلنا لكثير من الأشياء عنها ورغم استمرارية المحاولات الجدية والبحوث واتساع رقعة علم الحيوان، إلا أنه ما يزال ينقصنا، إلى يومنا هذا، الكثير لاكتشاف عوالم الحيوانات وطريقة إدراكها.

بحث العلم كثيراً في آلية انتقال المعاناة النفسية وراثياً، إلا أنه لم يصل إلى جواب علمي شاف وكاف، فالفرضيات المبنية على هذه الملاحظات عجزت عن إعطاء جدول تفسير لآلية تسجيل الخصائص والمعاناة النفسية في الخريطة الجينية.

إلا أننا نستطيع تفسير انتقال هذه المعاناة أو الخصائص عند البشر عن طريق الوعاء الثقافي وهذا ربما ما قصده يونغ في اللاوعي الجماعي.

نلاحظ أن الحضارات الإنسانية القديمة قامت باستخدام رموز عدة تشابهت إلى حد كبير فيما بينها، فالتراكم الرمزي أخذ حيزاً مهما في داخلها، لتنبع من هذا التراكم، في مرحلة لاحقة، عملية نقش صور عديدة على الجدران كي نستطيع استذكارها فيما بعد والقيام بتحفيز الدماغ وربط هذه الصور بالمستجدات المعرفية كمحاولاتنا الشتى في فهم كينونة الإنسان والكائنات الحية الأخرى.

تابع هذا الوعاء رحلته عبر الأجيال ليكمل عملية نقل التجارب عن طريق العبارات والمفردات المتداولة بطريقة شفوية وتربوية، ولينقش الإنسان الرموز ويرسمها، في زمن آخر، لتكون تعبيراً عما يجول في فكره(*99)، وبعد اختراعه للكتابة أصبحت عملية انتقال هذا الموروث أسهل بكثير لتسجل المعلومات كتابياً.

كما يمكن القول: إن هذا الوعاء انتقل إلينا في مراحله الأولى عبر الرموز البدائية من خلال التعبير وقدرة الذاكرة الإنسانية على تخزينها ونقلها من جيل لآخر.

ومع مرور الزمن وتراكم الخبرات والتجارب تحول هذا الوعاء وبما يحمله من رموز وعبارات وكلمات وسلوكيات فردية إلى قوانين وأخلاق بعد إخضاعها لعملية غربلة جماعية.

ولا ننسى أن التفاعلات الإنسانية المتأثرة والناتجة عن ظروف محيطية معينة، أعطت زخماً مستقلاً لبعض القوانين، لتنفصل فيما بعد عن التفاعلات الأولية وتكتسب بذلك قوة خارجية مستقلة تتحكم بالأفراد والجماعات.

99- لا أتطرق في هذه الجملة إلى العوامل التي حفزت الإنسان على ممارسة النقوش والرسم على الجدران، فهي عديدة ومنها اعتقاد الإنسان بقوة النقش والرسم كقوة سحرية يمكنها التأثير على الواقع.

القسم الثالث الحلقة15 العقد المستقلة

يرى يونغ أن القوانين الأخلاقية أو الأفكار لا يمكنها أن تؤثر على الإنسان إلا في ظروف معينة تتناسب مع أرضيته النفسية، ليكون الفرد على إستعداد لاستقبالها وتقبلها. فهذه القوانين تتسلل إلى الأعماق البشرية من خلال الوسيط الإحساسي، لتتمكن الفكرة أو الشكل الممثل لقانون أخلاقي ما أن يتحول إلى "عقدة مستقلة". لكن وبحصول العكس، أي في حال عدم تعرض الفكرة إلى أي محفز يمكنه المساهمة في التحول وخلوها (الفكرة) من أي إحساس يمكن للفرد لمسه، تبقى هذه الفكرة سجينة لكلمات أو عبارات غير قادرة على التأثير. بينما نجدها وعند إكتسابها للعقدة المستقلة تتحول الفكرة أو القانون الأخلاقي من كلمات وعبارات إلى مفهوم حسي ذي تأثير فاعل على حياة الأفراد.

فلو تعمقنا أكثر في التعابير والأمثال المرتكزة على تجارب فردية ومن ثم جماعية تراكمت على مدى العصور، لوجدنا انها تُختزل في كلمات وأمثال ونصوص قدمت لنا كحصيلة جهود مكثفة غير خاضعة للتغيير وغير مؤهلة للتأقلم مع المستجدات الخارجية المحيطية المتغيرة. فتتخذ بذلك مساراً ثابتاً، لتصبح بذلك عائقاً أساسياً لعملية التطور، فتتحول إلى حقائق ثابتة. وعند إكتساب الفكرة أو المفهوم لقوة مستقلة خارجية نجدها تتحول إلى حواجز تقف في وجه وعي الأنا الإنساني. فمع كل ما يمكن أن تحمله هذه العبارات من حكمة إلا أنها تقع في فخ الحقيقة الثابتة لتقمصها إياها، وتبدأ بمزاولة عملها في برمجة عقل الإنسان فيصبح عاجزاً عن التمرد عليها. لهذا نجد أن التشبث بحقائق معينة والناتجة من جراء عملية الإكتساب المشروط الخاضعة لثقافة مكررة نشأت في زمن معين وتوقفت عنده، لتعيق مسار الحركة والتقدم نحو الأمام.

نلاحظ اهتمام عدد لا بأس به من الفلاسفة بالداخل النفسي وأثره على الإدراك، في زمنٍ لم يكن علم النفس قد أخذ حيزاً أو أسلوباً منهجياً كما هو حاله اليوم، ليستنتج نيتشه أن قدرة الفكرة في الظهور على السطح لا تتم إلا عند إختمارها في لاوعي الإنسان، لتقوم بفرض ذاتها على الوعي.

ونستطيع اليوم تكملة ما قاله نيتشه، لنقول إن امتصاص أية فكرة خارجية تخضع للتفاعلات النفسية الفردية، وعند اختمارها يقوم اللاوعي بطرح الفكرة مجدداً إلى الوعي في حال توفر ظرف خارجي يسمح لها بالتظاهر والإعلان عن نفسها. لهذا نجد أن للكلمة تأثيراً في الذات الفردية عندما تتمكن من التغلغل في الأعماق من خلال الوسيط الإحساسي، لتكتسب الكلمة شكلاً أو تمثيلاً أعلى. ومن أجل التعبير عن ذاتها عليها إمتلاك محفز قوي يدفعها لتحقيق عملية الطرح والتنفيس.

دعونا ننظر إلى صورة الإله المعبر بشكل ما عن مجموعة من إرادات وخيارات وحاجات نفسية ما انفك الإنسان بالبحث عنها في داخله، والتي تعكس في جزء منها فشل محاولات

الإنسان المتعددة الهادفة للسيطرة على الظواهر الطبيعية والتي نتج عنها شعور بالتعب والإنهاك والإستسلام. من هنا بدأت عملية طرح هذه الرغبات والتفاعلات الداخلية إلى الخارج حيث برع الإنسان برسم الصور المطروحة عن طريق خيال واسع وخصب آملاً بالتحليق بعيداً باحثاً عن قوة ما وطامحاً باقتنائها، إلا أنه وقع في فخ أخطائه الإدراكية والهاربة من أي واقع خارجي، فقام بنسج علاقة ما بين هذه الأخطاء وبين الواقع الخارجي ليعطيهما بعداً مسبباً، وبذلك قام بإنشاء علاقة فيما بينهما ليبحث فيما بعد عن براهين وهمية لا تمت للواقع بصلة.

هذه الحاجة ولدت في البدء من رغبات عديدة منها رغبة التمييز والسيطرة على الآخر لاقتناء ما يملك، فنجدها نابعة عن حاجة أنوية مركزية.

وسأعيد هنا ما قاله هنري لابوريت المتعلق ببحث الإنسان عن اللذة والسعادة والتي جعلته يصطدم بالآخر من منظور اجتماعي مما أدى إلى نشوء التسلسل الهرمي والمؤسس لمبدأ الهيمنة عند الإنسان وجميع أنواع الحيوانات على حدٍ سواء. فما يميز النوع الإنساني عن الأنواع الأخرى الحيوانية هي تلك النظرة الأنوية المقترنة بنظام اجتماعي هادف لخلق آليات فعل وتفكير عند الفرد. فالمجتمع يؤجج مجموعة قيم وأخلاقيات معينة عند الأفراد لصالح البنية الهرمية للمجتمع، لتنشأ عن هذه القيم أحياناً حالات وهمية لأخلاقيات مثالية تفتش عن الكمال والفضيلة، فتسجن نفسها ضمن أطروحات متمثلة بعقائد غير عقلانية تشبه إلى حد بعيد حالات الهلوسة والأوهام التي تنتاب بعض المصابين والتي تعبر عن حالة تعويض لتفاعلات وحاجات نفسية، فنلاحظ قيام هؤلاء ببناء جدار وحاجز في داخلهم يصعب إقتلاعه أو بتره، في بعض الحالات المستعصية، لتتفاقم الأعراض المرضية النفسية، وذلك لإصرار الفرد على رؤية محددة.

ولا بد من التنويه إلى أن وجود الأفراد في ظل مجتمع أحادي الثقافة لا يساعد أبداً على كسر الحاجز النفسي لديهم.

تنشأ التمثيلات العقلية عن أبنية نفسية وهمية تلائم المعتقدات المستمدة من الثقافة المحيطة، فنراها تشبه كثيراً حالات المصابين بشرخ دماغي، وكما أوضحت بعض التجارب التي قام بها الباحثون على بعض المرضى النفسيين الذين بينوا لنا إنسلاخ هؤلاء عن واقعهم الخارجي فهم يعيشون داخل واقع نفسي خاص بهم.

وبنظرة سريعة على أصحاب الحقيقة المطلقة والجماعات التي تعزي نفسها على أن إلهها قد خصها تحديداً واختارها كي تغرق في سباتها بجانبه. نجد تشابهاً كبيراً بينهما، فكلاهما تاها في غياهب الأوهام والظلام.

نعلم أن أسس القارئ في المجتمعات الدينية وبالأخص الابراهيمية مرتكزة على أسس ثابتة، ويعود ذلك، إلى التعاليم الدينية المزروعة في أدمغة الفرد منذ نعومة أظفاره. هذه الأسس الآلية تحرم الفرد من غرائزه ومن التغلغل في نفسه، لتحصره ضمن قيم زائفة منافية لتركيبته

النفسية، إلا انها تشعل في نفسه رغبة التميز عن الآخر وذلك تعويضاً لما حرمته منه الأفراد والجماعات المتبنية لرؤى ومفاهيم ومعتقدات إكتست بغطاء الفضيلة والأخلاق العليا.

ينشأ عن هذا التعميم شلل جزئي في التعاطي مع تعابير ومفاهيم جديدة، ليصبح الفرد عاجزاً عن الإبحار في فكره والتغريد بعيداً عن كل القيم الثابتة المغروسة في مخيلته، لهذا نلاحظ أن نفي الفرد لكل ما لا يعرفه هو أمر ناتج عن خلو هذه الأسس من مبدأ النقد والتشكيك، مما يجعل منه فرداً متشبثاً بآرائه، رافضاً لكل جديد، خاضعاً لقوانين الجماعة والإله وتائهاً في سراديبه المظلمة، ليبني في داخله أبواباً واهية حديدية يصعب عليه فتحها.

هذه الأبواب الوهمية المشيدة في سراديب العقل، نجدها ذات منشأ نفسي، فمن أهم خصائصها، استعداد هذه الأوهام للتحول إلى حقائق ثابتة تسكن حالاتها وتستولي على فكر أفرادها. وهذا ما نراه في حالة التشبث الهذياني للأفراد والجماعات المؤمنة بحقيقة وواقع وإدراك واحد. فلا حقيقة لديهم إلا حقيقتهم ولا إدراك للخارج إلا من خلال ذاتهم. يمتلئ هذا الإيمان بالمعتقدات وبأجوبة نبعت من التفاعلات النفسية، والمشحونة في ذات الوقت بأوهام مكثفة، لتساهم في عملية تضخيم الإله وتزداد الرقعة والمساحة بين المؤمنين وإلههم، ليحتل المكان الأكبر في حياتهم ويصبحوا عرضة لكيانه الخيالي وأداة في أيدي رجاله.

اعتبر فيلهلم ريتش أن الديانات لم تنشأ كسبب مرضي بل كانت أعراضاً لمرض عانى منه الإنسان. فعملية الإدراك للأمور تتم من خلال الأحاسيس التي تساهم في عملية الغربلة لكل ما هو خارجي، لتقود عملية الإدراك وطريقة الرؤية، فتحدد للإنسان ردات الفعل القائمة على الأحكام المكتسبة. لهذا نجد اختلافاً كبيراً في الرؤية والإدراك بين الأفراد المستسلمين لقيود عديدة وبين الأفراد المتحلين بمرونة ذهنية وفكرية والقابلين لِتلقي معلومات وأفكار جديدة. فقد لاحظ ريتش أن الأفراد المتقوقعين ضمن إطار محدد يعانون من مشاعر القلق الدائم وذلك لصعوبة اختراقهم الجدار النفسي الداخلي القامع لجميع دوافعهم البيولوجية. فالدافع النفسي يستمر في محاولاته المتواصلة لثقب الجدار النفسي وللإعلان عن نفسه، وفي حال فشِل في ثقب هذا الجدار، نراه يلجأ مضطراً إلى ممارسة العنف والقوة.

نجد ذات التفسير عند هنري لابوريت فيقول "يرافق ظهور الدافع مشاعر الفرح والسعادة واللذة ليعبر عن راحة عند اكتفائه. أما في حالة عدم الاكتفاء وعجز الدافع عن التعبير عن ذاته للوصول إلى الراحة، نجده يسلك طريقاً معاكساً ليقوم بتوجه الفرد لتبني سلوك عنيف مغاير وذلك من أجل الهروب من فشله في تحقيق اكتفاء الغرائز".

لا بد من التنويه إلى أن الإنسان لا يستطيع اكتفاء توازنه البيولوجي إلا من خلال فعل حركي يمارسه على المحيط الخارجي. وفي الحالة المعاكسة، يصبح الهروب والعراك أمراً ضرورياً، فهو وليد لمحاولة منع الفرد في تحقيق هذا التوازن والذي يؤدي إلى ولادة شعور القلق لديه.

ما تعاني منه البشرية اليوم هو ذاك التفاوت الفكري والعلمي بين المجتمعات، لينعكس بعضاً من آثاره السلبية الناتجة عن هذا التفاوت على المجتمعات المتفوقة علمياً ومعرفياً،

لتشكل بعض الخطر عليها من جراء نزوح الأفكار المتقوقعة على هذه المجتمعات، ولتنشغل بمواجهة الخطر ودرئه بدلاً من تكملة الطريق نحو إبداع متجدد ومعرفة أوسع، فالخطر يأتي من المجتمعات والأفراد التي سلمت ذاتها للخرافات، لنجد أن سجناء العبودية والخرافة يسعون جاهدين في نشر أمراضهم الفيروسية على سائر شعوب الأرض.

كما نجد أن هذه المجتمعات الراكضة وراء اعتقاداتها الغيبية ما زالت تعاني من نقص في النضوج النفسي والنابعة من حاجتها لاكتفاء مشاعرها التائهة والإحساس بامتلاك قوة خفية توجهها وتساعدها في درء المخاطر عنها لحمايتها، كما هو الحال عند الطفل. فالرضيع يتعلم أن البكاء هو السبيل الوحيد لاكتفاء حاجاته البيولوجية من طعام وشراب. من هنا نجد أن المجتمعات الدينية التي لا تكف عن الإبتهال إلى إلهها من أجل إطعامها لا تختلف كثيراً عن حالة الرضيع العاجز عن إطعام نفسه. أي أن هذه المجتمعات لم تستطع تجاوز مراحلها الطفولية وذلك لخلل ما في عملية نضوجها الذي يأخذ اشكالاً متنوعة، فمنه النضوج الفيزيولوجي والنفسي والعقلي.

يكتمل النضوج النفسي من خلال عملية استيعاب الإنسان لحاجاته ورغباته ومشاعره المتضادة فيما بينها ومن ثم مصالحته مع ذاته، كما أن تجنب وقوع الإنسان في العبارات والمفردات المثالية، تزيد من حالة الإنفصال بين وعيه ولاوعيه والتي تؤثر بشكل خفي على سلوكياته وإدراكه وسلامة عقله. فنجد مثلاً أن تصرفاتنا مختزنة بطريقة آلية وباطنية ولا ندركها بشكل واع لأنها نتاج تراكمي نشأ عن الثقافة الاجتماعية والتربوية، فاختزنت في أعماقنا واندمجت بالأثر الحسي لحظة تلقينا إياها والتي تعترض اكتفاء الرغبات والغرائز البيولوجية الساعية للحصول على اكتفائها (أقصد هنا بعض المجتمعات المؤسسة على قواعد صارمة وقمعية تمارسها على أفرادها)، مما يولد حالة قمع مستمرة للرغبات وشعور بالإنكسار الداخلي لدى الفرد، فتدفعه لاستبدالها عبر مثاليات وأخلاقيات جماعية يتبناها. لكننا نعلم أن هذه المثاليات لا تروي عطش الرغبات الطبيعية البسيطة عند الإنسان والباحثة لتفريغ شحناتها، وفي هذه الحالة تخلق عند الفرد شعوراً بالضياع، فتتباعد المسافة ما بين رغباته الدفينة وبين تصرفاته اللاواعية والقيم والمثاليات التي صاغتها الجماعة له من أجل التحكم به والسيطرة عليه.

أما النضوج العقلي فنلاحظ أنه لا يكتمل إلا من خلال القراءة العلمية الخالية من أي رقابة حكومية أو دينية أو اجتماعية، والتحلي بقدرة هدم وبناء لجميع المعايير المشروطة من تعاليم أرادت بها الثقافة الاجتماعية ترسيخها للحد من تفكيرنا. وهنا يأتي دور المنشآت المدرسية وانفتاحها نحو جميع المفاهيم إن كانت جماعية أم فردية، ومن ثم يأتي دور الأهل في تربية أطفالهم واعتبارهم عقولاً مستقلة عنهم والإعتراف بقدراتهم العقلية، مع تجنب زرع قناعاتهم الخاصة بأطفالهم وترك المجال مفتوحاً أمام الأجيال القادمة للعطاء والإبداع.

مما لا شك فيه أن العامل النفسي للإنسان له أثر كبير في خلق مفاهيم وقناعات وأساليب جديدة يستطيع من خلالها إنعاش مشاعره الدفينة وتجديد الثقافة الاجتماعية وتوسيع قدرة الإدراك لخلق نماذج ثقافية جديدة.

ما زالت الينابيع الأولى تشكل أرضية خصبة لقناعات الإنسان حيث امتزجت رموزها ومخاوفها المتراكمة في الأنا الجماعي. وهي تداخلت مع المشاعر المتصارعة والمتزاحمة في الداخل النفسي للفرد حتى لم يعد بالإمكان النظر إليها كقوة مستقلة. وحيثما عجزت عن طرح تفاعلاتها النفسية إلى الخارج بصفة مباشرة، فانها بقيت حبيسة ذلك الداخل النفسي لتعبر عن نفسها بوسائل ورموز وقوانين وأخلاقيات غير مباشرة.

الخاتمة الحلقة 1

الحياة كما أراها، رحلة عبر البحار والمحيطات، نتوقف بين تارة وأخرى عند محطات شاطئية، باحثين عن سفن موجية كي تقذفنا بعيداً عن وجهتنا الأساسية. ولكننا نتمرس خلالها في مهنة القبطنة. وفي بعض الأحيان، عندما نتعب من امتطاء الأمواج، نعود إلى مكاننا الأول حيث الطمأنينة (التي توفرها الأساطير الاخلاقية والدينية) وحيث الأمان الفارغ من نشوة المغامرة، فنجد أنفسنا نخوض في ممارسة جنسية آلية خالية من طقوس استكشاف الطرقات والمنعطفات الجسدية. فنحرم ذاتنا من استقبال التموجات المغناطيسية الطبيعية التي يمكنها أن ترسلنا إلى سماوات تعلو على جميع مخابئ الآلهة الساكنة في الخيال الإنساني.

إنها رحلة مستمرة ما بين المد والجزر؛ ما بين التزلج على الأمواج والإستلقاء على الرمال؛ ما بين المشاعر المكثفة المتعاكسة فيما بينها، والتي تصل إلى ذروتها عند لحظات المغامرة، وبين لحظات الركون الهادئة والميل للعودة الى برنا الهادئ المؤقت لاحتساء أقداح تأمل تحفز على مداعبة الخيال والسفر في كل الطبقات الكونية، قبل العودة للمباشرة في رحلة لا تنتهي إلا عند لحظة الجماع مع الموت.

لقد تكلمت في هذا الكتاب عن بعض النظريات التي تناولت منابع الآلهة والروحانيات لألقي الضوء على أفكارها الأولى التي تشعبت عبر الزمن وتطورت حتى أصبحت سراديبَ يصعب على الفرد الخروج منها وخصوصاً عندما يرزح تحت وطأة ثقافة- اجتماعية متشنجة تسحق كل فرد يحاول الخروج من شرنقتها.

وحتى اليوم، فما زال الإله يجسد جميع الصراعات النفسية المتنازعة فيما بينها، كما يجسد رغبة جماعة ما في السيطرة على أخرى، وهو ما يعني أن الإله لم يصل، بعد، إلى مستوى النضوج الروحاني لدى مؤمنيه، فما زال في مرحلة الإرهاصات الأولى. وفي المقابل، فقد تجاوزت الأديان حدود أرضيتها النفسية لتشرعن نفسها قاضياً ومعلماً وناصحاً وجلاداً على كل من يؤمن بها ولتمتد كالأخطبوط وتُطبق على عقل هذه المجتمعات.

ليس من الصعب على المجتمعات الدينية أن تجد طرقاً وأساليب للسيطرة على أفرادها واستهلاكها لصالح فئة قليلة تحت ذريعة الدين والإله واضعة بذلك جملة من شروط وقواعد جماعية تحصرهم ضمن نطاق ضيق.

ولكن ما هي الآليات والوسائل المعتمدة من قبل هذه الفئة للحفاظ على سلعتها (الفرد)؟

لا شك أن جميع المجتمعات، مهما تفاوتت درجة وعيها وإدراكها واختلفت ثقافاتها، تسعى إلى الحفاظ على الهيكلة الاجتماعية والمصالح العامة من خلال إيجاد توازن ما بين اكتفاءات

الفرد والجماعة ولو في نطاق الحد الأدنى. إلا أنه في مجتمعاتنا الدينية يتم إلغاء متطلبات الفرد وحصره ضمن علبة صغيرة لتحرمه من التمتع بأحاسيسه الخاصة وتمنعه من الغوص في خياله الرحب من دون رقابة. ومن أجل إحكام الرقابة الداخلية عليه، فإنها تبدأ بغرس صورها المشوهة تاريخياً وتقوم بتعظيم الأنا الجماعية التي تستمد قوتها من دينها وإلهها المعظم. ولكي تجعل هذا ممكناً، فإنها تعطي الفرد بعض الحقنات المورفونية لترسله إلى عالم حاكت قصصه وتاريخه بيدها.

ولدى النظر إلى المجتمعات التي ارتفعت فيها رتبة الفرد إلى أكثر من مجرد رقم زائل، فإننا نجدها في سعي دائم لتأمين شروط حياتية جيدة للأفراد تتناسب مع التطور الكلي وذلك لوعيها بأهميتهم، فمنهم تخلق الثقافات وتتطور المجتمعات. أما في مجتمعاتنا، فنلاحظ أنها اعتمدت على تحويل الفرد إلى كائن تنحصر همومه ومتطلباته في إشباع حاجاته الأساسية الضرورية للبقاء. أي أن الدين يلجأ إلى التوغل في حياة الأفراد وذلك لتسهيل عملية الإخضاع والهيمنة عليهم، مما يسبب لهم معاناة طويلة و"يوفر" لهم حالة من عدم الاكتفاء المزمن.

ومن أجل السيطرة بشكل حازم على كافة مكونات المجتمع، تلجأ الثقافة الجماعية لحياكة "نظرية مؤامرة"، لتكون الدواء الوحيد للشعوب العاجزة عن إعطاء الجديد، ولتقوم بعملية إعادة ترتيب صورها التاريخية بطريقة تناسب نظريتها المزعومة. ولتختلط الصور بين انتصارات وانتكاسات مع كمية من مشاعر الإحباط الناتجة عن الفشل في تحقيق الغاية.

يمكننا القول: إن نسبة وجود الشحنات المحفزة للعمل والإبداع عند أفراد هذه المجتمعات معدومة أو شحيحة إلى حد أنها لا تكفي لتحريك الإرادة الجماعية، فتبقى عاجزة عن مواكبة تطور الحركة البشرية. وتلجأ هذه المجتمعات وبشكل إضطراري إلى تحديد ما هو الأفضل أو الأسوأ لها بالإرتكاز على جملة قياسات تاريخية وثقافية ومشاعرية خالية بشكل عام من النظرة الإيجابية للمستقبل.

تقوم الجماعة بشكل عام بتحديد المصطلحات والمشاعر حسب الوعاء الثقافي وما يحمل في طياته من معتقدات وعادات وسلوكيات والتي هي حصيلة لدرجة الوعي لدى جماعة ما في فترة زمنية معينة.

وبما أن هذه المجتمعات ترتكز على أسس لا تتمتع بأي حراك، نراها سجينة نفسها وقيمها ومصطلحاتها، لتقوم بالتقوقع ضمن دائرة زمنية وحقبة تاريخية، فتحاول جاهدة تكرار التاريخ من جديد بحثاً منها عن صور وتمثيلات عقلية علها تعوض حقبات الحرمان.

وقبل الدخول في الترهات التاريخية والنفسية للمجتمعات التي ما زال أفرادها يعانون من الاستبداد على جميع المستويات، دعونا نفسر النظرة المختلفة لمفهوم "الأفضل والأسوأ" من قبل الثقافة –الاجتماعية وعلاقة هذا المفهوم بنسبة مستوى الوعي والإدراك للأفراد والمجتمعات.

نجد أن عملية الإدراك مقترنة مع عملية الإحساس بكل ما هو خارج عن الكيان الجمعي أو الفردي، بالإضافة إلى وجود العامل الإحساسي المشترك الذي يساهم بتحويل العبارات

والكلمات الصادرة عن أنوات مختلفة والتي تخبئ في أجوافها تجارب إنسانية إلى عملية توحد بينها وبين متلقيها.

فالإنسان، وبشكل عام، لا يستطيع لمس معاني كلمات هاربة من قاموسه الثقافي، وذلك يعود لنقص في التجربة الحسية، إذ لا يمكن للإنسان الشعور واستيعاب تجربة مختلفة في أحاسيسها ومعطياتها عن أحاسيس تجاربه المستوحاة من نموذج ثقافته وتجربته. فمن أكثر الأسباب التي تحد قدرة الأفراد والجماعات على التعاطي والتجاوب مع كل ما يختلف عنهم هو غياب ذلك العامل الإحساسي الذي يجعلهم يتفاعلون مع حدث أو يشعرون به دون غيره.

وبإلقاء نظرة على المجتمعات الدينية في عصرنا هذا، نجد اختلافاً كبيراً بينها وبين المجتمعات التي استطاعت تنحية الدين عن العقل. فالمجتمعات ذات المنشأ الديني والتي تعتمد اعتماداً كلياً على الغيبيات، عاجزة عن التماشي مع المتغيرات الخارجية وذلك لإيمانها المطلق بحتمية القضاء والقدر والذي يولد عنه إستسلام سلبي للواقع، وليقود الفرد أو المجتمع نحو التخلي عن مبدأ الحراك من أجل التغيير...

الخاتمة الحلقة2

إن آلية الإدراك المبنية على "الأنا" المستندة، وبجزء كبير، على أنماط صور عقلية في الدماغ غرست بتأثير الثقافة-الاجتماعية، تستطيع من خلال الدماغ الذي يقوم بمعالجتها عن طريق الأحاسيس المتفاعلة مع المعلومات المقتبسة من الخارج، أن تشكل حافزاً أكبر للخيال المؤسس لبنية "الأنا" الفردية.

لهذا نستطيع القول: إن الثقافة الاجتماعية الدينية تعترض وبشكل مستمر طريق الخيال الفردي، فتقوم بتوجيهه وتقييده وتمنعه من الوصول إلى مرحلة الإبداع في جميع مجالاته العلمية والفكرية وتضيق الخناق على أدواته المستخدمة، وتمنعه من الترحال والسفر في فضاء حر واسع لا تحده أنوات بشرية أو إلهية.

وبالعودة إلى الفرد الذي يميل في اعتقاداته إلى الغيبيات، فإننا نجده، وبفعل إيمانه، يرتكز على أسس ثابتة قاسية تحرمه من اكتفاء غرائزه ومن التصالح مع الذات، وتجعله عاجزاً عن الغوص في الخيال والقدرة على الحلم. وهكذا يفقد الإنسان أحد أهم مفاتيح الإبداع، فالحلم هو المحرض الأساسي لدفعنا إلى السفر الإبداعي عبر الخيال.

ينتج عن حالة القمع المستمر للكيان الفردي استعصاء في القاعدة النفسية، فترفض الإنصياع للتطورات التي تجتاحها، وتقوم برفض جميع ما يختلف عنها، لا بل أكثر من ذلك، تصاب بحالات من التشنج المزمن. وهذا بالطبع ناشئ عن ثقافة جماعية تربى عليها الإنسان لأن الجماعة غير القابلة للحراك تقوم بتجريد الفرد من كل التقنيات النفسية التي تتيح له تلقي المعطيات الخارجية الغريبة عن نموذجه الثقافي، وتحول دون تمكينه من إدخالها إلى كيانه. لهذا نجد أن أفراد هذه الجماعات ذات الثقافة الجامدة يقبلون أن يصبحوا أرقاماً حسابية مجردة من أية خصوصية في كتلتهم الجماعية، فهم يميلون إلى ترجيح كل ما هو متكرر، ويقبلوا أن يكونوا سجناء لمنهج وأسلوب واحد.

تعتمد المجتمعات المتقوقعة حول ثوابت دينية إلى وضع لاصقات محدودة للكلمات والتعابير والجمل... وبهذا تقوم بإلغاء العامل الإحساسي الذي يمكنه أن ينشأ من جراء عملية الإبحار للفرد في ثقافات وتجارب مختلفة عن نموذجه الثقافي. مما يؤدي إلى شلل جزئي في التعاطي مع تعابير ومفاهيم مختلفة ونفي مستمر من قبل الفرد أو الجماعه لكل ما هو جديد أو مختلف عنه.

نجد أن هذه الأسس الثابتة تحصر الأفراد ضمن قيم زائفة منافية لتركيبتهم النفسية، فتشعل في أنفسهم رغبة التميز عن الآخر وذلك تعويضاً عن الضرر النفسي الذي سببته هذه الأسس أو الثقافة من آثار حرمان شديد مارسته ولمدة طويلة على جماعاتها، وذلك من خلال زرع بعض المعايير والأخلاقيات الثابتة التي تستند إلى ثقافات قائمة على "الكبرياء"، و"شرف الانتماء". وهي تلجأ إلى زيادة وتيرة القمع على الأفراد، لتسجنهم تحت عباءتها الضيقة،

فينطوي الأفراد تحت لواء ثقافة أحادية الاتجاه في الفكر والأسلوب، لتعتمد ثقافة إلغائية لكل ما هو مختلف عنها.

تكرس هذه المجتمعات عملية التصعيد المستمرة لمشاعر وأحاسيس وكلمات... فتخلق بالمقابل لها شعوراً باضطهاد للكيان وذلك من خلال قمع الرغبات والغرائز. فبدلاً من مساعدة تلك الرغبات والغرائز للظهور والنضوج، فإنها تقوم بتحوير إتجاهها الطبيعي، ما يؤثر سلباً على سلوك الأفراد وتصرفاتهم وعلى سلامتهم النفسية والعقلية والفيزيولوجية.

لقد بيّن لنا العلم الدينامي والمعرفي نتائج تأثير التمثيلات العقلية تحت-الواعية المثيرة لأفكارنا ومشاعرنا، فغالبية العمليات الإدراكية والمعرفية والدوافع هي في الأساس لاشعورية.

أكدت لنا دراسات إكلينيكية آلية تحويل طاقات الأفراد إلى طاقة تصب فقط في مصلحة الجماعة مع إلغاء كامل لتميز الفرد حيث يتم طرح الشحنات الداخلية المتراكمة عن طريق مشاعر عدوانية أو عنف تجاه الآخر المختلف مع تشبث كامل بمنظومة قمعية قائمة على التحكم الكامل للفرد.

وبما أن الإنسان بشكل عام يسعى نحو الاقتناع بمسيرة حياته المفروضة عليه وذلك من أجل خدمة "مبدأ الاستمرار" في الحياة، نجده يقوم بعملية استسلام جزئية، ليشاطر جماعته في عدوانيته جميع المجتمعات ذات الثقافات المختلفة المتصدرة في مجالات عدة حيث يقوم بتحميلهم مصائبه ومعاناته.

نعود إلى "نظرية المؤامرة" وضرورتها لمعالجة حالة النقص التي يعيشها الفرد في هذه المجتمعات، فنرى انعزال هذه المجتمعات وانغلاقها على ذاتها، فهي لا تتوقف عن الشكوى والمعاناة من شعور دائم بالإضطهاد. وبدلاً من أن تجابه مشاكلها وأوجاعها وتتوقف للحظات أمام المرآة كي ترى بوضوح مآسيها المتجذرة فيها والبحث عن الأسباب والتراكمات التاريخية التي جعلتها سجينة تاريخها وثقافتها وإدراكها المحدود، فاننا نراها تبحث عن أعذار، فتقوم بخلق عداوات والبرهنة على وجود مؤامرات خارجية تريد النيل منها، من أجل استخدام جميع الذرائع كوسيلة تخدير نفسي.

ومن أجل حفاظ هذه المجتمعات على عبودية أفرادها، نراها تقوم بتكريس مفهوم الكمال. فتقوم بتحويل الفرد إلى آلة مبرمجة تكرر وتردد ما تريده مجتمعاتها وهو القضاء على التنوع. فينطوي الفرد وينعزل. وبانطوائه يتقوقع المجتمع على ذاته، وهكذا يضيع الهدف الرئيسي عند الأفراد للوصول إلى الاكتفاء والرفاهية. كما تضيع القدرة على الوصول إلى فكر حر غير مقيد الذي هو أساس التقدم والعطاء الإبداعي، وهو الطريق نحو المعرفة وازدياد الوعي.

إذن، تكتفي هذه المجتمعات ومعها الأفراد بتجاربها المختزنة في ذاكرتها الطويلة الجمعية، فترفض كل ما هو مختلف بشكل قاطع، مما يؤدي إلى عقم في عملية التعاطي مع الآخر المختلف. وبدلاً من الخوض في طريقة تفكيره ومحاولة فهم الآلية، تسعى هذه المجتمعات إلى فرض حججها ومبرراتها وبالتالي فرض إدراكها على الآخر من خلال مبدأي الخير والشر المطلقين ومفهومها الجامد للخطأ والصواب. وبما أن هذه المجتمعات لا تملك

خططاً إستراتيجية قائمة على الإعداد لفترات طويلة، فإن نظرتها لكل ما هو خارج عنها تعكس درجة تأثير التفاعلات النفسية التي تمر بها وعدم قدرتها على التخلص من المشاعر الحسية التي تقيدها وتسيرها. وهذا يؤدي إلى نشوء عجز كامل للقيام بأي تغيير في مفهوم ونظرة الآخر المختلف، لهذا ينتهي بها المطاف للتمييز فيما بينها وبين المجتمعات المختلفة عنها لينتهي بها الأمر إلى التمييز بين أفرادها لأنها تتبع آلية واحدة متكررة.

فمن الناحية النفسية، وبسبب الانتكاسات العديدة، احتفظت المجتمعات المتقوقعة على موروثها الثقافي الثابت، كما هو الحال في المجتمعات (العربية)(*100) بشعور الهزيمة المتكررة. وحسب دراسات عديدة، فقد أوضح لنا علم النفس العصبي أن ازدياد التعرض المتكرر لحالة معينة، يجعلها تتحول إلى محفز ذي أثر زمني طويل. ليرافق هذا المحفز شحنات عاطفية تساهم في تغيير الواقع والإحساس بالهزيمة، فيتحول هذا الشعور إلى نصر ضائع أو وهمي. وهذا ما يحصل مع هذه المجتمعات، فنراها في حالة تأهب دائم ضد كل من يختلف عنها. وينتج عن هذا الشعور إحساس بالإنطواء. وهنا تشتد على هذه المجتمعات وتيرة التأهب فتخيط لذاتها ثوبا دفيناً من الخوف وتعلن حرباً على معتقدات الآخرين. ومع ازدياد شعور الخوف، تبدأ هذه المجتمعات بقمع ذاتها، وتحطيم أفرادها أولاً، لينتهي بها الأمر إلى تكرار مآسيها المرسخة في ذاكرتها، ولتتبنى بعدها موقف الجندي البسيط الذي لا يرى شيئا من ساحة المعركة سوى خندقه الخاص. وبما أنها تفتقد إلى كوادر بناءة قادرة على التكيف مع التحولات التي تمر بها، تنعدم لديها إستراتيجيات الخروج من محنة التخلف، فتنتقل إلى حالة من الهيجان الكامل المشحون بمشاعر الخوف والإرتباك الشديد.

في مثل هذه الحالة، لا يبقى لهذه المجتمعات إلا أن تفتخر بديانتها المحلية، لتسن منها قوانينها وأسسها، وتتبع نظاماً قديماً لا يصلح أن يتماشى مع المتغيرات الجذرية التي طرأت على المجتمعات بكاملها، وخوفاً من فقدان ما تملكه وهو الفرد، نجدها تضيق الخناق عليه، فتتآكل أعمدة البناء الإبداعي الفردي. وها هي تشبك نفسها في دائرة ضيقة، وترفض النظر إلى كل ما هو متحرك خارج دائرتها.

تحارب هذه المجتمعات على جبهتين، جبهة داخلية، لشل حركة أي تمرد أو تغيير من قبل أفرادها، وجبهة خارجية لإثبات ذاتها ومعتقداتها أمام الآخرين. لكن نظرتها المحدودة والمتشائمة تجعلها تبتعد عن حالة السلم والإستقرار الداخلي، لتدخل في حالة قمع ذاتي.

هذه العلاقة المتبادلة ما بين الجماعة والفرد ترضخ لآلية إكتساب جزئي وشرطي فيما بينهما. فبينما تتبنى الجماعة معتقدات أفرادها (من قبيل دين الدولة الرسمي) يتنازل الفرد عن (فرديته وأفكاره الخاصة) لصالح الجماعة، لينتج عنها إلغاء للقيمة الفردية لصالح الجماعة، ويصبح الفرد على استعداد كامل للتضحية بنفسه من أجل الجماعة. وبما أن هذه المجتمعات تستمد قيمها وأحكامها وقضائها من الدين، يصبح الدين هو الهدف السامي الوحيد لكل فرد يرغب بإظهار وإثبات "أناه" للإعتراف به من قبل جماعته، فيقوم بتبني مبدأ

استبداد الجماعة ومحاربة الأفراد الذين يحاولون التغيير لصالح الفرد والإبداع والحياة...

**100- اضطررت لاضفاء صفة العروبة على هده المجتمعات للتعريف فقط، مع أني شخصياً لا أميل إلى تعريفها بالعربية وذلك لتنوع القوميات الموجودة فيها والتي لا يمكننا الغاءها أو اجبارها على التبعية للغير، متذرعين بحجج "حقوق الأكثرية"، ولهذا أجد أن علينا تثبيت حق الفرد كفرد من دون التطرق إلى انتمائه القومي أو العقائدي الديني أو اللاديني.*

الخاتمة الحلقة3

تتبنى الجماعة قضية الدين والله لتستطيع الوقوف ضد عملية التغيير، فنجدها تقف كالصخرة لتقوم بكبح مسار الأفراد وكل من يرغب منهم بالتمرد على هذا الواقع، فلا تلبث الجماعة أن تحول هذه المحاولات الفردية إلى شعور بالفشل عند أفرادها، مما ينتج عنها حالات مرضية نفسية، فينعدم التوازن ما بين المد إلى الخارج، والجزر إلى الأعماق والمخيلات.

يشكل الفرد نواة التوازن في المجتمع. فأي تراجع أو خلل لديه نجده ينعكس بشكل مباشر على جماعته. ومع خضوع الفرد تبتعد الكتلة الجماعية عن الحلول الواقعية لتطوير المجتمعات. وبإبتعادها نرى هيام هذه المجتمعات بالفانتازيا لمجابهة الرغبات الدفينة في الأعماق، فتختلط الرغبات المكبوتة في الداخل بالضغوطات الخارجية، لينشأ عنها تناقض واضح في شخصية أفرادها. مما يؤدي إلى فراغ سوسيو- ثقافي يعطل القدرة على التجديد والإبداع واجتراح المخارج من التجارب الفاشلة. ولأن المجتمع الرافض لأي معطيات خارجية غريبة عن جسده وعن وعائه الثقافي أو عن تراثه أو معلوماته، يصاب بحالة من الجمود، ولأن المعرفة والوعي تستمدان نضوجهما من غزارة المعلومات والتجارب واكتساب الجرأة على كسر الدائرة الضيقة للمحيط المنعزل الذي يسبح أعضاؤه (الأفراد) به من دون أي تجديد لعوامله الحياتية والتنفيس عن السموم المكررة، فإننا نحتاج إلى كمية من الإرادة الواعية والصلبة للخروج من أفخاخ الثقافة المقيدة، وذلك بالتخلص أولاً من الشعور الناتج عن الخوف من الأحكام الصادرة بحق الفرد والناشئة، في ذات الوقت، عن ثقافة جامدة لا حراك فيها تكبل أفراد المجتمعات وتكبحهم من السفر في الفضاء الخيالي الواسع.

ينشأ عن هذه الحالة، في إعتقادي، تشنج عند الأفراد ليصيب جميع طبقات المجتمع، بما فيهم قادة فكره. فنجد استحالة بعض المثقفين، سواء كانوا كتاباً أو فنانين أو مبدعين، من الخروج من دائرة رسمت لهم من قبل الجماعة، لتدخله في شرنقة لا تختلف كثيراً عن بقية أفراد المجتمع، ليصبح المجتمع بجميع فئاته، وبالأغلبية، أسيراً لمنهج وأسلوب وإبداع مستنسخ.

لا شك أن الطريق الأنسب للإنسان والذي يساعده في الخروج من هذه الدائرة الضيقة تكمن بالمعرفة المتنوعة من أجل اكتشاف آفاق جديدة تصب في منفعة الأفراد والجماعة، ولهذا لا بد من الإستناد، أولاً، إلى فكر قابل للتغيير وتبني "اللاحقيقة" التي تعكس ليونة في الإدراك من دون تبني أحكام تقوم على مبدأ "الخطأ" أو "الصحيح" الثابت المؤدي إلى "حقيقة" ما. فكلاهما (أي الخطأ والصحيح) مرتبطان مع بعضهما، ليساهما بالعبور نحو مساحات جديدة من المعرفة. ربما تعكس لنا "اللاحقيقة" رؤية أكثر وعياً للخارج المحيط وللإدراك الذاتي، معتمدة بذلك على الحراك الطبيعي المتغير والخاضع لجملة من القياسات المتعددة.

فتبنينا للثوابت يعاكس التغيرات البيئية والزمنية؛ ولهذا علينا، ثانياً، التخلص من جميع الرواسب المبنية على أساس نموذج ثقافي أحادي، وذلك من أجل امتلاك القدرة على التقمص والدخول في ثقافات وتجارب مختلفة.

لقد أعطانا علم البيولوجيا شرحاً موسعاً للنماذج الثقافية والمعرفة متجاوزاً بذلك ما قام به الفلاسفة قديماً بتقييم لـ "النموذج الثقافي الأنوي" والمعرفة. وعلينا ألا ننسى أثر التحليل النفسي واعتماده على علم الأعصاب القائم على تجارب لفهم الجهاز العصبي المبني بدوره على بيولوجيا الدماغ، كي يعطينا مساحة أكبر في تجنب ما نسميه بـ "الأخطاء" (بالمعنى الضيق للكلمة) لنصبح أقل تعرضاً وتفادياً لها. لهذا أجد أن الإنسان المنغلق على مفاهيمه يجد صعوبة في تقبل المستجدات ومواكبة التغييرات، مما يسبب له التراجع الفكري، لأنه في حالة ثبات وعجز عن مجاراة الزمن والتغييرات الطارئة عليه.

لا ثراء في الفكر من دون التنوع المثمر والتداخل الفكري الجماعي.

بالطبع، ثمة من سيجد ضرورة في إضفاء الدين على الثقافة الجماعية، لترتدي القيم الأخلاقية حلة ثابتة مستلهمة من الأسس الدينية، فيكون (الدين) الحاكم والمكبل للفكر، وذلك كي يعطيه أبعاداً تتجاوز جميع الأبعاد الكونية والتي تؤجج الحالة البدائية "للأنا" الجاهل الهائم في محيط والعاجز عن إدراكه. فيبدأ أولاً بطرح عظمة الحكمة الدينية واستباقها الذات غير البشرية في مفهوم المعرفة. فيطالب بضرورة تقييد الأفراد داخل بوتقة جماعية.

دعونا نبحث عن الأسباب الأولى التي دفعت بالإنسان لخلق جنة ما بعد الموت واستبدالها بحياة واقعية قاسية مليئة بالآلام والذنوب مستندة على مبدأ العقاب الذاتي. فربما تعكس لنا، هذه الجنة الأبدية، بشكل لاواعي رغبة الإنسان الدفينة للرجوع إلى رحم أمه حيث الأمان والطمأنينة، لتتحول إلى فانتازيا خيالية وجنة مفقودة يبحث عنها في خيالاته اللامتناهية مبتعداً بذلك عن واقع لم تلعب إرادته في اختياره. هذه الجنة التي تخلو من العقاب والمكافأة والآلام والفرح والتعاسة والسعادة، تشبه بشكل كبير حالة الجنين في رحم أمه حيث تنطفئ جميع المشاعر المتناقضة، حيث تبدو الذاكرة الطويلة الفردية خالية من أي ذكريات وتجارب مخزونة، وتنسجم مع جنة العدم حيث اللاشيء بعد حالة الموت، لتعود ذراتنا إلى الحاضنة الكبرى (الطبيعة) فنتخلص بذلك من كل أنواع القلق الذي رافقنا بشكليه الواعي والمبطن منذ الولادة إلى لحظة الموت. تلك هي الجنة الناتجة عن الرغبة في البحث عن الخلاص، وقد صُبغت في فترة معينة بلون غيبي بعد أن حددنا إمكانيات الفرد ضمن أوعية اجتماعية وتم أسر حريته داخل إطار حياتي واع، فنسينا بذلك المعنى الأعمق للحرية والذي يعبر عن التحرر من كل أشكال الأرق الناتجة عن وعينا لهذه الحياة.

أعتقد أن رحلتنا في هذه الحياة، إن كانت فردية أو بشرية جماعية، تبدأ أولاً من خلال عملية بحث وتفتيش عن طرف خيط يقودنا إلى الإنسان الحر القابع في داخلنا وفي داخل كل العناصر الحياتية بهدف ملامسة النظام الطبيعي قبل الوصول إلى نقطة العدم والتصالح مع فكرة الموت.

علينا أن نبدأ تدريجيا بالبحث عن الحرية. مع أن الحرية التامة، كما أعتقد، لن نجدها إلا بعد رجوع جزئياتنا إلى غلافها الطبيعي متخلصة بذلك من سجن غلافيها الجسدي وتفاعلاتها النفسية لتسبح في فضاء واسع حر.

ولكن ربما كان علينا البحث عن وعي أكبر لذاتنا ولجميع الذوات الحية قبل الحديث عن الحرية التي تعبر بمفهومها الواسع عن حالة انفلات من الالتزامات الجسدية والاجتماعية والفيزيائية. فنحن محكومون بإمكانيات محددة سواء كانت جسدية أو فيزيائية، زيادة على أننا محكومون بجملة من شروط اجتماعية وثقافية وأخلاقية تم تلقيننا إياها. لهذا نستطيع القول: إن سعينا في هذه الحياة يجب أن يكون خلف المعرفة التي تساعدنا على استخدام أكبر لإمكانياتنا وقدراتنا. فكلما تزداد المعرفة بالقوانين الخارجية المحيطة، يزداد إحساسنا ويتوسع إدراكنا لاكتشاف قوانين فيزيائية كونية، لنكتسب حرية جزئية نسبية خاضعة لجملة قوانين كونية. أي أن الحرية وما تعنيه هي عبارة عن وحدة قياس نكتشف من خلالها درجة وصولنا لتحقيق استقلالية ذاتية داخل المحيط الذي نعيش فيه...

الخاتمة الحلقة4

ولكن، وسط هذا البحث اللامتناهي عن الحرية، تضيع المفاهيم والقيم المنغلقة ضمن كلمات براقة ترعرعنا عليها، لتقف حاجزاً بيننا وبين أفكار ومناهج وقوانين جديدة يمكننا لمسها، لتساعدنا في كسر بعض الثوابت والحواجز التي تعيق تقدم البشرية. فنتوه بعدها في أسئلة وجودية وفلسفية، ونتساءل من جديد عن معنى الحياة والفائدة منها. ليأتي لكل منا جواباً مختلفاً عن الآخر. ويعود ذلك إلى التجارب والخبرات الفردية المتداخلة مع تفاوت الوعي والإدراك. وأجد، من زاوية خاصة، أننا لم نولد لكي لنتوقف أو نتشبث بثوابت قديمة بل لنتمايل ونتراقص مع التغيرات الحياتية.

أعتقد أن رحلة البشرية هي رحلة واحدة تصب في هدف الحرية، بمعناها المتغير التابع لجملة قوانين خارجية متحولة. ولا يمكن العثور على هذه الحرية دون التحرر من الرغبات الأنوية التي تكبلنا، كي نستطيع التعامل مع المتغيرات والأفكار الجديدة بتناغم منسجم، ولنصل إلى مفهوم جديد لحرية نسبية، يستطيع الإنفلات من الانتماءات الجغرافية واللغوية والجماعية والنوعية. فعندما نتمكن من لمس الذات النائم في أعماقنا بهدف ملامسة الطبيعة والتوحد مع كل عنصر حياتي، لتكون بذلك رحلتنا المعرفية حصيلة الذات الكامنة في كل الكائنات وفي كل مكان وزمان...

ربما هي رحلة في الحياة والموت معاً كي نتعلم رسم خطوط الموت في خيالنا كي نصل إلى إبداع حياتي، وبذلك نستطيع معانقة الحياة والموت معاً.

لا شك أن هذا المفهوم للحياة يمهد لنا الطريق للإنعتاق من كل ما يثقل حركتنا وفكرنا، فيضعنا في مسار متجدد لمفاهيم ومعايير تفوق جميع المعايير الحياتية التي تربينا عليها. ولهذا علينا البحث الدائم عن نماذج ثقافية جديدة ومحاولة التقمص في كل الأنواع الحية الموجودة في هذه الطبيعة كي نتمكن من رمي الموروث البدائي الذي يعاني منه الإنسان أينما وجد.

لقد علمنا التاريخ أن الإنسان جدير بتغيير المفاهيم، وأن الحرية طريق طويل يبدأ أولاً بالفكر والقياس من خلاله. فالإنسان المستقل هو الذي يحكم على الأمور والأشياء من خلال دراسة مجردة تبدأ من ذاته أولاً وتمتد إلى اللانهاية... لتصبح القيم الثابتة عبارة عن إجحاف في حق كل من ناضل في سبيل الإنعتاق. ومن الإجحاف بحق أنفسنا أن نأسرها ونسجنها ضمن إطار ضيق يحصر الإنسان داخل دائرة عرقية وقومية وأفكار لا تصب إلا في المصلحة الضيقة للجماعة، مناقضة بذلك الدافع "الهايبوتالاميك" الباحث عن اللذة عند الفرد. ففي حال استحالة تحقيق السلوك المكافئ للفرد فإن كل ما ينشأ عنه هو قلق دفين، ليلجأ الدافع إلى الهروب من خلال العدوانية تجاهه وتجاه الآخر. لا ننسى أن سلوك العنف هو الوسيلة الأسهل لحل العراك ما بين الدافع "الهايبوتالاميك" والممنوعات الناشئة عن الثقافة- الاجتماعية التلقينية للفرد.

من هنا، أجد أن رحلتنا القصيرة في هذه الحياة تصب، قبل كل شيء، في سعي الإنسان وراء التصالح مع غرائزه وذاته بهدف إيجاد توازن ما بين الذات الفردي والذات الجمعي من خلال ازدياد وعيه والذي سيقودنا حتماً إلى إيجاد صيغ ووعي جديد. وفي البدء أعتقد أن علينا التحرر من كل المفردات والنعوت والصيغ، الجمالية وغير الجمالية، التي تسجن الإنسان ضمن وعاء مغلق، فتعرقل بذلك مساره المتغير وتغرقه في سراديب "أناه" ومصالحه المحدودة الآتية من الثقافة- الاجتماعية.

فإذا تمكنّا من الوصول إلى وعي أكبر وتبني الحيادية تجاه الأمور الخارجية المحيطة بنا ووضع نظرتنا "الأنوية" جانباً والمستمدة من خارج جمعي، نستطيع بذلك معانقة الحياة والحرية معاً والتي تبدأ مع التغلغل في الذات للمس الذوات الأخرى.

لا شك أن الحياة لا تقتصر على مفاهيم ضيقة ومحصورة في وعاء مغلق ولا تقتصر أيضاً على المعايير الدينية والإلهية، بل تمتد إلى أعماق الطبيعة والتي تبدأ أولاً بالغوص في رحلة عري ذاتي لكشف الستار عن ما نجهله. لكن وقبل الإنطلاق في أية رحلة حياتية، ربما يتوجب علينا أن نحدد أدوات التسلح لمجابهة كل من يريد عرقلة هذا المسار. فالاستقلالية أو الحرية، كما يطيب للبعض تسميتها، أجدها وفي مرحلتها الأولى تبدأ بمبدأ الالتزام لما نختاره حتى ولو كان لاختياراتنا عواقب غير مرغوبة والدفاع عن هذا المبدأ، وخصوصاً في مراحله الأولى، قبل أن تكون رحلة إنفلات فوضوية. فالحرية تبدأ بذلك الوعي للحروف والكلمات والإشارات الظاهرة والكامنة، الحاضرة والغائبة، فهي حصيلة وعي للماضي والحاضر والمتغيرات.. لرسم بعض المعالم، وللوصول إلى مفهومها الطبيعي والإحساس بوقودها، والتصالح ما بين المتضادات لإيجاد جسور وأنفاق تصل بين المفهوم الأعمق للحرية وبين الحرية بمفهومها الضيق.

لهذا أجد أن علينا إعادة تحديد مفردة الحرية وتنظيم مراحلها وتقسيمها إلى عدة فترات، وربطها بعملية الوعي الجمعية والفردية من دون الوقوع في أفخاخها واستخداماتها من قبل أولئك الذين لا يرون إلا حقيقة واحدة مصبوغة بلون واحد والذين لا يتورعون عن استخدام جميع الوسائل، فيبيحون لأنفسهم ما لا يبيحونه للغير ويحاربون الآخر المختلف من خلال مفرداته ومصطلحاته، فنجدهم يمارسون شتى أنواع القمع والاستبداد والحد من حرية التعبير تحت بند "إحترام العقيدة واحترام الحرية الشخصية". فلا يلتزمون بما يطالبون الغير به، وذلك لأنهم أصحاب الحقيقة الذين أنعم الله عليهم (وحدهم) بنور المعرفة والفكر. فتختلف المعاني بالنسبة إليهم، فلا يجدون في أفعالهم القمعية تجاه الآخر فعلاً مستبداً، بل يعتبرونه بمثابة تصحيح مسار وتأديب لصالح حقيقتهم التي لا تعرف إلا وجهاً واحداً غير قابل للهدم والبناء.

لهذا، أعتقد أن علينا التوقف في هذه المرحلة الحرجة لاتخاذ مواقف صريحة وشجاعة خالية من النفاق والمصالح من خلال وضع حدود تطبق على الجميع والإتفاق على حرية التعبير بشكلها الكامل من دون الإلتفاف عليها.

أعتقد أن الوصول إلى الاستقلالية يتطلب ثمناً، وهذا الثمن يبدأ في سد الطريق على كل من يريد أن يكبل حركة الفرد والحد من حرية تعبيره، من خلال الإعتراض على كل من قَبِل لنفسه بالبرمجة متشبثاً بذلك بكل ما لقن له من معلومات، رافضاً مبدأ البحث والتشكيك، قابلاً حالة القطيع، ورضي أن يكون نسخة رقمية تعيد وتكرر كل ما تم غرسه في دماغه ليعبر عن حالة موحدة لا تلائم مسار الطبيعة المتنوعة والمتغيرة.

إن عملية التوحيد للحقيقة والمعرفة والوعي وتكريس مفهوم ثابت للكمال والفضيلة، كما تفرضها ثقافة القطيع، ما هي إلا انعكاس لقانون آلي خال من الاكتشاف والتحول معاكساً بذلك مسار الطبيعة.

وإذا أتينا إلى معنى "الحقيقة" عند أولئك الذين يقدسون ثوابتهم، نراها خاضعة لجملة أخلاقيات ثابتة تعكس معايير الإنسان في فترة زمنية معينة نتجت عن إسقاطات لتفاعلاته النفسية وإدراكه في تلك الفترة لكل ما هو خارج عنه، لتخدم بذلك مبدأ "القطيع" الاجتماعي الخالية من أية استقلالية ذاتية. ولترتبط الحقيقة بمفاهيم تصعيدية. فكلما اشتدت ثقافة الفضيلة عند المجتمع، تشتد معها وتيرة عدم الانسجام الذاتي وتزداد الفروقات بين الأفراد، كما تزداد درجة التمييز والإنعزال الفئوي والفردي.

مما لا شك فيه أننا جميعاً كبشر نعاني من مشاعر متناقضة فيما بينها وذلك لهول الفجوة ما بين الثقافة الأخلاقية التي تلقيناها والمشاعر الطبيعية للإنسان، ولا شك أيضاً أن الإنسان القادر على مواجهتها والقادر على البحث في تركيبته الذاتية هو إنسان أكثر قدرة على الانسجام مع جميع الذوات المختلفة الحية.

هذه القدرة الذاتية في مواجهة الداخل الإنساني تقودنا نحو صيغ حضارية جديدة، لإعادة صياغتها دون اللجوء إلى مبدأ التصعيد والذي اتخذه الإنسان لإعلاء سقف فكره. ففي كل مرحلة، تختلف الأدوات والمعايير لتتجانس مع الزمن ومع مستوى وعي الأفراد. فإذا نظرنا، في وقتنا الحالي وبشكل غير متعمق، إلى قيم الحياة السابقة وأقمنا عملية مقارنة بينها وبين القيم الحداثوية، نراهما متعارضتين مع بعضهما. لكن عند اعتمادنا الغوص في أعماق القيم القديمة التي ولدت من وقود حياتها آنذاك، نجدها عبارة عن طابق في مدرج الوعي الإنساني...

الخاتمة الحلقة5

تختلف المعايير والمفاهيم للأخلاقيات التي تعبر، بشكل أو بآخر، عن التزامات فرضت على الأفراد مرتكزة على أدوات قمع جماعية ومن ثم ذاتية، والمتضادة للمعنى الجوهري للحرية التي تعني، غياب آلة قمع الذات. فإذا أتينا إلى مفهومها الفيزيائي، نجده يعبر عن ممارسة جميع القدرات والكفاءات لأي نظام حي.

نحاول جاهدين إيجاد معان لمسيرة حياتنا القصيرة كي نتسلح بالقوة وإرادة الاستمرار، ونتمكن بذلك إجتياز الهضبات الوعرة المسكونة في داخلنا النفسي، فيتداخل البناء الأنوي مع الذات الواعي واللاواعي الفردي الممزوج بالرموز الجمعية، ليقوم بترجمة كاملة لكل المخزون الذاتي، فتتحول الذات إلى أداة ووسيلة لفهم الذوات الأخرى ومحركاً أساسياً للتوغل في أعماق الحياة بكل ما تحتويه من عناصر.

إن الأخلاقيات والإلزامات الجماعية التي نعاني من عواقبها، مبنية على أساس الألم الناتج عن عدم "الاكتفاء". وهي مغروسة في جهازنا العقلي الجامع لكل المشاعر والأحاسيس المتضادة والمورثات الجينية، البارزة أو المضمرة. وحسب التعاليم المكتسبة والممنوعات الاجتماعية، فإنها تتغلغل في الفرد تدريجياً من خلال الأهل ومن ثم المؤسسات التربوية والاجتماعية التي تفرض عليه مشروعاً ثقافياً لا يمكنه تجاوزه. وهي تفعل ذلك من خلال ترسيخ أفكار شتى كالقضاء والعقاب والمكافأة، لتشكل الأرضية الأساسية للتفاعلات النفسية وبناء "الأنا".

إن هذه الأخلاقيات والقيم ترتديان سترة مختلفة تناسب عصرها، فتمران بمراحل مختلفة لتتناسبا مع التطور الواعي للجماعة، مما يساهم في ازدياد الضغوط النفسية عند الأفراد، فتتصارع غريزة اكتفاء الذات مع الصور العقلية المشحونة بمشاعر الخوف والرعب القابعة في لاوعي الإنسان والآتية نتيجة الثقافة الاجتماعية.

ينتج عن هذه المعركة الداخلية شعور بالذنب. فكلما أراد الفرد تحقيق اكتفاءاته تنتابه موجة رادعة تنبثق من صوره الداخلية المتراكمة منذ صغره، لتجتاحه كلياً، فيقف عاجزاً عن الفهم ويشعر بالشلل تجاهها. وهكذا يصبح الأفراد سجناء إلزامات جماعية فرضت عليهم، لتلعب دوراً مهماً في تأطيرهم ضمن قوانين وعادات وسلوكيات تبلورت مع الوقت وتحولت من تابوهات إلى ممنوعات دينية، رادعةً بذلك أية محاولة تمرد، وضامنة بذلك كيان الجماعة الهرمي.

ولكن ثمة ما يحسن الإنتباه اليه لدى المجتمعات "المتحررة" أيضاً.

لا شك أن مبدأ "العقاب والثواب" ما زال جارياً، إلى يومنا هذا، حتى في تلك المجتمعات التي تحقق لأفرادها إستقلالية نسبية وحرية في التفكير. وذلك لأن مبدأ "الهيمنة" ما زال مستمراً فيها من خلال طرق مختلفة.

ونستطيع القول: إن مبدأ الهيمنة على الأفراد أخذ تدرجات وانحدارات متنوعة اختلفت في تعاطيها مع الأفراد بشكل يتناسب مع درجة المعرفة ودرجة قبول الفرد للإلزامات الجماعية، حيث يتم تسجيل الأفعال تحت بندي الثواب أو العقاب في شريط الذاكرة، كما تسجل الممنوعات الآتية من الأهل ومن ثم الثقافة الاجتماعية العامة. وتعود هذه الممنوعات لتشكل كل ما هو مكتسب من الخارج كتمثيلات عقلية تساهم تدريجياً في بناء هيكلة عصبية داخلية مشفرة، ولتقوم بتحديد النموذج الثقافي- الاجتماعي، وبالتالي تحديد الإدراك المرتكز على كمية من الأحكام والقيم المكتسبة من سلسلة معلومات ممزوجة بمشاعر وأحاسيس مختزنة في الشريط الذاكري.

ولدى النظر إلى المجتمعات التي تجاوزت مبدأ "الإدخار" الاقتصادي لتتمتع بغزارة الإنتاج، نجد أن هذه المجتمعات تتحول إلى مجتمعات استهلاكية، ليطرأ على مبدأ الهيمنة الجماعية التي تتم ممارستها على الأفراد، تحوّل في الأسس وفي وسائل كيفية تطبيقها على الأفراد، ليتم ذلك من خلال أسرهم واستخدامهم كآلة إنتاجية تتم مكافأتهم، لتتم محاصرتهم من خلال قدرتهم على الإستهلاك.

لا شك أن أفراد هذه المجتمعات يتمتعون بجزء من حريات ضيقة، كحرية التعبير والفكر والسلوك الفردي الخاضع في ذات الوقت إلى الثقافة المشروطة الجماعية. والجماعة هناك تمنح الفرد ما حرمته منه منذ قرون عديدة وتعطيه الحق باكتفاء رغباته الغريزية، وممارسة قناعاته الفردية بشكل تعبيري، ولكن من دون أن يكون لحرية التعبير أي ثقل أو تغيير ملموس على أرض الواقع. وفي ذات الوقت يتم تطويع الفرد من خلال سجنه داخل قوقعة استهلاكية.

يدخل الفرد وبملء إرادته دائرة ضيقة معتقداً في ذات الوقت أنه سيد نفسه، ليتخلى عن فرص المشاركة بالقرارات التي تمس الإطار الأوسع للحياة المرتبطة بشكل وطيد بالمعرفة المتجاوزة للقيم المكتسبة من الثقافة الاجتماعية والمتدفقة من منابعه الذاتية المعرفية. وهكذا ينضم الفرد إلى أعداد هائلة تعمل وتعيش من أجل تحقيق أهداف تصب في مبدأ التمييز الفئوي أو العرقي، راضياً ببعض المكاسب الضئيلة الأنوية.

ومما لا شك فيه أن القيم المترسخة كتمثيلات عقلية في دماغ الفرد والتي سجلت في ذاكرة الفرد تبدأ منذ الولادة لتمتد على مدى سنوات طويلة، تهدف إلى سجن العقل وإخضاعه لقيم مشروطة آتية من الخارج، فهي ذاتها تخلق لدى الفرد تلقائيات سلوكية وأهدافاً محددة وتقوم بتسيير حياته ضمن منهج مشروط. وبذلك يتخلى الإنسان عن إمكانية تطوير أفكاره وتحديد مشاريع فكرية فردية تستطيع الهروب من إطارها الجماعي خادمة بذلك نظام الهيمنة المتدرج على شكل هرمي. وبذلك يتخلى الفرد العادي عن حرية القرار الذاتي.

وبما أن حرية القرار مرتبطة بالمعرفة، يعني ذلك تخلي الإنسان البسيط عن البحث الدائم ليصب اهتمامه باكتفاء حاجاته البيولوجية والأنوية الضيقة والتي يستطيع تحقيقها من خلال عملية الاستهلاك والمنافسة على قدرة الشراء للحصول على مكانة اجتماعية وأجزاء من حرية ضيقة تخلو من العمق الفكري، الأمر الذي ينشأ عنه اتساع رقعة الحرية الفردية التي لا

تتجاوز "الأنا" الصغير لتكتسب نفوذاً معيناً متبايناً بين مجتمع وآخر، وتصبح الكتلة تابعة لأفراد نافذين ونخبويين.

تقترن حرية الفعل بمركز العمل في الكيان الجماعي. فكلما ارتفع الفرد في مرتبته الجماعية، حصل على مساحة أكبر من حرية الحركة والقرار "الأنوي"، وهذا لا يتم إلا من خلال المكافأة المعتمدة من الكيان الجماعي، ليصبح الفرد أسيراً لمفاهيم اجتماعية، وذلك بالرغم من شعوره بأجزاء معينة من الحرية. ففي المجتمعات التي تمنح الفرد أجزاء من حريته كالتعبير مثلاً، نراها لا تقوم بترويج المعلومات الفردية الخارجة عن نظامها الثقافي-الاجتماعي، فتبقى المعلومة ضائعة غير قادرة على إيجاد نظام حسي يمكنه تلقيها وتحويلها إلى صورة عقلية، ليتم تسجيلها في الذاكرة وإضافتها كتجربة إضافية.

لا أعني من كلامي أن هذه المجتمعات تتحكم بشكل كامل بأفرادها وأنها تتساوى مع المجتمعات المستبدة اجتماعياً وثقافياً ودينياً وسياسياً، ولا أزعم أيضاً أن الأوروبيين أو الغربيين بشكل عام قد استطاعوا الوصول إلى مفاهيم وقيم إنسانية، فالفرد في هذه المجتمعات يتمتع وبشكل واضح ومن غير خجل بالتعبير عن أفكاره وكيانه. وبالرغم من كل الآفات التي يعاني منها الغرب إلا أنه اليوم يمثل حصيلة التراكم التاريخي والمعرفي المنتقل من بلد الى آخر، وحصيلة حضارات ولدت منذ وجدت البشرية.

جميع المجتمعات تعاني من الموروث البدائي. فالإنسان واحد أينما كان. ذلك إن ما يميز إنساناً عن آخر هو فكره الحر، وما يميز مجتمعاً عن آخر هو قانونه الذي يتكفل بحماية أفراده مهما تعارضت أفكارهم مع أسس الجماعة.

لم ترتق الكتلة الجماعية الغربية في مفاهيمها ومعاييرها الإنسانية بعد. وما زالت الشوفينية سلاحاً في أيدي جميع البسطاء الذين لا يملكون شيئاً مميزاً، فيسعون للإفتخار بأوطانهم وقوانينهم ومفكريهم. لهذا أجد أننا بحاجة ماسة إلى صحوة فكرية وإلى محاربة الشوفينية بكل أنواعها وأثوابها من خلال تقويم الإعلام والكف عن تدجين الفرد ضمن دائرة استهلاكية تجرد الفرد من آليات بحث دفينة تحثه على توسيع إدراكه للتعرف على نماذج بشرية تشمل جميع الكائنات الحية للوصول إلى الانسجام الكامل مع المحيط الخارجي بكل ما يحتويه.

الحياة والحرية جزءآن لا يتجزءآن. فمهومهما المتغير والمرتبط ببعضه يقود الفرد نحو استرجاع قيمته لتتكرر ولادته في كل مرحلة يكتسب فيها وعيا وإدراكا أوسع. ولهذا يتوجب تحرير الإنسان من سجن الفضيلة. انتهى

ملحق-1 الدين، وجه آخر للخرافة

نتشدق كثيراً بالكلام عن الخرافة والسخرية منها وكأنها أصبحت من ذكريات الماضي، فكثير منا لا يعي وجود الخرافة حوله واستحواذها على ممارساته اليومية وذلك يعود بالطبع إلى ارتداء الخرافة زياً دينياً، فقد حافظ الدين عليها بل حولها إلى بعض من أعاجيبه الإلهية.
إلا انه علينا ذكر أفضال الخرافة على المجتمعات في مرحلة ماضية، فقد ساهمت إلى حد كبير في تطوير مفاهيم تتعلق بإدارة المجتمع وخاصة بما يتعلق باحترام الملكية الخاصة. فقد أسست لتنظيم الجماعة والأسرة، فكانت المحرك الاساسي والدافع في تقييد الإنسان بقوانين جماعية، مع العلم أن الخرافة قد فتكت بأشخاص كثر. ومن الخرافة ظهرت الأساطير والمحرمات والأديان فمنها ولد الإله وترعرع على أسسها، لتتأقلم الآلهة وقوانينها مع عادات الشعوب كما حصل في المسيحية، على سبيل المثال، عند اعتناق الرومان لها، فميلاد المسيح هو احتفال وثني بميلاد الشمس، لتقرر الكنسية فيما بعد الاحتفاظ به كميلاد له، ونجد أيضا تشابه طقوس عيد الفصح مع طقوس أدونيس، كما ان هناك الكثير من الاحتفالات المسيحية المستمدة من الوثنية.
سأتطرق إلى صورة العذراء في الدين المسيحي الحاملة لطفلها من دون أي اتصال جسدي مباشر، لنجد مبدأ الحمل من دون ربطه بالرجل عند قبائل " البانجادا"، وذلك لجهلهم في ذلك الوقت بعلاقة الرجل بتلقيح البويضة وظنهم أيضاً بتكاثر الحيوانات والنباتات من خلالنا، حيث كان الاعتقاد السائد ان لحظة حصول الحمل مترافقة بشعور ينتاب المرأة عند إحساسها بارتعاش في الثدي، فكان عليها أن تستذكر في تلك اللحظة عما أكلته أو رأته أو فكرت به كنبات أو حيوان كي يتم اعطاء الطفل لاحقاً طوطمه ولهذا يعتقد ان الخرافة البدائية هي أصل الطوطم على حسب ما شرح فريدزر. إذن، نرى ان فكرة الحمل من دون رجل قد تواجدت عند الكثير من القبائل إلا ان المرحلة الروحانية التي تبعتها، اضفت عليها بعداً عجائبياً وهذا ما نراه في اعجوبة العذراء.
لا تحتكر الخرافة ديناً واحداً بل تمتد إلى جميع الأديان، إلا انني تطرقت قليلاً إلى الدين المسيحي وذلك خشيةً من الحساسية المفرطة الموجودة عند المسلمين وخشيةً من اتهامي بالعدوانية ضد اليهود في حال تطرقي إلى الخرافات المتواجدة عندهم، لهذا رأيت انه من الأسلم أن أعطي الأمثلة عن دين لا يملك اليوم أية سلطة سياسية أو قانونية كما ان عدم شعور مؤمنيه بالاضطهاد يسهل عملية النقد لتوضيح مدى تشعب الخرافة في الدين.
نلاحظ أن جميع الأديان استلهمت قوانينها وفروضها من معتقدات قديمة لاستحالة نسف كل ما تؤمن به الجماعة من قبل. فنرى أن كل دين يعكس عقلية وثقافة وأخلاق جماعته المؤسسة على تلك العملية التاريخية المعقدة المازجة لمؤثرات محيطية ومناخية، و كما قال

"ويل ديورانت "يدعم الدين الأخلاق بوسيلتين أساسيتين و هما:الأساطير والمحرمات، فالأساطير تخلق العقيدة فيما وراء الطبيعة".
إذن، في كل قانون ومعتقد جديد، نرى شيئاً من الرواسب القديمة للشعوب ومن هنا نستطيع استكشاف الماضي البعيد والوصول إلى الحقبات البدائية من خلال العناصر القديمة الموجودة في كل قانون أو معتقد.
أعود إلى الخرافة وإلى القرابين التي قدمت ارضاءا لأرواح ظناً بقدرتها على التحكم بالظواهر الطبيعية، أما في مرحلة لاحقة فقد نسبت مسألة التحكم إلى آلهة قادرة على كل شيئ، حتى اننا نلاحظ انه وليومنا هذا ما زالت الأضاحي تقدم لإرضاء إله نهلل له ونلقبه بالإله الأعظم أو الأكبر.
خشي الانسان البدائي قوى الطبيعة وبعد فشله بالتحكم بها قام بعبادتها لتجنب غضبها، فقدم لها القرابين لتتحول مع مرور الوقت إلى آلهة، فكان لكل مجتمع رؤيته الخاصة بما يخص إلهه. لنرى عند بعض القبائل المكسيكية ذات الديانة (الأزتيك) بقيامها بقتل إلهها الممثل ببعض الأشخاص بطريقة وحشية ليتم سلخ جلودهم وهم أحياء للاحتفاظ بأبديتهم وشبابهم الدائم بعد الموت، أي أن الموت عبارة عن بوابة عبور نحو الخلود.
سعى الإنسان، على مر العصور، إلى تخليد نفسه خوفاً من الفناء، فسطر أبدية ادم و حواء في سفر التكوين وعكس موته عليهما من خلال حرمانهما للأبدية التي وهبها الله لهما، أما عقابهما بالموت فأتى نتيجة للخطيئة الاولى العاصية لإرادة سيدهما وصانعهما عند تجرئهما في اكتساب المعرفة، فالإله الذي رسمناه وخلقناه لايريد إلا عبيداً كي يمارس ممثليه على الأرض سطوته. من هنا نجد أن الإنسان كان مدركاً في أعماق ذاته لقدرة المعرفة على قتل الإله والأوهام والخرافات المرافقة له. إلا ان إعدامه للإله يرافقه إعداماً لفكرة الأبدية والخلود التي سعى الإنسان البدائي إليها فقد كان رافضاً للموت باحثاً عن أدوات تسمح له بأبدية خالدة، فكان السحر والشعوذة والتابو للحد من فراق الروح للجسد أو لعودة أخرى للروح في حياة ثانية، إلا ان عجزه في صنع الأبدية جعلته يطرح رغباته إلى الخارج ويوكل الطبيعة هذه المهمة ليخلق قوى خارقة أخذت أشكالاً عديدة مع مرور الزمن ليعكس بعدها غرائزه الغير مباحة له من قبل الجماعة إلى جنات وآهات في أرض الله الخصبة بالممنوعات والمحرمات (كأنهار الخمر والعسل واللبن والحوريات).
إلا انه ما يثير الدهشة هو انجراف عدد هائل من البشر وراء الخرافة المتمثلة في الدين من دون تفكير أو تحليل، فمن الطبيعي فهم واستيعاب عبودية الإنسان البدائي لأمواته، وأرواحه ولأعراف جماعته لعدم امتلاكه الوعي الكافي الناتج عن العلم. فكان من السهل حكم الأفراد المتميزين لأفراد جماعتهم وذلك لعدم امتلاك الفرد البسيط أية كفاءة لتعلم سلوكيات متجددة، إلا ان ما يصعب فهمه هو حالة الكثير من المجتمعات المنقادة بشكل أعمى وراء الخرافات الدينية ووراء قادتها العاجزين عن اعطاء أي شيئ مميز لها. فهل افترينا على

أنفسنا عند توحيدنا للآلهة ومزجهم بإله واحد، لتصبح طريقة تفكيرنا أحادية، لنعلن عن تشبثنا بإله واحد وفكر موحد وقائد أوحد؟

ملحق-2 رهاب الالحاد

أتوجه في البدء إلى أصدقائنا المتدينين الذين يبشرون بسماحة دينهم واستيعابه جميع الضالين لأن الله كائن رحيم، فإذا كان الله رحيم كبير القلب، فعلى المؤمنين به الصبر على جميع المتمردين الباحثين عن التفكير من خلال ذاتهم. وإذا كان هذا الإله القوي القادر على هداية من يشاء فمعنى ذلك أن لديه حكمة في إيجاد أفراد لا يؤمنون به، لذلك على المؤمنين السكوت والرضوخ لمشيئة إلههم العارف في الغيب.

فمما يخشى المؤمنون الساكنون في أحضان الله الواسعة كل ما هو خارج عن اطارهم الديني؟

أعتقد أن ما يثير حقد بعض المتدينين هو امكانية الملحدين بالتجول بحرية واسعة في أطياف الإله والكون والحرية معاً. فالعبد لا يرغب إلا برؤية الجميع عبيداً، فهو حاسد دائم للحرية والحياة، ينظر بعين حاقدة إلى كل من يستطيع كسر القيد، فهو يحلم بالحرية إلا انه لا يدركها، فإدراكه عاجز عن تجاوز الكلمات والعبارات المنسوخة في كتابه المقدس لأنه عاجز عن إدراك مشاعره وأحلامه. فالإدراك يتم دائماً من خلال الإحساس الذي بدوره يقوم بعمل ترجمي يحول الطاقة الداخلية إلى اداء.

نجد أن الإدراك بحد ذاته عبارة عن عملية بناءة وإبداعية، وهذا ما يفتقده المؤمنون، فهم لا يملكون المفاتيح لخوض هذه التجربة الإبداعية، ليستسلموا إلى عبارات وكلمات سجلت في زمن مضى. لا أعتقد ان المشكلة في الإيمان نفسه بل هي في نفوسهم الراضية بكل ما يملى عليهم، فهم يفتقدون إلى ترجمة الأحداث بمنطق علمي سليم.

كثيراً ما نتساءل عن أسباب تشنج أفراد بعض المجتمعات إزاء الأفكار الجديدة، وبالأخص المجتمعات الدينية، لنرى أن وراء هذا التعنت، حالة مرضية مزمنة منبثقة من المعتقد والإله نفسه الذي يؤمنون به. فهو (أي الإله)ذلك الثابت والمطلق للكمال على حد تعبير اخواننا المؤمنين الذين لا ينفكون عن التشدق به ليكيلوا له جميع الفضائل والمدائح.

فهل حقا هو ذلك الإله العظيم الجبار القادر على كل شيئ والقادر على نصرة من يعتقد به؟

دعونا أولاً، نتمعن به وننظر له نظرة حيادية، فنراه مصابا بعقد نفسية إنسانية، منها السادية، التشنج، حب العظمة والغرور...فكما نرى من ضمن أسمائه الحسنى (الله، المهيمن، الجبار، المتكبر، القهار، المذل، المنتقم،المتعالي...)، وإذا أردنا سرد أمراضه فلن ننتهي من عدها لأيام عديدة. وإذا تساءلنا عن أصل اصابته بكل هذه العاهات، نجد أن هذه الأمراض المزمنة المتواجدة لديه، ما هي إلا نتيجة الصراعات البشرية ورغبة جماعة ما في السيطرة على أخرى، والبحث الإنساني عن فكرة الكمال والمعرفة.

من الطبيعي أن يشعر الإنسان السابق بعجزه عن فهم أمور كثيرة لم نعد الآن عاجزين عن فهمها واستيعابها.

إذن، لماذا نجد هذا التشبث بهذه القيم والأخلاق التي لم تعد تنفعنا، بل أصبحت هذه القيم قيما متسمة ببشاعة أخلاقياتها القائمة على التمييز الديني والعنصري والجنسي ولا ننسى أيضاً التمييز النوعي الذي نحن الآن بصدد إضفاء قيم تتجاوز الكائن الانساني لتشمل الحيوانات والكائنات الحية جميعها.

أعود قليلا إلى مرض الإله المزمن العاشق للدمار والمنافق المنتحل لصفة الصدق والعطاء. نرى أن مرضه هو مرض الكتل الجماعية التي تبحث للسيطرة من خلال جميع وسائل القمع الوحشي، فمن خصائص هذا المرض الإلهي_الجماعي هو الاصرار على رؤية واحدة ومن زاوية ضيقة. فإدراكه الصغير عاجز عن رؤية أو سماع ما يقوله الآخرون من أفكار وآراء، فهو شديد الغضب والعنف، يحلل دماء كل من يتجرء على نقضه أو محاولة التفكير خارج إطار ثقافته ودينه، فأين هو من ذلك الرحيم، الرؤوف الوديع، المحب للجميع؟ أو لا ترون معي ان كيانه قائم على تفريغنا من عقولنا وشل قدرتنا العقلية.

وإذا كنت مخطئة في حكمي عليه لجهلي الشديد بمضمونه، أليس بالأحرى على المتدينين، التمثل بإلههم الغفور وعدم شن هجومهم على كل من يخالفهم الرأي للانتقام والدفاع عن إله من المفروض انه قادر على حماية نفسه، أو ليس عدم اتكالهم عليه، هو التشكيك بمقدرته وعدم الإيمان بعظمته القادرة على تغيير من يريد أو شل كل نفس تجرؤ على التشكيك أو التنكيل به؟

أعتقد أن المؤمنون يعلمون في أعماقهم أنهم غير قادرين على الاتكال على إله هش وضعيف عاجزعن لمس ذبابة صغيرة، فهم في صراع نفسي دائم ما بين العقل والخرافة، ما بين العلم والجهل، لكنهم ولرغبتهم بالانتماء إلى وعاء جماعي، يبدؤوا ببناء ذلك الجدار الرباني فيغرسوه في أعماقهم، كي يشكل لديهم هوة عميقة في لاوعيهم فتحدد مسارهم المليئ بالتعاسة والحقد والخرافة في آن واحد، هاهم عاجزون عن المصالحة مع الرغبات والنزوات الداخلية ليبتروها ظاهريا ويمارسوها خفية بشكل مرضي، لأنهم غيرقادرين على السيطرة على كل حاجاتهم البيولوجية). وكما عبر فيلهم ريتش عن آلية التدين التي يعتمد عليها الأفراد والجماعات كطرق للاستنتاج الناتجة عن عدم معرفتهم وخبرتهم في الحياة، أما ما ينتج عند انهيار هذه الآلية التي تؤدي إلى فتح مسالك متنوعة لاستكتشاف الحياة، لأن الحياة والحرية شيئاً واحداً ولا نستطيع لمسها إلا بعد محاولات عديدة لمحاولة فهمها بطريقة عقلانية ومنطقية.

دعونا نتساءل عن آلية برمجة أدمغتنا التي يتبناها رجال الدين والسلطة والجماعة، فنجد ان مواقعنا و صحفنا (المبجلة) الناشرة والباحثة في كل شيء عدا الثقافة والفكر لا تنفك في غسل عقول قارئيها إما عن طريق بث السموم الدينية السرطانية، أو نشر تفاهاتها المعهودة. وما يثير السخرية أكثر هو استفسارهم الدائم عن عجز الشعوب العربية بمواكبة التطور والإبداع، وكأن التطور ناتج عن ثقافة الثابت والكمال الإلهي.

لقد أصبحت سياسة الاستبداد الإلهي أو السياسي أو الاجتماعي مرتبطين بشكل موثق، ولا يمكننا المطالبة بأية حرية من غير المطالبة بحرية الفرد إن كانت فكرية أو ثقافية، لهذا يجب علينا أن نتوجه نحو الفردية وتحرير الإنسان من كل القيود التي تكبل عطائه الإبداعي. علينا الاتجاه نحو الأخلاق النابعة من الذات والحد من الأخلاق الاجبارية، لأنها تحد من امكانية السفر في كل الأحياء لنستقي أخلاقنا من كل كائن حي.

علينا اليوم أن ننفض غبار الخوف المتجذر في أعماقنا، من خلال رفض أية سلطة تحاول تقييد الفرد للابقاء عليه عبداً وذليلاً. فلا أخلاق ترتجى من الإنسان الفاقد لإنسانيته والمتقوقع في دائرته الدينية أو العرقية أو الجنسية، وإذا كنا جميعا ملحدون أو مؤمنون نسعى إلى درء الاضطهاد، فعلينا التمرد على كل أنواعه. فلا حرية من غير الاعتماد على التحليل الذاتي واستنتاج الأحكام من خلال الفرد نفسه، علينا أن نؤمن بأنفسنا أولاً ومن ثم الغوص في أعماقنا البشرية لنعثر على الأنا الصغيرة المتقمصة بالإله.

لا يسعني الآن إلا أن اقول ان شعوبنا العربية ستبقى راضخة للذل والاستبداد مادامت لا تملك إلا الإله، فهي تعزي نفسها على أنها صاحبة الأديان السماوية وأن الإله خصها تحديداً واختارها كي تنام بجانبه نومة أبدية.

تطرح رندا قسيس في هذا الكتاب طرحاً غير مسبوق أمام الثقافة العربية انطلاقاً من خلاصة بحثية تستفيد من أبحاث علم النفس والأنثروبولوجيا ويبدأ هذا التحدي من استنتاج يقول أن نظام الأخلاقيات الدينية الذي قصد أن يشكل قوالب لما هو محرم أو مقبول في العلاقات الجنسية بين البشر لم يكن بدوره إلا تطويرات من أساطير وخبرات اجتماعية سابقة حاولت التحكم بهذه الغريزة وتطويعها لخدمة النظم الاجتماعية السائدة وبالتالي لخدمة سلطة الأمر والنهي فيها.

لقد رفعت تلك النظم هذه الأخلاقيات إلى مصاف المقدس ليس لأنها عجزت عن فهم الجنس وحده بل لأنها عجزت عن فهم ألغاز الطبيعة أيضاً وكل ما كان في حولها وقوتها هو أن تمارس التسلط على كل ما لم تفهم.

رندا قسيس الكاتبة والباحثة السورية تأخذ بهذا التحدي إلى عتبة أعلى عندما تقول أن الحياة والحرية جزآن لا يتجزآن وأنهما مرتبطان ببعضهما البعض. هذا ما انتهيا إلى معرفة أن الأخلاقيات الدينية كانت نتاجاً لسوء الفهم فالسؤال يكون عن الواجب أن يتحرر الإنسان من سجن الخطيئة

الناشر

رندا قسيس

سراديب الآلهة

الناشر الإلكتروني العربي الأول للكتب

2012